www.ibtesama.com/vb

المركز القومى للترجمة

إرادة السعادة
وقصص أخرى

مختارات قصصية من

توماس مان

ترجمة وتقديم

محسن الدمرداش

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي
مجلة الابتسامة

المشروع القومى للترجمة

1251
الإبداع
القصصى

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

إرادة السعادة (وقصص أخرى)

www.ibtesama.com/vb

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١٢٥١
- إرادة السعادة (وقصص أخرى)
- توماس مان
- محسن الدمرداش
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٨

هذه ترجمة
مختارات قصصية للأديب الألمانى
توماس مان

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

www.ibtesama.com/vb

إرادة السعادة

(وقصص أخرى)

مختارات من توماس مان

ترجمة وتقديم: محسن الدمرداش

مجلة الابتسامة

٢٠٠٨

www.ibtesama.com/vb

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مان، توماس
إرادة السعادة: مختارات قصصية، تأليف: توماس مان؛ ترجمة وتقديم: محسن الدمرداش. ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٨
٢٨٠ص؛ ٢٤ سم
١- القصص الألمانية
أ- الدمرداش، محسن (مترجم ومقدم)
- العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٧٦٦٦
الترقيم الدولى: 0 - 883 - 437 -977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

www.ibtesama.com/vb

الفهرس

تقديم.....7
إرادة السعادة.....11
الموت.....39
خيبة أمل.....49
طوبياس ميندرنيكل.....59
دولاب الملابس.....75
الطيش.....91
طريق المقابر.....99
الطفل المعجزة.....115
لدى المتنبئ.....131
محنة.....147
نادرة.....161
تعارُك يابه ودو- أسكوبار.....169
تريستان وإيزولدا.....195
سيف الله.....209
حادثة القطار.....241
مجون.....257

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

تقديم

شهدت مدينة لوبيك عام ١٨٧٥ ميلاد توماس مان، الذى يعد من أعظم الروائيين الألمان، والذى استقر فى ميونيخ من ١٨٩٣ حتى ترك ألمانيا ١٩٣٣، وعاش فى سويسرا على ضفاف بحيرة زيورخ، لكنه انتقل فى الحرب العالمية الأولى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لينال فيها الأستاذية عام١٩٣٩، ثم استقر فى ولاية كاليفورنيا، إلى أن عاد إلى سويسرا وتوفى فى الثانى عشر من أغسطس ١٩٥٥.

"لعلّى لم أستطع أن أتخذ الشعر أو المسرح موطنًا أدبيًا" هذا ما صرَّح به توماس مان، الذى بدأ حياته الأدبية بمحاورات شعريَّة ومسرحيَّة، حتى بلغ العشرين من عمره تقريبا، حين رأى النثر صيغة مثلى لتعبيره الأدبى. وكان كل ما دوّنه معبرًا به عن دراساته وميوله وخبراته ومعايشاته، قد نما وتحوّل إلى قصص ألقت الضوء على الأماكن والأحداث والشخصيات والوقائع والوصف والحوار المباشر، كما أوجبت أسلوبا واضحا، ارتبط فيه صوت الكلمة ببناء الجملة، ليظهر الإيقاع والرنين والحوار فى نثره المبكّر، لكنه تخلّى عنه فيما بعد.

قبل "آل بودنبرج" (١٩٠١) ظهرت قصص أخرى لتوماس مان، لترسم طريقه الأدبى، وقد جمعها الناشر

www.ibtesama.com/vb

س. فيشر عام ١٨٩٧ فى كتاب واحد، ليصبح أول إنتاج لمؤلفه، الذى صارت له "حياة أدبية" ثريّة فيما بعد.

بعد صدور أعماله "تونيو كروجر"، و"الموت فى فينيسيا"، وبينهما القصة المميزة لإنتاجه النثرى "محنة"، أخذ توماس مان خطوة عام ١٩١٩ على طريق القصة الريفية فى عمله "السيد والكلب"، ثم بقالب يميل إلى الشعر بعد ظهور "الجبل السحرى". وردت بعد ذلك تجاربه الذاتية الساخرة فى نطاق الأسرة "الاضطراب والمعاناة الأولى". أما وعيه السياسى فقد تجلّى، بعد حصوله على جائزة نوبل عام ١٩٣٠، فى قصة "ماريو والساحر". وفى عام ١٩٤٠، قبل أن تتم روايته الأسطورية "يوسف وإخوته"، ظهرت الأسطورة الهنديّة "الرءوس المستبدلة"، وقصة النبى موسى "القانون" ١٩٤٣، وبعدها بعشر سنوات "المخدوعون"، التى تعتبر نهاية للقالب القصصى القصير.

تمثّل الموضوع القصصى لدى توماس مان، من البداية حتى النهاية، فى الحب والموت، اللذين ظهرا أيضا فى العنوان؛ وهذا ما يتضح فيما نقدّم له من قصصه القصيرة "الموت" و"طريق المقابر" و"تريستان وإيزولدا".

إن حصرنا ما نشرته دار فيشر للنشر من أعمال توماس مان فى كتاب الجيب نذكر : "جلالة الملك"، و"الموت فى فينيسيا"

www.ibtesama.com/vb

وقصص أخرى، و"السيد والكلب"، و"لوته فى فيمر"، و"اعترافات الدجّال فليكس كرول"، و"آل بودنبرج"، و"الجبل السحرى"، و"يوسف وإخوته" (ثلاثة أجزاء)، و"الدكتور فاوستوس"، و"تونيو كروجر/ ماريو والساحر"، و"توماس مان. ترتيب تاريخى لحياته" أعده كل من هانز بورجن وهانز-أوتو ماير، و"المختار"، و"توماس مان. خطاباته إلى ناشر أعماله"، و"القصص"، و"توماس مان/هينريش مان. تبادل الخطابات بينهما"، و"مقالات فى ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول، أدب، أصدره ميشائيل مان ١٩٠٦؛ الجزء الثانى، سياسة، أصدره هرمان كورتسكه ١٩٠٧؛ الجزء الثالث، موسيقى وفلسفة، أصدره هرمان كورتسكه ١٩٠٨، و"خطابات" فى ثلاثة أجزاء، و"فاجنر وعصرنا"، و"جوته واتجاهه الأدبى" و"نشأة الدكتور فاوستوس".

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

إرادة السعادة

حقق صاحب المزرعة هوفمان الكبير ثروته في أمريكا الجنوبية، التي تزوج ابنة عائلة كريمة من قاطنيها، وسرعان ما عاد بها إلى وطنه في شمال ألمانيا، حيث عاشا معًا في مدينتي هذه، التي تحوي باقي عائلته، وشهدت ميلاد ابنهما باءولو.

لم أعرف والديه عن قرب، لكن باءولو كان على أي حال صورة طبق الأصل من أمه. عندما رأيته لأول مرة، حيث أتى بنا أبوانا في أول زيارة للمدرسة، كان غلامًا نحيفًا ذا وجه يميل إلى الاصفرار. مازالت صورته ماثلة في ذاكرتي حتى الآن. خصلات شعره طويلة سوداء، تتدلّى منكوشة مشعثة على ياقة بدلة بحّار للأطفال، وتحيط بوجهه النحيل.

على الرغم من أن كلينا من بيت في رغد من العيش راقٍ، استطعنا أن نأتلف مع ما حولنا متمثلاً في فصل أجرد ومدرّس بخيل ذي لحية حمراء، أراد بإصرار أن يعلمنا الأبجدية. حين رغب أبي الذهاب أمسكته من الجاكتة باكيًا، بينما ظل رد الفعل سلبيًا لدى باءولو حين فعل أبوه المثل. أسند ظهره إلى الحائط دون أن يحرّك ساكنًا، وضم شفتيه الرقيقتين،

www.ibtesama.com/vb

واتجهت عيناه الكبيرتان الممتلئتان بالدموع إلى الصبيان الآخرين المتدافعين بأمل وابتسام غير مبالين.

على فطرتنا شعرنا من البداية أن كلاً منّا مرتبط بالآخر، وسعدنا حين سمح لنا معلمنا ذو اللحية الحمراء أن نجلس متجاورين. أصبحنا روحًا واحدة فى جسدين ووجدنا حافزًا لتعلمنا معًا، وتبادلنا يوميًا شطائرنا.

كما أذكر أنه كان مريضًا، يضطر بين الآونة والأخرى أن يغيب عن المدرسة، وعند عودته تظهر على أصداغه وخدوده، التى تميل إلى السمار، عروق زرقاء باهتة بدرجة فوق المعتاد. هذا ما كان دائما، ولفت نظرى كلّما التقينا هنا فى ميونيخ من جديد وأيضا بعد ذلك فى روما.

استمرت زمالتنا طوال سنوات دراستنا، على الأرجح لنفس سبب نشأتها. هذا الذى قرأ أعمال "هينه"[1]خلسة وهو فى الخامسة عشر من عمره، وأصدر حكمًا حازمًا على العالم والإنسان فى العام الثالث من دراسته الجامعيّة، صار ذا "أسلوب متحفّظ" مع غالبية زملائنا.

في السادسة عشر من عمرنا، على ما أعتقد، زرنا معًا مدرسة رقص مكنتنا معًا أيضًا فيما بعد أن نعيش حبنا الأول.

www.ibtesama.com/vb

فتنته فتاة صغيرة شقراء مرحة فعشقها بجوى شديد غير مألوف فى سنه هذه، مما جعلنى أرى فيه أحيانًا انقباضًا رهيبًا بوضوح.

أتذكّر، على وجه الخصوص، تلك الحفلة التى رقصت فيها الفتاة رقصة الكوتليون[٢] مرّتين مع فتى آخر سواه. تتبعته أثناء ذلك بعينى خائفًا، فإذا به يظل ساندًا ظهره بجوارى على الحائط، دون أن يحرّك ساكنًا، مثبتًا بصره على حذائه اللاّمع، حتى تهاوى مغشيًا عليه. حملناه إلى منزله ليرقد مريضًا ثمانية أيام. وسرعان ما صار فى حكم اليقين، على ما أعتقد نتيجة تلك الواقعة، أنه مصاب بمرض فى القلب.

قبل هذه الفترة كان قد بدأ الرسم، وأظهر موهبة عظيمة. ما زلت أحتفظ بورقة قد رسم عليها بقلم فحمى وجهًا يحمل ملامح صاحبته، وكتب أسفل توقيعه عليها: "أنتِ كالزهرة ! – رسمها باءولو هوفمان".

لا أعرف متى، على وجه التحديد، لكننا كنَّا فى سنة متقدمة بالمدرسة، حين غادر أبواه المدينة ليستقرا فى كارلسروه، حيث تتركز علاقات هوفمان الكبير. ولمّا كان على باءولو ألاّ يغيّر المدرسة، فقد تركوه لدى أستاذ عجوز متقاعد.

www.ibtesama.com/vb

إلاّ أن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، وربما لم يكن أيضا هو السبب الوحيد فى أن يلحق باءولو بوالديه فى كارلسروه، ولكنه على أى حال دافع إلى ذلك.

فى إحدى حصص الدين اتجه المدرس فجأة بنظرة لوم حادة إليه، وسحب من تحت كتاب العهد القديم أمامه ورقة رسم عليها صورة فتاة كاملة الأنوثة حتى قدمها اليسرى، تلقى نظرتها بلا حياء.

ذهب باءولو إلى كارلسروه، وتبادلنا الكروت بالبريد بين الآونة والأخرى كاتصال تضاءل بيننا شيئًا فشيئا.

مرت خمس سنوات تقريبًا على فراقنا حتى قابلته فى ميونيخ. كنت سائرًا فى صباح ربيعى جميل بشارع أمالين، فرأيت أحد نازلى السلّم الخارجى للجامعة، يعطى عن بُعد انطباعًا بأنه إيطالى. وعندما اقتربت منه كان هو بالفعل.

أتى إلىّ بخطوته الرزينة المنسجمة، متوسط القامة، واضعًا قبعته فوق شعره الأسود الكثيف، ببشرة صفراء تميزها العروق الزرقاء، وبشارب قصير ثائر، أنيقًا، لكنه مهمل فى هندامه، على سبيل المثال بعض أزرار الصديرى غير مغلقة.

عرف كل منّا الآخر فى الوقت نفسه تقريبًا وتبادلنا تحيّات حارة. أثناء حوارنا أمام قهوة مينيرفا عما كان فيما مضى من

www.ibtesama.com/vb

أعوام. بدا لى فى حالة أُنس وطرب، تكاد تكون غريبة. تألّقت عيناه واتسمت تحركاته بالسعادة والاستغراق حتى بدا مرهقًا، بالأحرى مريضًا. واصلت حديثى معه بيسر، إلاّ أن حالته أدهشتنى حتى جعلت كلامى يعبّر له عن ذلك، فرد قائلاً: "أأنت دائما هكذا؟ نعم، إننى مريض، مريض للغاية، بل وكنت فى السنوات الماضية شديد المرض. إنه هنا."

أشار بيده اليسرى إلى قلبه ثم قال:

"القلب منذ القِدَم. لكننى فى الفترة الأخيرة أحسن كثيرًا، على ما يرام. لعلّى أستطيع أن أقول إننى صحيح. أمّا الاثنان والعشرون عاما التى مرت من حياتى فقد اتسمت أيضًا بالمرارة...".

بمزاح معتدل ومرح واصل حديثه عن حياته منذ افتراقنا. حيث سرعان ما ظفر بموافقة والديه على أن يصبح رسّامًا، وبالفعل انتهى من دراسته للفنون منذ حوالى تسعة أشهر – لكنه جاء الآن بالمصادفة – كما قضى بعض الوقت فى رحلات، وبخاصة في باريس، وأتى إلى ميونيخ منذ حوالى خمسة أشهر. ثم قال: "ربما أبقى فيها وقتًا طويلاً، مَنْ يعلم ؟ ربما دائما ...".

سألته: "أهكذا؟".

www.ibtesama.com/vb

فأجاب: "نعم، لِمَ لا؟ أعجبتنى المدينة جدًا! ماهيتها! أهلها! وأيضًا لا نغفل أهمية أن لا أحد هنا يعرف أننى رسّام، ولا أجد أفضل من هذا في أى مكان آخر ...".

"هل صارت لك معارف لطيفة ؟".

"نعم. قليلة لكنها ممتازة. على سبيل المثال يجب علىّ أن أدلك على عائلة تعرّفت إليها فى الكرنفال. الكرنفال الرائع هنا! عائلة شتين. البارون شتين".

"من الأعيان ؟".

"يسمونه أغنى الأغنياء. فقد كان البارون رجل بورصات، لعب فيما سبق دورًا هائلاً فى فيينا، وخالط كل الأغنياء، وظل هكذا حتى تعرض فجأة لخسارة بلغت المليون تقريبًا – كما يقولون – ويعيش الآن هنا بلا فخامة لكنه من النبلاء".

"يهودى ؟"

"لا أعتقد، ربما زوجته. لكنى لا أستطيع أن أقول سوى إنهما لطيفان ومهذبان للغاية".

"ألديهما أولاد ؟"

"لا – أعنى – لديهما ابنة فى التاسعة عشر من عمرها. والداها ظريفان"

www.ibtesama.com/vb

بدا لحظة حائرًا ثم أضاف: "أقترح عليك أن أذهب بك إليهم. كم يسعدنى هذا. أتوافق ؟"

"بالتأكيد. أشكرك. يا حبذا أن أتعرف إلى هذه الابنة ذات التسعة عشر عامًا".

رمقنى من جَنْب ثم قال: "جميل.لا نؤخر هذا كثيرًا. إذا ناسبك، أآتى إليك غداً في الواحدة والنصف وأصطحبك إليهم؟ إنهم يسكنون بالمنزل رقم ٢٠ فى شارع ترزين، الدور الأول. يسعدنى أن أذهب إليهم ومعى زميل المدرسة. اتفقنا إذاً".

بالفعل دققنا في ظهيرة اليوم التالي جرس الباب بالدور الأول فى منزل أنيق بشارع ترزين. بجوار الجرس ظهر الاسم مكتوبًا بحروف عريضة سوداء بارزة: "البارون شتين".

كان باءولو مضطربًا طوال الطريق، يكاد يتسم بالمرح والتهريج؛ أما أثناء انتظارنا فتح الباب، رأيت فيه تغيرًا عجيبًا. كل ما فيه صار أثناء وقوفه بجوارى هادئًا، حتى رفرفة جفونه العصبية. هدوء ضرورى متوتر. مدّ رأسه قليلاً إلى الأمام. كاد يبدو كأنه حيوان يرهف أذنيه متحرشًا، ويسترق السمع بشد كل عضلاته.

www.ibtesama.com/vb

أخذ الخادم كروتنا، ثم عاد إلينا يدعونا للجلوس والانتظار حتى تأتى البارونة بعد قليل، ثم فتح لنا باب حجرة كبيرة بعض الشيء، ذات أثاث غامق اللّون.

عند دخولنا قامت شابة، ترتدى ثياب الربيع، فى الشرفة المطلّة على الشارع، ووقفت لحظة دلّ فيها تعبير وجهها على التساؤل. اعتقدت أنها الفتاة ذات التسعة عشر عاما، واتجه نظرى تلقائيًا إلى صاحبى، فهمس فى أذنى قائلاً: "البارونة الشابة آدا!".

أنيقة الهيئة، إلا أن صورتها لا تدل على سنّها، وتكاد تحركاتها، بالغة الرقّة والتثاقل، لا تعبّر عن فتاة شابة مثلها. شعرها أسود لامع يحيط بوجهها، وخصلتان يغطّيان جبهتها، حتى ظهر الفرق كبيرًا بينه وبين بشرتها شديدة البياض. وجهها ذو الشفتين المكتنزتين الرطبتين، وذو الأنف الممتلئة، وعينين حوراوين على شكل اللّوز يتقوس حولهما حاجبان أسودان، لا يثير أى شك فى أن نسبها ذو أصل سامٍ إلى حد ما، ويُظهر جمالاً يتجاوز المألوف.

مشتْ خطوات إلينا قائلة بصوت خافت: "لدينا ضيف؟" ثم وجهت إحدى يديها نحو جبينها وكأنها تحاول إمعان النظر، واستندت بالأخرى على البيانو بجوار الحائط.

www.ibtesama.com/vb

ثم أضافت بنبرة الصوت ذاتها، وكأنها لم تر صديقى إلاّ الآن فقط: "صديقنا العزيز لدينا أيضًا؟" ثم ألقت علىّ نظرة تساؤل.

مدّت يدها إلى باءولو، فتقدم نحوها دون أن ينبس بكلمة، وانحنى إليها بالبطء الناعس، الذى يميز متعة المرء بملذاته.

ثم قال: "أيتها البارونة الشابة، لقد سمحت لنفسى أن أقدّم إليكِ زميلى فى المدرسة، الذى تعلّمت معه الأبجدية...".

مدّت يدها إلىّ أيضا، يدها الناعمة الغضّة دون حُلّى.

قالت وقد استقرت علىّ نظرة عيونها السوداء المتسمة بالخجل: "تشرفّنا! كم سيسعد والدىّ أيضا بلقائك...لعلّ خبر قدومك قد وصل إليهما".

جلست على الكنبة، على حين جلسنا نحن على كرسيين أمامها. استقرت يدها أثناء حديثنا فى حجرها، وحجبت أكمامها القطنية قليلاً من ذراعيها، وقد أدهشتنى نعومة مرفقها.

بعد عدة دقائق انفتح باب حجرة مرفقة ودخل والداها. البارون متين البنيان ذو صلعة ولحية مدببة؛ يميزه دفعه المستمر لساعة يده الغليظة تحت أساور قميصه. إلاّ أن هيئته لا تدل على تراجع فخامته كأحد النبلاء؛ على العكس من ذلك إذا

www.ibtesama.com/vb

بزوجته يهوديّة ضئيلة، قبيحة ذات رداء رمادى دون زينة، يتلألأ ماس غليظ تحت أذنيها.

جرى تقديمى واستقبالى بترحاب ولطف رائع، بينما صافحا مرافقى بوصفه صديقًا عزيزًا للعائلة.

بعد السؤال والجواب فى حوار عنّى وعن أحوالى، بدأ الحديث عن معرض ضمّ لوحة لباءولو، التى تصوّر جسم امرأة عارية.

قال البارون: "عمل عظيم! وقفت أتأمله نصف ساعة مؤخرًا. لون الجسم فوق السجّاد الأحمر على جانب كبير من الأهمية. نعم، نعم إنه هوفمان!" ثم ربت على كتف باءولو بعطف قائلاً: "لكن بالله عليك، لا تجهد نفسك يا صديقى الشاب! أنت في أشد الحاجة إلى أن تترفق بنفسك. كيف حال صحتك الآن"؟

أثناء حديثى مع البارون، كان باءولو جالسًا قبالة البارونة الشابة، متبادلاً معها كلمات بصوت منخفض. أما الاضطراب، الذى لاحظته عليه من قبل، فقد ذهب عنه. وأصبح يعطى الانطباع، دون سبب يمكننى تحديده بدقة، كأنه فهد متحفّز. لكنى كم تأثرت حين ظهر بريق مريض على عيون

www.ibtesama.com/vb

سوداء في وجهه الأصفر النحيل، أثناء إجابته سؤال البارون بنغمة متفائلة قائلاً :

" آه، شكرًا جزيلا ! حالي على ما يرام ! ".

عند قيامنا للرحيل بعد ربع ساعة تقريبا، ذكّرت البارونة الشابة صديقي ألاّ ينسى شاى الأصيل لديهم يوم الخميس؛ أى بعد يومين. كما رجتنى بلطف أن أضع هذا اليوم فى ذاكرتى.

في الشارع أشعل باءولو سيجارة و سأل:

"الآن، ما رأيك"؟

فأجبته مسرعًا: "آه، ناس لطاف جدًا! بهرتنى ابنتها ذات التسعة عشر عاما! ".

قهقه قليلاً وأدار وجهه قائلاً: "رائع!".

قلت: "آه، أتضحك! يدور فى رأسى أن نظرتك تعلن شوقًا دفينًا خفيًا، ولعلّى مخطئ؟".

سكت لحظة ثم هز رأسه ببطء قائلاً:

"لعلّى أعرف ما دفع إلى ذهنك أننى ..."

"دعك من هذا! دعنى أتساءل، هل البارونة الشابة أيضا..."

www.ibtesama.com/vb

عاد للسكوت لحظة مرة أخرى، مكبًا وجهه، ثم قال بهدوء و اطمئنان: "أرى أننى سأكون سعيدًا".

بعد أن صافحته بحرارة تركته، على الرغم من أننى لم أستطع أن أطوى صدرى عن قلقى نحوه.

مر أسبوعان تناولت خلالهما شاى الأصيل مع باءولو من حين لآخر فى بهو البارونات، الذى دائما ما ضم مجموعة دمثة الأخلاق؛ أذكر منهم إحدى الممثلات فى البلاط، وطبيب، وضابط، إلاّ أن ذاكرتى تخوننى فى أسمائهم.

لم ألحظ على باءولو أى شىء غير مألوف. عادة ما أتى مبتهجًا سعيدًا على الرغم من حالته المقلقة، ويظهر عليه الهدوء غير المعتاد، الذى لاحظته عليه أول مرة، كلما اقترب من البارونة الشابة.

في يوم من الأيام قابلت البارون فون شتين فى شارع لودفيج، وكنت بالمصادفة لم أر باءولو منذ يومين. كان ممتطيًا جواده، فتوقف ومد يده من على الصهوة لمصافحتى قائلاً: "كم تسعدنى رؤياك! يا حبذا أن تسعدنا برؤياك بعد ظهر غد!".

"بلا شك، يا سيادة البارون. ولو أننى أشك فى أن صديقى هوفمان سوف يأتى إلىّ ليصطحبنى، كما هو الحال كل خميس...".

www.ibtesama.com/vb

"هوفمان؟ ألا تعلم... لقد سافر! اعتقدت أنه قد أخبرك بهذا".

"لم يقل لى ولا كلمة!".

"يأتون بالنقيض تمامًا ... هكذا مزاج الفنانين ... نتقابل إذًا بعد ظهر الغد!".

دفع حصانه إلى الحركة وذهب، وقد بلغت دهشتى غايتها.

أسرعت إلى منزل باءولو. للأسف لقد سافر السيد هوفمان، ولم يترك عنوانًا له.

كان واضحًا أن البارون يعلم سببًا آخر غير "مزاج الفنانين" كسبب لهذا الرحيل. وإذا بابنته تثبت لى ما كنت قد توقعته بالفعل.

وقع هذا أثناء نزهة فى وادى إيزار[٣]، كانوا قد أعدوها ودعونى إليها. خرجنا بعد الظهيرة، وعند الرجوع فى المساء، سرت خلف المجموعة فى صحبة البارونة الشابة وحدها.

لم أجد أى تغيير طرأ عليها منذ غياب باءولو. حفظت هدوءها كاملاً، بدرجة جعلت اسمه لا يرد على لسانها، ولو مرة واحدة حتى ذلك الحين، على حين أن أبويها طالما عبرا عن أسفهما لسفره المفاجئ.

www.ibtesama.com/vb

سرنا معًا فى تلك الناحية الجميلة من ميونيخ؛ حيث تلألأ ضوء القمر بين الأغصان. أنصتنا فترة وجيزة لحديث السائرين الآخرين الوتير، شأنه شأن هديل الماء حولنا.

عندئذ بدأت حديثها عن باءولو بصوت يُعبَّر بحق عن هدوء وثقة بالغين.

سألتنى: "أأنت صديقه منذ الصغر؟".

"نعم، أيتها البارونة الشابة".

"أتشاركه أسراره؟".

"أعتقد أننى أعرف أدقَّها دون أن يقولها لى".

"أأثق فيك بدورى؟".

"أتمنّى ألاّ تشكّى فى هذا يا آنستى الفاضلة".

رفعت رأسها بحركة حازمة قائلة: "حسنًا. لقد طلب يدى، فرفضه والدىّ، وقالا لى إنه مريض للغاية؛ لكننى لا أعبأ بهذا لأننى أحبه. أليس لى أن أعترف لك بهذا؟ إننى ...".

ارتبكت لحظات ثم عادت لعزمها قائلة: "لا أعرف أين هو الآن؛ ويا ليتك إن عرفت عنوانه وكتبت إليه تنقل إليه كلماتى، التى سبق أن سمعها من فمى. لن أكون لأحد سواه. آه سوف يكون!".

www.ibtesama.com/vb

ما فى قولها من تصميم وألم، لا حيلة له، جعلنى لا أستطيع الإحجام عن أن أمسك يدها وأشد عليها صامتًا.

كتبتُ إلى والدىّ هوفمان ورجوتهما أن يخبرانى بمكان ابنهما، فتلقيت عنوانًا فى "زودتيرول"[٤]، التى عاد إلىّ منها خطاب أرسلته، عليه ملحوظة أن المرسل إليه قد غادر المكان إلى هدف غير معلوم.

لقد أراد ألاّ يشغل بال أحد، وفرّ من الجميع ليموت بمفرده في أى مكان. ليموت ... هكذا أحزننى احتمال أننى لن أراه.

ألا يتضح أن هذا الإنسان المريض اليائس يحب تلك الفتاة بألم صامت، بركانى بما فيه من مشاعر متوهجة، ألم يطابق شبيهه فى الطفولة؟ لقد أوقد النار فى الشعور الفطرى لدى المريض ولعًا بالعودة للصحة القويَّة؛ أليس من المؤكد أن تلك الجمرات، التى مازالت متوهجة، سوف تُهلك ما بقى لديه من حيوية.

مرّت خمس سنوات دون أن أشهد ما ينم عن أنه ما زال حيًا، وأيضا لم يصل إلىّ خبرًا عن وفاته.

فى العام الماضى أقمت فى إيطاليا؛ فى روما وأطرافها. وقضيت الشهور الحارة على الجبال، ثم عدت فى الخريف إلى المدينة، وجلست فى إحدى الليالى الدافئة على قهوة أرانيو

www.ibtesama.com/vb

لأشرب فنجان شاى. تصفّحت جريدتى ثم تابعت، شارد الفكر، تلك الحركة النشيطة فى هذا النطاق الواسع ذى الأضواء. زبائن آتون وذاهبون، وجرسونات يهرعون بالطلبات، وعبر كل الأبواب تتردد نداءات متباطئة من بائعى الجرائد.

فجأة رأيت رجلاً فى سنّى سائرًا ببطء بين المناضد للخروج ... إنها المشية ذاتها؟ فإذا به يتجه نحوى برأسه ويرفع حواجبه سعيدًا، مندهشًا، صائحًا: "مَنْ !؟".

قلنا فى نفس واحد: "أنت هنا؟" وأضاف هو: "ما زلنا أحياء. "لكنه سرعان ما عاد يشرد ببصره. مرَّت خمس سنوات ولم يتغيَّر به إلاّ القليل؛ ربما استطال وجهه وغاصت عيناه فى محجريها. ها هو ذا يتنهد من القلب من آن لآخر.

سألنى: "هل أنت فى روما منذ وقت طويل؟".

"لست فيها منذ زمن، بل كنت فى الريف عدة أشهر. وأنت؟".

"قبل أسبوع كنت على البحر. كما تعلم، إننى أحب الجبال... آه، طول الوقت الذى لم نتقابل فيه، قمت بجولة طيبة فى العالم".

بدأ يروى لى، مرتشفًا كوب شربات، كيف قضى هذه الأعوام؛ رحلات، دائما رحلات. رسم لوحات على جبال

www.ibtesama.com/vb

تيرول[٥]، واجتاز كل إيطاليا متمهلاً، كما انتقل من صقلّية إلى أفريقيا، حيث زار الجزائر وتونس ومصر.

ثم واصل روايته قائلاً: "أخيرًا قضيت بعض الوقت فى ألمانيا؛ فى كارلسروه؛ حيث أراد والدىّ رؤياى، وصعب عليهما عودتى للترحال. وها أنا ذا منذ ثلاثة أشهر فى إيطاليا، التى أشعر أن جنوبها وطن لى. أما روما فهى تفوق لدىّ كل تقدير!...".

لم أسأله فيما سلف مطلقًا عن صحته، لذلك قلت له: "لعلّى أستنتج من هذا أن صحتك صارت على ما يرام؟ "

عبّرت نظرته إلىّ عن التساؤل، ثم أجابنى : " تقصد أن تجوالى يدل على نشاطى؟ آه، دعنى أقول لك إن تجوالى صار لدىّ ضرورة طبيعية. ماذا ترى؟ الشرب والتدخين والحب صاروا لدّى من الممنوعات، لذلك أصبحت أحْتاج مخدرًا، أتفهمنى؟".

صمت قليلاً ثم واصل حديثه: "إننى فى أمسّ الحاجة إليه طوال خمس سنوات".

هكذا صار بنا حديثنا إلى موضوع كنا نتحاشاه، ووصل بنا إلى فاصل يعبّر عن حيرة كلينا.

www.ibtesama.com/vb

اتكأ بظهره على وسادة قطيفة، موجهًا بصره لأعلى نحو النجفة، ثم قال فجأة:

"قبل كل شيء لعلك تسامحنى لأننى جعلتك لا تسمع عنّى شيئا طوال هذه الفترة الكبيرة ...؟".

" بالتأكيد ! ".

واصل حديثه بنبرة أشد إلى حد ما قائلاً: "إنك شاهدت أحوالى فى ميونيخ!".

قلت: "بقدر الإمكان. لكن هل تعلم أننى طوال كل هذه الفترة أحمل إليك سلاماً من سيدة فاضلة؟".

سرعان ما لمعت عيناه المجهدتان لحظة، ثم قال بالنبرة الجافة ذاتها:

"لنسمع إذًا، لعله شيء جديد".

"يكاد لا يكون جديدًا؛ مجرد تأكيد لما سمعته أنت منها.

ثم أعدت عليه قول البارونة الشابة فى تلك الليلة، واصفًا تأثيره الشديد على قائلته.

أنصتَ إلىّ وهو يمسح بيده على جبينه، ثم قال دون أن تبدو عليه أى علامة تأثّر:

www.ibtesama.com/vb

"أشكرك".

هنا بدأت نبرات صوته تقلقنى.

قلت: "لكن مرّت سنوات على هذا القول، خمس سنوات، عشتها أنت وهى، كلٌ على حدة ... وسط العديد من التأثيرات والمشاعر والأفكار والآمال ...".

توقفت عن الكلام، حيث اعتدل فى جلسته، وقال بصوت يعبّر من جديد عن ارتجاف آلامه، التى كنت قد اعتقدت لحظة أن لظاها قد خبا:

"لن يبرح ذهنى قولها!".

حينئذ جاءنى وجهه وسلوكه بذلك الانطباع، الذى أخذته عنه عند زيارتنا للبارونة معًا لأول مرة؛ سكون الجسور والقوة لدى الوحش الكاسر قبل قفزة الصيد.

غيّرت موضوع الحديث، وعدت به إلى رحلاته وما حققه فيها، إلاّ أنه لم يطل، واتسم حديثه بقدر من الفتور.

بعد منتصف الليل بقليل نهض قائلاً:

"أريد النوم، أو أن أكون بمفردى ... سوف تجدنى غدًا صباحًا عند "جاليريا دوريا". سوف أرسم لوحة لما بهرنى من

www.ibtesama.com/vb

ملائكتهم العازفين. كن لطيفًا وإئت إلىّ. أسعدنى وجودك هنا. تصبح على خير".

خرج هادئاً ببطء وحركات متثاقلة.

خلال الشهر التالى بكامله جبنا أنحاء روما؛ تلك المدينة الغنيّة بمتاحف كل الفنون، ذات الطرف الجنوبى الحديث، والممتعة بحياة صاخبة، سريعة، دافئة، ذات فكر، تتلقى نسمات الشرق الدافئة.

ظلّت تصرفات باءولو على ما هى عليه؛ جادًا صامتًا، يقع أحيانًا فى إعياء متخاذل، ثم تبرق عيناه، ويستجمع قواه فجأة ويعود لحديثه برزانة وحماسة.

يجب علىّ أن أذكر يومًا شهد قولاً، انساب من فمه، لكننى لم أفهم معناه الصحيح إلاّ الآن. كان يوم الأحد، الذى شهدنا فيه صباح أخريات الصيف الرائع أثناء نزهتنا فى فياكابوا[٦]، ثم توقفنا بعد تفقدنا الشارع الأثرى عند هضبة رائعة تُمتّع كل من يطلّ منها على مجرى مائى يعكس أشعة الشمس على جبال الألب المغلّفة بضباب رقيق.

اضطجع باءولو بجوارى على أرض يكسوها النجيل الدافئ، ساندًا ذقنه إلى يده، ومتجهًا بعينيه المرهقتين إلى الأفق.

www.ibtesama.com/vb

ثم سرعان ما عادت تلك السرعة المفاجئة لتحل محل الجمود الكامل، ليتجه نحوى قائلاً:

"روح النسيم! روح النسيم هى كل شىء!".

قلت ما يؤيده، ثم عاد لهدوئه، لكنه سرعان ما فاجأنى دون أى تمهيد، فأدار وجهه باقتحام قائلاً:

"قل لى، ألم يدهشك حقًا أننى ما زلت حيًا؟".

أسكتت لسانى الصدمة، وعاد هو ببصره إلى الأفق مفكرًا.

ببطء استأنف حديثه قائلاً: "نعم، أدهشنى. بل يدهشنى كل يوم. أتعرف حقًا ما أمرى الآن؟ قال لى طبيب فرنسى فى الجزائر: يبدو أن الشيطان أدرك أنك تعشق الارتحال دائما. أنصحك أن تعود لبيتك وترقد على فراشك! وكثيرًا ما قالها، لأننا كنا نلعب الدومينو كل ليلة معًا.

على الرغم من ذلك ما زلت حيًا، وأكاد أصل كل يوم إلى نهايتى. أرقد قليلاً على جانبى الأيمن بالذّات. دقات قلبى تصل حتى عنقى، وتدور برأسى حتى أتصبب عرق الخوف، وكأن الموت قد مسّنى. ثم لحظة وأصبح هامدًا، بعد توقف دقات قلبى وعجزى عن التنفس. حينئذ أستيقظ وأضىء النور وأتنفس الصعداء، ثم أنظر حولى وتتسلط عيناى على كل الأشياء. بعد

www.ibtesama.com/vb

ذلك أشرب جرعة ماء وأرقد من جديد؛ دائما على جانبى الأيمن! وشيئا فشيئا أخلد إلى النوم. أنام وقتًا طويلاً بعمق شديد، لأن تعبى دائما شديد. تتصوّر! لو كان الأمر بيدى لرقدت الآن هنا ومت ببساطة! أعتقد أننى قابلت الموت وجها بوجه فى هذه الأعوام آلاف المرّات، لكنى لم أمت. ماذا يمنعه عنّى! دائما أفيق وأطرح تساؤلى هذا، بينما تنطلق عيناى متلهفتين وترتويان بكل ما حولى من نور وحياة ... أتفهمنى؟".

ظل ساكنًا لا يبدو منتظرًا ردًا منّى. لم أعلم ماذا أقول له، لكنى لم أنس مطلقًا ما تركته كلماته علىّ من أثر.

آه، الآن أذكر يومًا، وكأننى عشته بالأمس. كان من أول أيام الخريف الغائمة بالسحاب، ذى دفء موحش، هبّت فيه ريح رطبة مقبضة من أفريقيا عبر الشوارع، وبرقت السماء فى ليله دون انقطاع.

ذهبت فى الصباح إلى باءولو لأصطحبه فى نزهة، لكننى وجدت حقيبته الكبيرة فى وسط الحجرة، والدولاب والكومودينو مفتوحين، أما رسوماته التخطيطية من الشرق، وقالب الجبس المصبوب لرأس كبيرة إلاهات الرومان فى الفاتيكان، فما زالت فى أماكنها.

www.ibtesama.com/vb

ظل واقفًا بثقة في النافذة دون حركة، وما كدت أناديه مندهشًا، حتى التفت قليلاً نحوى ومد يده إلىّ بخطاب، و لم يقل سوى: "اقرأ!".

نظرت إليه، فإذا بوجه مريض نحيل أصفر وعيون سوداء مضطربة، لا يأتى بمثلهم سوى الموت، يدلّون على جديّة شديدة، جعلت عينىّ تقعان على الخطاب، فأخذته وقرأت فيه:

"السيد المحترم هوفمان!

جزيل شكرى لوالديك الكريمين، اللذين لجأت إليهما للحصول على عنوانك. أما الآن فرجائى أن تتفضل بقراءة هذه السطور.

اسمح لى أن أؤكد لك، يا سيد هوفمان المبجّل، أن صداقتنا بخاطرى طوال السنوات الخمس الماضية. يجب علىّ أن أقر أن رحيلك المفاجئ أتى لى ولمن معى بأيام اتسمت بحسرة ودهشة يفوقان مثيلتيهما يوم تقدمك لطلب يد ابنتى.

تحدثت إليك وقتها حديث رجل لرجل، وقلت لك، بلا رحمة، السبب بوضوح وصراحة فى اضطرارى إلى عدم الموافقة على زواج ابنتى من رجل؛ ولعلّى أبرز هذا بصفة خاصة أقدّره أعلى تقدير. كما تحدثت إليك بوصفى أبًا يضع

www.ibtesama.com/vb

نصب عينيه سعادة دائمة لابنته الوحيدة، وغفل عن تحقيق أمل متميز للطرفين كان فى الإمكان بالفكر والتعقّل!

بهذه السمات أتحدث إليك اليوم، يا سيد هوفمان بوصفى صديقًا وأبًا. مضت خمس سنوات على رحيلك، لم أهتم فيها بالقدر الكافى إلى أن ما تكنه ابنتى فى قلبها قد أصبح راسخًا، وهذا بالقطع قد كشف الغشاوة عن عينى. أترى أن هناك ما يجيز لى أن أخفى عليك أن فكر ابنتى فيك جعلها ترفض رجلاً تقدم لها، وقد بدا أمامى بوصفى أبًا متميزًا؟

مرّت السنوات دون تأثير على مشاعر وآمال ابنتى، وإن كان لديك المثل – لعلّ هذا سؤال صريح! – يا سيد هوفمان، فإننى أصارحك بأن والديها لن يقفا فى طريقها إلى السعادة.

أنتظر ردّك، ولك جزيل شكرى عليه، أيًا كان محتواه. لن أضيف لهذه السطور سوى أن أتقدم لك بفائق الاحترام.

مع تحيات البارون

أوسكار فون شتين.

رفعت نظرى من الخطاب لأراه واضعًا يديه خلف ظهره ومتجهًا من جديد نحو الشباك. لم أساله عن شىء سوى:

"ستسافر؟".

www.ibtesama.com/vb

فأجاب دون أن ينظر إليّ:

"صباح الغد يجب أن يكون متاعى مُجهّزًا للسفر".

مضى اليوم فى تجهيزات السفر وترتيب الحقائب، وقد شاركت فيها، ثم اقترحت عليه فى المساء أن نقوم بآخر نزهة فى المدينة معًا.

كان الجو حارًا خانقًا لا يُحتمل، والبرق لا ينقطع فى السماء بأضوائه الفسفورية. بدا باءولو هادئًا، إلاّ أن تنفسه اتصف بالعمق والصعوبة.

بين صمت وتبادل حديث فى غير اكتراث، سرنا ساعة حتى وقفنا أمام النافورة الشهيرة "فونتانا تريڤى"، حيث إله البحر فى عربة تعدو بها الخيول.

طال تأملنا بتعجب لهذه المجموعة ذات النشاط الرائع، التى تُحدثنا بأضوائها الزرقاء الزاهية، لتأتى بتأثيرها السحرى علينا. قال رفيقى:

"لقد فتننى الفنان برنينى[٧] حتى بأعمال تلاميذه. ولا أفهم ناقديه. الحق أنه إذا كان وصفه ليوم القيامة يميل إلى النحت أكثر من الرسم، فإن كل أعمال برنينى تميل إلى الرسم أكثر من النحت. ها هنا! هو مهندس ديكور رائع أيضا".

www.ibtesama.com/vb

سألته: "لكن هل تعرف ما شأن هذه النافورة؟ إذا شرب منها المسافر من إيطاليا، فسوف يعود إليها. ها هى ذى زجاجة ماء السفر – ثم ملأتها من خيط ماء دافق – عليك أن تعود إلى روما!".

أخذ الزجاجة ووجهها نحو شفتيه، إلاّ أنه سرعان ما بزغ بريق ملتهب متواصل يعمى الأبصار، وإذا بصوت ارتطام الآنية الصغيرة يدوّى، حيث تحولت إلى قطع زجاج متناثرة على طرف حوض النافورة.

جفف باءولو رداءه بمنديله من الماء قائلاً: "إننى عصبى، غير ماهر. لنواصل سيرنا. لعلّ الزجاجة تكون غير ذات قيمة".

فى اليوم التالى تحسّن الجو، وابتسمت لنا السماء الزرقاء المشمسة ببعض من السخرية، عند ذهابنا إلى القطار.

كان وداعنا قصيرًا؛ صافحنى باءولو صامتًا، وأنا أتمنى له الوصول إلى السعادة، قمة السعادة.

تتبعته بنظرى طويلاً، حيث ظل واقفًا منتصبًا أمام شباك القطار، تتمثل فى عينيه الجديَّة والنصر.

هل بقى لدىّ ما أقول؟ لقد مات فى صباح زفافه، بالتقريب فى ليلة زفافه.

www.ibtesama.com/vb

لقد استطاع، لا محالة، بإرادة السعادة، بإرادة السعادة وحدها، أن ينتصر على الموت وقتًا طويلاً. ثم وجب أن يموت دون عراك أو مقاومة عند تحقق إرادته ووصوله إلى السعادة؛ لم تعد لديه علّة أخرى للحياة.

تساؤلى هل كان وقع ما كان سيئًا على مَنْ ارتبط بها. لكننى رأيتها عند دفنه، واقفة عند رأس نعشه؛ وجهها يعكس ما كنت قد رأيته على وجهه من قبل؛ جديّة الاحتفال بالنصر.

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

الهوامش:

(١) الأديب الألمانى هينريش هينه (١٧٩٧ – ١٨٥٦) .

(٢) "الكوتليون" رقصة فرنسية شهيرة.

(٣) "إيزار" فرع من نهر الدانوب، يبلغ طوله ٢٦٣ كم.

(٤) "زودتيرول" مدينة مشتركة بين إيطاليا والنمسا.

(٥) "تيرول" عاصمة إقليم إنسبروك فى النمسا.

(٦) "فياكابوا" شارع رومانى قديم يصل بين روما وكابوا.

(٧) "برنينى" فنان إيطالى. أنجز قبة القديس بطرس وبنى ساحتها. له عدة تماثيل أشهرها اختطاف القديسة تريزا. يُعتبر من رواد فن الباروك.

www.ibtesama.com/vb

الموت

١٠ سبتمبر

جاء الخريف، ولن يعود الصيف؛ لن أراه أبدا...

بحر قاتم هادئ، ومطر خفيف حزين. ما رأيتهما صباح اليوم حتى بدأ وداعى للصيف واستقبالى للخريف. إنه خريفى الأربعين، الذى جاءنى بقسوة، وإذا بتقويم أيامى أمامى، أقرأه بهدوء، وأشعر بالتعبد والخوف الساكن.

١٢ سبتمبر

تمشّيت قليلاً مع صغيرتى، أسونسيون. نعم المرافقة الصامتة، التى ترفع بصرها من حين لآخر إلىّ بالمحبة. سرنا على الشاطئ حتى الميناء، لكننا عدنا فى الوقت المناسب قبل أن نقابل واحدًا أو اثنين من المارين. أثناء خطوات العودة، أسعدتنى رؤية منزلى، كم أعجبنى! يبدو رماديًا من فوق الهضبة، والحشيش حوله ذابل مبتل والطريق إليه رخو طرى عبر شاطئ البحر الرمادى. على الجانب الآخر طريق عام، خلفه الحقول. لكنى لم ألتفت إليها لأنى لم أعبأ إلاَّ بالبحر.

www.ibtesama.com/vb

١٥ سبتمبر

البيت الوحيد فوق الهضبة، وتحت السماء الرمادية، كأنه صورة معتمة، مكتظة بالخرافات، أريدها فى خريفى الأخير. إلاَّ أنه اليوم فى الأصيل أثناء جلوسى أمام الشباك، جاءت سيارة، ساعد "فرانس" على تفريغها مما أصابنى بضوضاء وأصوات عديدة، لا أستطيع أن أصف كيف عكّر علىّ صفوى. ارتعدت مستنكرًا وأمرت ألاّ يكون هذا إلاّ فى الصباح الباكر أثناء نومى. ولم يقل "فرانس" العجوز سوى: "تحت أمرك يا سيادة الكونت" لكنه نظر إلىّ بعينيه الملتهبتين خائفًا يساوره الشك.

كيف يستطيع أن يفهمنى؟ إنه لا يعلم أننى لا أريد أن يمس الاعتياد والملل أيامى الأخيرة. إننى أخشى أن يأتى الموت بعاداته وتقاليده الشعبية. أرى أنه سيكون أمرًا غريبًا ونادرًا فى واحد من تلك الأيام الجادة الغامضة فى الثانى عشر من أكتوبر...

١٨ سبتمبر

لم أخرج من البيت فى الأيام الأخيرة، بل جلست معظم الوقت على الشيزلونج. كما أننى لم أستطع القراءة كثيرًا لما سببته لى من توتر فى الأعصاب. ببساطة؛ جلست هادئًا أتأمل قطرات المطر البطيئة التى لا تكِل.

www.ibtesama.com/vb

غالبًا ما جاءتنى أسونسيون، وأتتنى ذات مرة بزهور وبعض من نباتات الشاطئ اليابسة المبتلّة؛ وما إن قبّلت صغيرتى شاكرًا، حتى بكت لأننى "مريض". يجلّ عن الوصف ما كان لحبها الرقيق الحنون علىّ من تأثير ذى أسى.

٢١ سبتمبر

جلست طويلاً أمام الشباك، وجلست أسونسيون على ركبتى. تأملنا معًا البحر الرمادى البعيد، وقد ساد السكون وراءنا فى الحجرة الكبيرة ذات الباب العالى الأبيض والأثاث ذى البطانة السميكة. وبينما أتحسس ببطء شعر صغيرتى الأسود المنساب على أكتافها الرقيقة، عادت ذاكرتى لما مضى، حيث الشباب والترحال فى كل العالم، والوقت القصير الذى حالفنى فيه الحظ.

أتتذكر هذه اللطيفة البرَّاقة تحت سماء لشبونة؟ ما إن أهدتنى طفلة، منذ اثنى عشر عاما، حتى ماتت وذراعها النحيل حول رقبتى.

لها عينا أمها السوداوان، إلاّ أنهما أكثر تعبيرًا عن الإرهاق والفكر. أما أول ما أخذته من أمها فهو فمها الصامت الذى يصل بها إلى قمة جمالها بالابتسام الهادئ.

www.ibtesama.com/vb

يا صغيرتى أسونسيون! أتبكى لأننى مريض؟ ماذا لو علمتِ أننى سوف أضطر أن أتركك! آه، مال هذا والبكاء! مال هذا والثانى عشر من أكتوبر.

٢٣ سبتمبر

نادرة تلك الأيام التى أستطيع فيها أن أسترسل فى ذكرياتى. أى سنوات تلك التى تدعونى للرجوع إليها! إننى أنتظر فقط هذا اليوم الطويل المخيف، الثانى عشر من أكتوبر فى العام الأربعين من عمرى!

ما عساه سيكون سوى ما وجب عليه أن يكون! لا أخافه لكننى أظن أنه سيأتى ببطء أليم موجع، هذا الثانى عشر من أكتوبر.

٢٧ سبتمبر

جاءنى الطبيب العجوز "جودهوز" من "كرولسهافن" عبر الطريق العام، وتناول إفطاره الثانى معى أنا وأسونسيون. أكل نصف ديك ثم قال: "من الضرورى أن تتحرك، يا سيادة الكونت، وتستنشق هواءً نقيًا. لا تقرأ! لا تفكر! لا تشغل بالك آه، آه يا لك من فيلسوف!".

ماذا عساى أن أفعل، هززت كتفىّ وشكرته على جهوده، فأعطى الصغيرة أسونسيون النصيحة وتأملها بابتساماته

www.ibtesama.com/vb

المتحيّرة. وأخيرًا وجب عليه أن يزيد جرعتى من "البروميد"؛ حتى أستطيع أن أطيل نومى ولو بقدر ضئيل.

٣٠ سبتمبر

سبتمبر الأخير! لم يبق وقت طويل، لم يبق وقت طويل. إنها الثالثة بعد الظهر، لقد حسبت كل دقيقة باقية حتى يبدأ الثانى عشر من أكتوبر. إنها ٨٤٦٠ دقيقة.

لم أستطع أن أنام فى المساء؛ حيث الرياح وهدير البحر والأمطار. رقدت وتركت الوقت يمر. فكر وقلق؟ لا! لقد اعتبرنى الطبيب جودهوز فيلسوفًا، لكن رأسى مجهدة ولا أستطيع سوى أن أفكر: الموت، الموت!

٢ أكتوبر

اشتد تأثرى، وإذا بى كأننى منتصر. ما أشعر بهذا إلاَّ نظرات الناس إلىّ الشك والخوف، وأراهم يعتبروننى مجنونًا، مما جعلنى أسأل نفسى مرتابًا. لا، لست مجنونًا.

قرأت اليوم قصة القيصر فريدريش وتحاشيه زيارة المدينتين؛ فلورنس وفلونتينوم، بعد أن جاءه تنبؤ موته فيهما. وما دخل إحداهما ذات مرة حتى مات. لماذا مات؟

www.ibtesama.com/vb

التنبؤ ذاته تافه؛ قيمته فيما إذا كان له تأثير عليك. وإن كان للتنبؤ تأثير فهو إذًا الفائز وسوف يتحقق. كيف؟ هل التنبؤ، الذى ينبعث منّى ويزداد داخلى، أقوى من مثله الذى يأتينى من غيرى؟ أيهما يساور المرء الشك فيه أكثر من الآخر؛ موعد الموت أم مكانه؟

آه! يا لها من علاقة وثيقة بين الإنسان وموته! فى استطاعته وبرغبته واقتناعه أن يرتبط بموته ويشتاق إلى لقياه فى ساعة بعينها.

٣ أكتوبر

فى كثير من الأحيان، عندما تسيل الأفكار أمامى مثل المياه القاتمة، التى لا نهاية لها وتحجب الرؤية، تتداخل المتعددات وإدراك بطلان المدلولات.

ما الانتحار؟ أهو الموت الاختيارى؟ لكن مَنْ منّا لا يموت برغبته. إن تسليم الحياة والاستسلام للموت يحدثان دون فارق الضعف، الذى دائما ما يكون نتيجة لمرض الجسم أو النفس أو لكليهما دون أن يوافق على موته.

هل أنا موافق؟ لابد وأن أوافق، لأننى أعتقد أنه من الممكن أن أُجن إذا لم أمت فى الثانى عشر من أكتوبر.

www.ibtesama.com/vb

٥ أكتوبر

أفكّر فيه بلا انقطاع، بل يشغلنى تمامًا، أعنى تساؤل متى ومن أين علمت، ولا أرفض الإجابة عليه! علمت فى التاسع عشر أو العشرين من عمرى أننى سأموت فى يوم من أيام الأربعين، وما تساءلت عن هذا اليوم، حتى عرفته.

والآن، هل اقترب هذا اليوم؛ اقترب لدرجة جعلتنى أستشعر أنفاس الموت الباردة.

٧ أكتوبر

ريح شديدة وبحر هادر ووقع قطرات المطر على السقف. لم أنم طوال الليل، بل ذهبت بمعطفى الثقيل إلى الشاطئ وجلست على حجر.

خلفى ظلام ومطر على هضبة ذات بيت قائم، حيث تنام الصغيرة أسونسيون، صغيرتى أسونسيون! ها هى رغوات البحر العكرة أمام أقدامى.

أتأمل طوال الليل وأفكر، هكذا لابد وأن يكون الموت؛ هناك على الهضبة أو هنا، سوف يكون ظلام أبدى مقبض. هل تبقى أو ستبقى أفكارى هنا وتصغى للأبد إلى عاصفة غير مُدركة؟

www.ibtesama.com/vb

٨ أكتوبر

أريد أن أشكر الموت حين يأتينى، لأن لقاءه أيسر من انتظاره. باق ثلاثة أيام خريف ويتحقق. كم أنى متشوّق إلى اللحظة الأخيرة! لعلها لحظة افتتان، ذات جمال يجل عن الوصف؟ لحظة قمة اللذة؟ ثلاثة أيام خريف ثم يأتينى الموت هنا فى حجرتى كيف سيلعب دوره؟ هل سيكون سلوكه معى مثل سلوكه مع الدودة؟ هل سيمسكني من رقبتى ويخنقنى؟ أم أنه سيُدخِل يده فى مخّى؟ لكنى أتصوره ضخمًا جميلاً ذا جلالة جامحة!

٩ أكتوبر

ما جلست صغيرتى أسونسيون على ركبتى حتى سألتها: "ماذا لو لسبب ما فارقت الحياة، أيكون حزنكِ شديدًا؟ "فما كان منها إلاّ أن وضعت رأسها الصغيرة على صدرى وبكت بحرقة. ضاقِ عنقى من الألم.

ارتفعت حرارتى. رأسى ساخنة، وأرتعش من البرد.

١٠ أكتوبر

كان عندى، كان عندى في هذه الليلة! لم أره ولم أسمعه. ساخر يتصرّف وكأنه طبيب أسنان! قال: "يا حبذا لو نتفق!" لكنى أبيْت وقاومت، أو بعبارة موجزة، صرفته عنّى.

www.ibtesama.com/vb

"يا حبذا لو نتفق!" ما أعجب هذا القول الذى اقشعرّ له بدنى؛ قول رزين، ممل، بسيط! لم أجرب هذا الشعور البارد الساخر بخيبة الأمل.

١١ أكتوبر (الحادية عشرة مساءً)

هل أعى؟ آه! هل أصدق أنى ما زلت أعى!

منذ ساعة ونصف الساعة، بينما كنت جالسًا فى حجرتى، جاءنى فرانس العجوز مرتعشًا منتحبًا صائحًا:

"الصغيرة! الطفلة! أسرع!".

أسرعت.

لم أبك، بل فقط أصابتنى رعشة باردة. راقدة فى فراشها، وشعرها الأسود أحاط بوجهها الصغير الشاحب. جلست على ركبتى أمامها ولم أفعل شيئا أو أفكر فى شىء. لقد جاء الطبيب جودهوز.

"سكتة قلبيّة" قالها وهز رأسه دون مفاجأة كأنه يعلم كل شىء، هذا اللّخمة المخبول!

أما أنا، هل فهمت؟ آه، وكأننى بمفردى معها هدير المطر والبحر، ونواح الريح فى ماسورة المدخنة هويت بقبضتى على المنضدة، فى لحظة واحدة اتضح الأمر لى! منذ عشرين عامًا

www.ibtesama.com/vb

وأنا أنتظر الموت فى يوم بعينه، وأكتم فى صدرى سر عدم مقدرتى على فراق هذه الصغيرة. لم أقبل أن أموت اليوم بعد منتصف الليل، ويا ليته كان! رددته بعد أن جاءنى، فأطاعنى وذهب إلى صغيرتى. هل أتيت أنا بالموت لفراشك الصغير؟ هل قتلتك يا صغيرتى أسونسيون؟ يا لها من كلمات غليظة حقيرة أقولها فى أمر مبهم منطو على الأسرار!

انعمى بحياتكِ، انعمى بحياتكِ هناك! وهناك ربما ألقاكِ من جديد. انظرى! لقد تقدم عقرب الساعة، ومصباحى الذى يلقى ضوءه على وجهكِ الصغير سرعان ما ينطفئ. إننى أمسك يدكِ الصغيرة الباردة وأنتظر. سيأتيننى فورًا وسوف أومئ له بالإيجاب وأغلق عينى إذا ما سمعته يقول: "يا حبذا لو اتفقنا"!

www.ibtesama.com/vb

خيبة أمل

أعترف أن ما قاله هذا الرجل الغريب قد أربكنى تماما، وأخشى أن أكون حتى الآن ما زلت غير قادر على روايته بطريقة تجعل تأثيره على الآخرين مثله علىّ فى تلك الليلة. ربما يعتمد تأثيره فقط على الصراحة الغريبة التى حدثنى بها شخص لا أعرفه مطلقًا.

مر شهران تقريبًا على هذا الصباح الخريفى، حين وقع بصرى على ذلك الرجل الغريب فى ميدان "سان ماركو". هذا الميدان الكبير الذى لم يضم وقتها سوى قِلّة قليلة من المارين، لكن أمام هذا البناء العجيب متعدد الألوان ذى الرسومات الفاخرة الساحرة والزخارف الذهبية البارزة فى وضوح مبهج تحت سماء زرقاء صافية، رفرفت الأعلام مع نسيم البحر اللطيف؛ وظهرت فتاة صغيرة ترمى بالذُرة أمام الباب الرئيسى، مما جمع حولها سربًا هائلاً من الحمام، ما زال يهبط من كل الاتجاهات ... يا له من مشهد رائع ذى جمال بديع.

هنا رأيته، فبينما كنت أكتب إذا به يتمثّل بوضوح غير معتاد أمام عينىّ. يكاد يكون متوسط القامة، يمشى بسرعة منحنيًا و ممسكًا عصاه بيديه وراء ظهره، واضعًا قبعة متصلّبة فوق رأسه ومرتديًا معطفًا صيفيًا فاتحًا وبنطلونًا مقلّمًا غامقًا.

www.ibtesama.com/vb

لسبب أو لآخر اعتبرته إنجليزيًا، ويجوز أن يكون فى الثلاثين أو ربما الخمسين من عمره. ذو وجه أملس خالٍ من الشعيرات، يتميز بأنف غليظة إلى حد ما وعينين رماديتين ذاتى نظرة خامدة. على فمه ظهرت باستمرار ابتسامة دون سبب، بلهاء إلى حد ما. لم يفعل شيئا بين الحين والحين سوى أن ينظر ويرفع حاجبيه باحثًا فيما حوله ثم يعود للنظر إلى الأرض أمامه، ثم يتحدث ببعض الكلمات إلى نفسه ويحرّك رأسه ويبتسم. هكذا واظب مسيرته فى الميدان ذهابًا وإيابًا.

منذ ذلك الحين وأنا أتابعه يوميًا، حيث بدا لا يقوم بأى شىء آخر، تحسّن الطقس أو ساء، صباحًا أو مساًء، سوى أن يجوب الميدان ثلاثين أو خمسين مرة ذهابًا وإيابًا، دائما بمفرده ودائما بنفس التصرفات الغريبة.

شَهِدَتْ تلك الليلة، التى بدأت حديثى بذكرها، حفلة موسيقية أحيتها الفرقة العسكرية. كنت جالسًا على إحدى المناضد الصغيرة التى وضعتها قهوة "فلوريان" لتطل على الميدان مباشرة. عندما بدأ الجمهور، المتمثّل فى تيار زاخر من الناس، أن يتفرق بعد العزف، جلس ذلك الرجل الغريب مبتسمًا بطريقة شاردة كعادته، على منضدة صارت فارغة بجوارى.

www.ibtesama.com/vb

مر الوقت، وازداد صمت محيطنا المطبق، حيث صارت المناضد خالية تمامًا، وأصبح نادرًا ما يمر أحد بجانبنا؛ فقد حل على الميدان سكون شديد وامتلأت السماء بالنجوم، وانعكس الهلال على واجهة "سان ماركو" المعبّرة الرائعة.

قرأت فى جريدتى موجهًا ظهرى نحو جارى، وكنت على وشك أن أتركه وحده لولا أننى ما اضطررت للاتجاه ناحيته بعد ما سمعت صوت حركة منه إلاَّ و بدأ حديثه معى مباشرة.

سألنى بفرنسيته الضعيفة: "هل تزور فينيسيا لأول مرة ياسيدى؟" وما اجتهدت لأجيبه بالإنجليزية إلاّ وواصل حديثه بالألمانية الفصحى عبر صوت خافت مبحوح، حاول أن يصلحه بالسعال.

قال: "أترى كل هذا لأول مرة؟ هل وصل هذا لما كنت تتوقع؟ أو ربما فاقه؟ آه! لعلك لم تعتقد أنه أجمل من هذا؟ أليس كذلك؟ ربما لا تقول هذا حتى تبدو سعيدًا وتُحسد على ما أنت عليه؟ آه! "ثم رجع بظهره للخلف ونظر إلىّ، حيث رمشت عيناه وبدا تعبير وجهه غامضًا.

بدأ الصمت واستغرق طويلاً دون أن أعرف كيف يمكن مواصلة هذا الحديث الغريب، وكدت مرة أخرى أن أقوم لأنصرف، فإذا به يميل بجسده مسرعا إلى الأمام.

www.ibtesama.com/vb

مستندًا بيديه على عصاه سألنى بصوت خافت متسلل: "أتعرف يا سيدى ما هى خيبة الأمل"؟

إنها ليست فشلاً وإخفاقًا فى صغائر وأمور منفردة، بل هى خيبة أمل هائلة عامة، خيبة أمل تقضى على كل شىء، على الحياة برمتها! على وجه اليقين، أنت لا تعرفها، أمّا أنا فأجول بها منذ صغرى ، وجعلتنى وحيدًا تعيسًا، ولا أنكر أنها جعلتنى غريب الأطوار بعض الشىء أيضا.

ما رأيك يا سيدى؟ لعلك تستطيع أن تصل لهذا الرأى إن رجوتك أن تنصت إلىّ دقيقتين،

لأننى إن ما نقلت حالى لقولٍ فسرعان ما يُقال.

لعلّى أقول إننى نشأت فى مدينة صغيرة ببيت قساوسة ذى أبهاء برّاقة يُسيّرها تفاؤل منبرى عتيق، وفيها يتنشّق المرء عبير مميزًا للبلاغة المنبرية، كم أمقت تلك الأقوال عن الخير والشر، والجمال والقبح، لأنها وحدها، هى سبب معاناتى وآلامى.

تمثّلت الحياة أمامى ببساطة فى عدة أقوال، لأننى لا أعرف منها سوى الأوهام الخيالية الهائلة، التى خلقتها الأقوال بداخلى. ترقبت من البشر الخير الربانى، والشيطانية التى يشيب لها الولدان؛ ترقبت من الحياة الجمال والبشاعة، وملأنى تطلّع

www.ibtesama.com/vb

إلى الكل، شوق يملأه الخوف إلى الحقيقة المطلقة، إلى المعايشة؛ أيًّا كان نوعها، إلى السعادة الرائعة الساحرة وإلى الآلام المفزعة التى لا تُوصف وتفوق الظنون.

إننى، يا سيدى، أذكر بوضوح حزين أول خيبة أمل فى حياتى، وأرجوك أن تلاحظ أنها لا تقوم مطلقًا على فشل فى تحقيق أمل منشود، بل على الدخول فى سوء حظ. كنت طفلاً عندما شب الحريق فى منزلنا مساءً. انتشرت النيران خلسةً وغدرًا، حتى اشتعل كل الطابق أمام باب حجرتى الصغيرة، والسلم أيضا شبَّت فيه النار. كنت أول مَنْ رأى هذا ، وأذكر أننى رميت بنفسى من البيت، وانطلق الصياح من فمى مرة تلو الأخرى: "حريق! حريق!" خرجت تلك الكلمة من فمى واضحة، وكنت مُدْركًا ما وراء ذلك من شعور، على الرغم من أننى وقتها لم أكد أعود إلى وعيى. شعرت أنه حريق مدمّر، ثم عايشته! وليس هناك أسوأ من هذا! وهذا هو كل شىء!"

يعلم الله أن الأمر لم يكن بسيطاً. احترق البيت بأكمله، ونجونا من خطر فظيع بجهد شديد، أدّى لإصابتى بجراح بالغة. لعله ليس من الصواب أن أقول إن خيالى كأنه قد سبق الأحداث، وصوَّرأمامى حريق بيتى بطريقة أكثر خوفًا وفزعًا. إن وجود شعور غامض، أو بالأحرى تصوَّر غير مُحدَّدْ المعالم لشىء

www.ibtesama.com/vb

مُروّع بداخلى، يُقارن بظهور الواقع أمامى شاحبًا. كان الحريق المدمّر أول معايشة كبيرة لى، تؤدى إلى خيبة أمل فظيعة.

لا تخف يا سيدى، لن أواصل ما أرويه لك عن خيبة أملى بالتفصيل. يكفينى أن أقول إننى اقتربت بشغف تعيس من توقعاتى الضخمة من الحياة عن طريق ألف كتاب؛ عن طريق أعمال الأدباء. آه، لقد تعلّمت كيف أبغض هؤلاء الأدباء، الذين يكتبون كلماتهم الكبيرة على كل الحوائط، ويودّون رسمها بريشة مغموسة فى بركان "فيزوف"[1]على صفحة السماء. ولم يسعنى إلاّ أن أرى هذه الكلمات الكبيرة كذبًا أو سخرية!

سمعت غناء الشعراء الهائمين، اللغة ضعيفة، آه، لعلّها ضعيفة، لا، لا يا سيدى! اللغة، كما تبدو لى، غنيّة، غنيّة جدًا بالمقارنة بما هو جائز ومحدود فى الحياة. للألم حدوده؛ جسمانية تصل لفقدان الوعى، ونفسية تصل للتبلد، شأنه شأن السعادة! لكن حاجة الإنسان للتعبير عمّا بداخله ابتدعت الكلام الخارج عن تلك الحدود.

هل العيب فىّ أنا؟ أيعود تأثير كلمات بعينها علىّ بطريقة ما، فقط إلى ما هو كائن بداخلى، مما يجعلها تثير لدىّ أوهامًا لم تكن؟

www.ibtesama.com/vb

خرجت إلى تلك الحياة طامعًا فى أن أمر بما يتناسب مع أوهامى الكبيرة. لكن الله أعاننى على ألاّ أصل إلى هذا! احدودبت تجوالاً من أجل زيارة أرقى أنحاء الأرض، والمثول أمام إبداعات فنيّة ذات أنغام رقصت عليها البشرية بأرقى الكلام؛ وقفت أمامها وقلت لنفسى: جميل! ولكن، أليس هناك ما هو أجمل؟ أهذا كل شىء؟

لا أحب الواقعية؛ وربما يعبّر هذا عن كل شىء. فما وقفت فى كل أنحاء العالم ذات مرة فوق جبل، إلاّ ويمثّل أمامى وادٍ عميق ضيّق. حوائط صخريّة عموديّة عارية يندفع الماء أسفلها إلى الصخور. نظرت إليها وفكّرت، ماذا يحدث لو وقعت هنا؟ لكن خبرتى أجابتنى: إذا ما حدث هذا فسوف يحدثنى حالى قائلاً: ها أنت ذا تردّيت فى الهاوية، ها هى ذى الواقعيّة! ماذا إذًا الآن؟

أتصدقنى إن قلت إن ما مر بى يجعلنى قادرًا على أن أجد دائمًا ما أرويه؟ قبل سنوات أحببت فتاة، مخلوقة ذات رقّة وسحر، ضممتها إلىّ وصنتها، إلاّ أنها لم تحبنى، وليست مفاجأة أن يجوز لآخر أن يستحوذ عليها ... أهناك أكثر من هذا ألمًا؟ أهناك ما يفوق تلك الشدّة المريرة ذات المزج الوحشى بالشهوة؟ كانت ليلة لم يغمض لى فيها جفن، وارتكز الحزن والعذاب على

www.ibtesama.com/vb

فكرة بعينها. ها هو ذا الألم الكبير! ها أنا ذا أعايشه! ماذا إذًا الآن؟

كتب الشاب فرتر[٢]ذات مرة: "وما الإنسان ذلك الشبيه بالإله؟ أفلا تخذله قواه حين يكون أحوج ما يكون إليها؟ وسواء أحلق فى السعادة، أم غرق فى الأحزان، أترى له من قدَرِه مفر؟ وبينما يحلم أنه قابض على الأبديّة، أفلا يشعر باضطراره للعودة إلى الوعى بوجوده البارد الرتيب؟".

كثيرًا ما أذكر هذا اليوم الذى وقفت فيه أتأمل البحر لأول مرة. البحر كبير، البحر منبسط، انطلق بصرى من الشاطئ آملاً أن يتحرر. لكن هناك فى الخلف كان الأفق. لماذا أجد هذا الأفق؟

كنت أنتظر أن تصل بى الحياة إلى اللانهاية.

ربما أفقى أضيق من أفق الآخرين؟ قلت إن الواقعيات دون مدلول لدى، ربما لدى مدلول زائد لها؟ هل سرعان ما لا أستطيع هذا؟ هل سرعان ما أنتهى؟ هل لا أعرف من السعادة والألم سوى أحقر درجاتهما، وأتفه أحوالهما؟

لا أعتقد؛ حيث لا أصدّق من البشر سوى قِلة يُقبلون على الحياة بكلمتى الشعراء الهائلتين؛ ألا وهما "الحريّة" و"الكذب"! ألم تلحظ، يا سيدى، أن هناك بشرًا مُغترّين بأنفسهم ومتكالبين على الاحترام والحسد من الآخرين بدرجة تجعلهم يزعمون إدراكهم لأضخم مدلولات السعادة، وليس الألم؟

www.ibtesama.com/vb

لقد أظلم الليل، إنك تكاد لا تنصت إلىّ؛ لذلك أريد أن أعترف مرة أخرى أننى، أنا ذاتى، لم أحاول قط أن أكذب مع هؤلاء البشر لأبدو سعيدًا أمام نفسى وأمام الآخرين. لكن مضى عام تقريبًا على انهيار هذا الغرور بالنفس وصرت وحيدًا تعيسًا، إلى حد ما غريب الأطوار، ولا أنكر هذا.

أجمل ما أفعل أن أتأمل السماء المزينة بالنجوم فى الليل؛ ولكن هل هذه هى أفضل الطرائق للانصراف عن الأرض والحياة؟ لعلّى معذور أن أجعل نصب عينىّ أن أستبقى أوهامى؟ أن أرى فى الحلم حياة حرّة تظهر بها الواقعية فى أوهامى الكبيرة دون البقيّة المؤلمة من خيبة الأمل؟ وأرى فى الحلم أيضًا حياتى التى لم يبق فيها أفق؟

أرى فى الحلم أننى أنتظر الموت. آه، إننى أعرفه حق المعرفة، الموت، آخر خيبة أمل! أهذا هو الموت؟ أهذا ما سوف أقوله لنفسى فى آخر لحظة، وسوف أعايشه! ماذا إذًا الآن؟

أشعر أن الجو صار باردًا فى الميدان، يا سيدى، هيّا، هيّا! أستأذنك، إلى اللقاء.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش

(١)(Vesun =Vesuvia) فيزوف: بركان فى إيطاليا جنوب شرق نابولى، ثوراته فى التاريخ عديدة، آخرها ١٩٠٦، ١٩٤٤، ١٩٧٩. فى سفوحه كروم تنتج خمورًا عديدة.

(٢) جوته، آلام الشاب فرتر؛ الكتاب الثانى؛ ٦ ديسمبر.

www.ibtesama.com/vb

طوبياس ميندرنيكل

(١)

على أحد الشوارع المؤدية بانحدار بسيط عبر "حارة كفائى" إلى وسط المدينة، يطلقون اسم "الطريق الرمادى".

فى منتصفه تقْريبا، على اليمين، إذا أتينا من ناحية النهر، نجد المنزل رقم ٤٧؛ عبارة عن مبنى صغير باهت اللون، لا يختلف فى شىء عمًا حوله من منازل. فى طابقه الأرضى دكان صغير يمكنه بيع الكالوش[١] وزيت الخِروع وغيرهما. بإلقاء نظرة على الفناء، حيث تلعب القطط فى الممر، نجد سُلّمًا خشبيًا ضيقًا أتلفه الدهر وتفوح منه رائحة نتنة لا يمكن التعبير عنها، يؤدى بنا إلى الطوابق. في الطابق الأول يسارًا يسكن نجَّار ويمينًا قابلة[٢]. وفى الطابق الثانى يسارًا يسكن إسكافى، ويمينًا سيدة تبدأ غناءها بصوت عالٍ فور سماعها خطوات على السلم. أما فى الطابق الثالث فالجانب الأيمن خال، وفى الأيسر يسكن رجل اسمه "ميندرنيكل".

وقد شاعت تسميته "طوبياس"[٣]. هناك حكاية عن هذا الرجل، حبذا أن نرويها، لأنها غامضة وفظيعة بشكل يفوق كل وصف.

www.ibtesama.com/vb

شكله الخارجى لافت للنظر غريب ومُضحك. فلننظر إليه على سبيل المثال عندما يتمشّى؛ رجل نحيل يسير في الشارع متكئًا على عصاه، وكل ما يرتديه من رأسه حتى قدميه أسود اللون. يلبس قبّعة أسطوانية خشنة عتيقة الطراز، وجاكتًا سموكن لامعًا وبنطلونًا باليًا نسلت أطرافه وصارت قصيرة بدرجة تكشف لنا رباط حذائه. لكن علينا أن نقول إن ملابسه تبدو وقد تم تنظيفها على أكمل وجه. أما رقبته الهزيلة فتبدو طويلة كأنها ذات مفاصل رافعة. يتجمّع شعره الشايب الناعم بكثافة على السوالف، وتلقى حافة قبعته العريضة ظلّها على وجه حليقْ شاحب ذى خدود جوفاء وعيون ملتهبة نادرًا ما لا تنظر إلى الأرض، وَجَنَات عميقة تصل بين الأنف والثغر المنحدر.

نادرًا ما يخرج ميندرنيكل من منزله، والسبب فى هذا أنه ما يكاد يظهر فى الشارع حتى يتجمّع الأطفال ليمشوا وراءه طوال الطريق تقريبًا، يضحكون ويسخرون ويرددون: "ها، ها، طوبياس، طوبياس!" ويشدّونه من الجاكت، فيخرج الناس ويقفون أمام الأبواب يشاهدون ويتسلّون. أما هو فيواصل سيره دون مقاومة، ويتلفّت حواليه فى رهبة رافعًا منكبيه، ويسرع بارزًا رأسه إلى الأمام كأنه لا يجد ما يحميه من مطر ينهال عليه؛ وعلى الرغم من ضحك كل الواقفين أمام الأبواب، إذا به يحيىّ أحدهم أحيانًا بلطف متذلل. وفيما بعد، حين يبقى الأطفال

www.ibtesama.com/vb

حيث هم، ولا يعرفه أحد، ولا يبحث عنه إلاّ قليلون، لا يطرأ على تصرفه أى تغير عارض. يواصل سيره ناظرًا بخوف فيما حوله دون أن يرفع رأسه خاضعًا متأثرًا بآلاف النظرات الساخرة الملقاة عليه، وإذا ما رفع بصره عن الأرض بتردد وخجل، يتضح أمر غريب يتمثّل فى عدم قدرته على النظر إلى أى إنسان أو أى شيء بثبات وطمأنينة. يبدو أن هذا ينم بطريقة غريبة عن فقدانه الملحوظ للرجاحة الطبيعية الذهنية، التى يدرك بها الفرد عالم الظواهر، يبدو أنه يشعر بخضوع لكل ظاهرة أمامه، مما يجبر عينيه، ضعيفتى الإرادة، على النظر إلى الأرض إذا ما ظهر أمامها أى إنسان أو أى شيء.

ما أمر هذا الرجل، الوحيد دائما، تبدو تعاسة قلبه قد فاقت المألوف؟ ملابسه البالية، وكذلك حركة يده الدائمة نحو ذقنه، تبدو دليلاً على عدم رغبته في الانتماء إلى الطبقة الشعبية التى يعيش بين أهلها. الله أعلم، كيف دارت عليه الدوائر. يدل وجهه على أن الحياة لكمته باحتقار ضاحك. كما يجوز جدًا أنه، دون أن يشهد ملمّات الدهر الشديدة، لم يكن له طاقة بالحياة، وأن ما يبديه مظهره من ذل مؤلم وبلاهة يعطى انطباعًا بأن الطبيعة أبت عليه القسط الكافى من الاتزان والقوة والعزيمة ليرفع رأسه تفاخرًا.

www.ibtesama.com/vb

هكذا يخرج، متكئًا على عصاه السوداء، للتمشية فى المدينة، ثم يعود إلى بيته عبر "الطريق الرمادى"، حيث يستقبله الأطفال بالصياح، حتى يصل إلى السلالم المقبضة التى تؤدى به إلى حجرته الفقيرة غير المنمّقة، التى لا يتمتع فيها بقيمة وجمال سوى الكومودينو، بوصفه قطعة موبيليا متينة ذات مقابض معدنية ثقيلة تنتمى إلى طراز "أمبير" الفرنسى. أمام النافذة، التى أفقدها حائط جانبى باهت بالبيت المجاور الأمل فى أن تطل على أى شىء، إذا بأصيص ملىء بالطمى لم ينبت فيه شىء. رغم ذلك يتجه نحوه طوبياس ميندرنيكل ويشم طميه الأجرد. بجوار هذه الحجرة مقصورة نوم صغيرة مظلمة. بعد دخوله يضع طوبياس قبعته الأسطوانية وعصاه على المنضدة، ثم يجلس على أريكة مكسوّة بفرش أخضر، وتفوح منها رائحة التراب، ثم يمسك ذقنه بيده وينظر رافعًا حاجبيه إلى الأرض أمامه، وكأنه ليس لديه ما يفعله فى هذه الحياة.

من الصعب جدًا الحكم على ما يتعلق بشخصية ميندرنيكل؛ لعلّ الواقعة التالية تثبت هذا. فى يوم من الأيام خرج صاحبنا الغريب من منزله، والتف حوله حشد من الأطفال بهتافات الاستهزاء والقهقهة كالمعتاد. وإذا بطفل فى العاشرة من عمره تقريبا تتعثّر قدمه مع آخر مما يسقطه بشدّة على بلاط الشارع ليسيل الدم من أنفه وجبهته، ويمكث على الأرض باكيًا.

www.ibtesama.com/vb

سرعان ما يغير طوبياس اتجاهه ويهرول وينحنى إليه، ويبدأ مواساته له بصوت ليّن قائلاً: "آه، ابنى المسكين! أيؤلمك هذا؟ آه، أتنزف! دم فى جبهتك! آه، آه، يؤلمك هذا! يؤلمك حتى تبكى يا ابنى المسكين! آه، قلبى معك! إنك وقعت، لكن دعنى أربط جرحك بمنديلى! ...آه، آه، الآن أمسك نفسك، وقم معى!" ما كاد يقول هذا حتى ربط جرح الصبى بمنديله ثم أوقفه على قدميه وتركه. إن موقِفه هذا ووجهه أيضا يعطيان انطباعًا يختلف عن عادته. ها هو ذا يخطو بثبات واعتدال، وحركة صدره تحت الجاكت السموكن يُظهر تنفسه العميق؛ اتسعت عيناه، ليظهر بريقها، وليسعا كل ما حولهما من بشر وشىء ثابت، بينما مازال فمه يحوى جرعة مريرة.

أدت هذه الواقعة إلى تناقص لذة السخرية إلى حد ما لدى ساكنى "الطريق الرمادى". لكن بمرور بعض الوقت أتى النسيان على سلوكه المفاجئ، عادت مجموعة هانئى البال القساة إلى التهليل أمام الرجل المذلول الضعيف: "ها، ها، طوبياس، طوبياس".

www.ibtesama.com/vb

(٢)

حوالى الحادية عشرة فى صباح مشرق، خرج ميندرنيكل من منزله، وسار عبر المدينة بطولها متجهًا نحو هضبة "لرشنبرجه" الشاسعة، التى تمثل أفضل متنزهات المدينة فى ساعات بعد الظهيرة، لكنها تصير فى الصباح أيضا مزار بعض الراكبين والسائرين إذا ما حل الطقس الربيعى الرائع. تحت شجرة فى الطريق الرئيسى العريض وقف رجل ممسك كلب صيد صغيرًا بحزام قاصدًا بوضوح عرضه على المارين للبيع؛ كلب صغير أصفر اللون مفتول العضلات فى الشهر الرابع من عمره تقريبًا، تحيط بعينيه هالة من سواد شمل أذنيه أيضا.

لم يكد طوبياس يلحظ هذا قبل أن يصل إليه بعشر خطوات، حتى توقف عن السير، ومسح بيده على ذقنه عدة مرات مفكرًا وناظرًا إلى البائع والكلب الصغير الذى يحرّك ذيله بغبطة، ثم واصل سيره ثلاث مرات حول الشجرة، التى ارتكن الرجل إليها، واضعًا رأس عصاه أمام فمه، ثم توقف فى المرة الأخير وعيناه لا تتحولان عن الكلب، قائلاً بصوت هادئ وسريع: "بكم هذا الكلب؟".

فأجابه الرجل:

"عشرة ماركات".

www.ibtesama.com/vb

صمت طوبياس لحظة ثم كرر حائرًا :

"عشرة ماركات؟".

فأجاب الرجل: "نعم".

أخرج طوبياس محفظة نقود جلد سوداء من جيبه، وأخذ ورقة مالية؛ "خمسة ماركات"، وقطعتى نقود؛ "ثلاثة ماركات، وماركين"، ثم ناوله إيّاها متعجلاً، وأمسك الحزام مسرعًا وسحب الكلب وراءه مصرصرًا آبيًا، فإذا به ينحنى خجلاً ويتلفت حوله، حيث لاحظ بعض الناس هذه البيعة وصاروا ضاحكين. قاوم الكلب السير طوال الطريق، وثبّت ذراعيه فى الأرض، رافعًا بصره بخوف نحو صاحبه الجديد؛ الذى سحبه على الرغم من هذا صامتًا حتى وصل إلى المدينة بسلام.

لم يكد طوبياس يظهر ومعه الكلب فى شارع "الطريق الرمادى"، حتى انطلق زياط الأطفال، فحمله على ذراعه وانحنى عليه وأسرع خطاه، بينما هؤلاء الساخرون يشدونه من الجاكت ويقهقهون حتى صعد السلّم ودخل حجرته. أجلس كلبه، الباكى المستضعف، على الأرض، وربت عليه بلطف ونزل إليه قائلاً:

"الآن، الآن، لا تخف منّى أيها الكلب؛ ما من داعٍ لذلك!".

www.ibtesama.com/vb

ثم سرعان ما دفع ضلفة الكومودينو المتحركة وأخرج طبق لحم مطبوخ وبطاطس، ثم ألقى بعضها للكلب، الذى كف عن نواحه وبدأ أكل الطعام متلعقًا ومحركًا ذيله.

قال طوبياس: "والآن، أأسمّيك عيسو؟[٤]أتفهمنى يا عيسو! هكذا تستطيع أن تصبح ذا اسم شهير ..." ثم قال أثناء نزوله على الأرض بلهجة آمرة:

"يا عيسو! ".

جاءه الكلب، متوقعًا على ما يبدو حصوله على المزيد من الطعام، فربت على ظهره مستحسنًا، وقال:

"هذا ما يصح أن يكون، يا صديقى؛ لى إذًا أن أثنى عليك".

ثم رجع بعض الخطوات للخلف وأشار إلى الأرض معطيًا الأمر من جديد:

"هيّا، يا عيسو!".

قفز الحيوان بمنتهى السعادة إلى صاحبه و لعق يده.

كرر طوبياس هذه الفعلة حوالى اثنتى عشرة أو أربع عشرة مرة بسعادة دون أن يكل من إصدار الأمر أو تنفيذه؛ لكن الكلب بدا أخيرًا مجهدًا ومتطلعًا للرقود حتى يهضم طعامه،

www.ibtesama.com/vb

حيث اتخذ وضع كلب صيد مليح وفطين باسطًا ذراعيه الطويلتين الجميلتين، كل منهما تكاد تلتصق بالأخرى، على الأرض.

قال طوبياس: "هيّا، مرة أخرى، يا عيسو!" لكن عيسو أدار رأسه إلى الجانب الآخر ولبث دون حراك.

صاح طوبياس بصوت مرتفع يوحى بالاستبداد: "لابد أن تأتى، حتى إن كنت متعبًا"! لكن عيسو وضع رأسه فوق كفيّه ولم يأت.

قال طوبياس بصوت يعبّر عن تهديد رزين رهيب: "أصغ إلىّ ! أطعنى وإلاّ سوف تعلم أنه ليس من العقل أن تستنيرنى!"

لم يفعل الكلب شيئا سوى أن حرّك ذيله بعض الشيء. عندئذ تملك فيندرنيكل غضب أعمى خارق للحد، جنونى. أمسك عصاه السوداء، وقبض عيسو من قفاه، ثم رفع الكلب الصغير الصارخ، مستشيطًا غاضبًا قد تملكه الغيظ، قائلاً بصوت ذى بحّة مرعبة عدّة مرات:

"ألا تطيع؟ كيف تجرؤ ولا تطيعنى؟".

بعد حين ألقى عصاه جانبًا وأنزل الكلب، الذى استعطفه ببكائه، على الأرض، وبدأ يسير أمامه بخطوات طويلة آخذًا نفسًا عميقًا وواضعًا يديه خلف ظهره، مُلقيًا نظرة كِبر وغضب

www.ibtesama.com/vb

على عيسو بين الآونة والأخرى. واصل تلك المسيرة بعضا من الوقت، حتى رقد الحيوان على ظهره وحرّك ذراعيه متضرعًا، فوقف قليلاً أمامه، ثم شبك ذراعيه على صدره وألقى عليه نظرة باردة حادة مفزعة، كتلك التى ألقاها نابليون على سريّة هزمها فى معركة، قائلاً:

"لعلّى أسألك، كيف فعلت هذا!".

سَعِدَ الكلب لقرب صاحبه منه، فاتجه نحوه متملقًا والتصق بقدمه ناظرًا إليه بعينيه اللامعتين متوسلاً.

تأمل طوبياس هذا الكائن الخاضع برهة من أعلى صامتًا، لكنه فور شعور قدميه بدفء هذا الجسد، أمسك عيسو ونهض به قائلاً: "سوف أشفق عليك."، وما كاد الحيوان السعيد يلعق وجه صاحبه، حتى تغيّر حاله إلى حنان وأسف. التصق بالكلب معبرًا عن حب حزين، واغرورقت عيناه بالدموع، وكرر عدّة مرات جملة دون أن يكملها بصوت مخفوق النبرات:

"إنك أنت أنت الوحيد ..."

ثم أرقده بعناية على الأريكة وجلس بجواره ساندًا ذقنه إلى يده وناظرًا إليه بحلم ورفق.

www.ibtesama.com/vb

(٣)

أصبح خروج طوبياس ميندرنيكل المعتاد من منزله نادرًا، حيث صار لا يميل إلى الظهور أمام الناس مع عيسو. لكنه وجّه كل اهتمامه نحو الكلب، فلم يعد يشغله شيء ليل نهار سوى إطعامه، وتنظيف عينيه، وإلقاء الأوامر عليه، ومعاتبته، ومحادثته كأنه إنسان. الأمر المهم أن عيسو لم يتصرّف دائما طبقًا لهوى صاحبه. إذا رقد بجواره على الأريكة، ناعسًا نتيجة نقصان الهواء والحريّة، ونظر إليه بعينيه الحزينتين، يصبح طوبياس راضيًا تمام الرضى؛ حيث يأخذ جلسته المغرورة المختالة، ويربت على ظهر عيسو بحنو وشفق قائلاً:

لماذا تعبّر نظراتك يا صديقى المسكين عن الحزن؟ آه، آه، ها أنت ذا ترى الحياة حزينة أيضا، إلاّ أنك ما زلت فى صباك.

لكن إذا ما انطلق الكلب، تدفعه غريزة اللّعب والصيد بجرأة شيطانية، إلى العدو فى الحجرة، إذ يتصارع مع الشبشب، وينط على الكرسى، ثم يستلقى بنشاط على ظهره، فيتابع طوبياس حركاته عن بُعد بنظرة قلقة، غيّورة، حائرة، وابتسامة منزعجة، غاضبة، حتى يستدعيه بصوت خشن ويصرخ فى وجهه قائلاً:

www.ibtesama.com/vb

"دع مجونك هذا، لا داعى لتراقصك فى غير هدف!".

أكثر من ذلك أن عيسو تسلّل ذات مرة من الحجرة، ونزل السلالم وقفز إلى الشارع، حيث سرعان ما بدأ مطاردة هرّة، ثم التهم روث حصان، وظلّ يعدو وراء الأطفال بسعادة بالغة. لكن ما يكد طوبياس يظهر مع التصفيق والقهقهة فى منتصف الشارع بوجهه المنقبض، حتى عاد الحزن، حيث اتجه سير الكلب بقفزاته الكبيرة أمام صاحبه ... لينال ضربًا شديدًا بالعصا طوال اليوم من طوبياس.

فى يوم آخر، بعد مرور بضعة أسابيع، أتى طوبياس برغيف من الكومودينو لإطعام عيسو، وأمسك برفق سكينه الكبير المتميز بمقبض من العظام، يستخدمه دائما فى هذا الغرض، وبدأ يقطع أجزاءً من الرغيف لتسقط مباشرة على الأرض. لكن الكلب لم ينتظر ودفعه جوعه وحماقته ليقفز إليه بلا تبصّر، فوقع السكين، الذى لم تنقبض عليه يد طوبياس بإحكام، ليجرح عيسو فى كتفه الأيمن ويلقى به فوق دمائه على الأرض.

فى فزع ألقى طوبياس كل شىء جانبًا، وحنا على الجريح؛ لكن سرعان ما تغيَّرِ تعبير وجهه فجأةً، وظهرت عليه بحق بارقة تبسط وبشاشة. حمل الكلب المصاب الباكى بهوادة

www.ibtesama.com/vb

إلى الأريكة، ولم يكن من المنتظر أن يصل اهتمامه بالمريض إلى هذه الدرجة الفائقة. بقى إلى جانبه طوال النهار، وفى الليل جعله ينام فى فراشه الخاص، حممه وضمد جرحه، ربت عليه بحنو، واساه وأشفق عليه بسعادة واهتمام دون كلل أو ملل.

قال: "أيؤلمك الجرح كثيرًا"؟ آه، آه، إنك تعانى بشدة يا مسكين! لكن كن هادئًا، علينا أن نحتمل." قالها ووجهه هادئ، ذو حنان، قرير العين.

استعاد عيسو قواه، وعادت إليه سعادته وعاد لمتعته، مما قللّ هدوء ورضا طوبياس، الذى لا يرجح الآن الاهتمام بجرح الكلب، بل بإظهار حنانه نحوه بكلمات وربت على رأسه. هكذا حتى تقدمت المداواة، وظهر عيسو على طبيعته الجميلة، وبدأ من جديد يدور فى الحجرة. ذات يوم بعد أن التهم طبق خبز باللبن؛ قفز بكامل صحته من الأريكة بخدعته المنشرحة، وجموحه القديم، لينطلق فى الحجرة، ويسحب غطاء السرير، ويصطاد حبّة بطاطس ثم يستلقى على ظهره سعيدًا بها.

وقف طوبياس فى النافذة، بجوار الإصيص، وبينما يده، التى تبدو طويلة ونحيلة عبر كُمّه، تعبث لا إراديًا فى شعر سوالفه الكثيف، ظهر ظلّه الأسود المتميز على الحائط الرمادى فى منزل الجيران. وقف بوجه شاحب اللون شوّهه الحزن،

www.ibtesama.com/vb

يراقب قفزات عيسو بنظرة شذراء، حاسدة، غاضبة. ثم استجمع قواه فجأة، واتجه نحوه وأمسكه وأدخله ببطء بين ذراعيه.

بدأ حديثه معه بصوت شكّاء قائلاً: "يا صغيرى!" لكن عيسو، فرحًا غير منصت، رافضًا معاملته بهذه الطريقة، نهش فى غبطة اليد التى أرادت أن تتحسس شعره برقّة، ثم ارتكز على قدميه وقفز على الأرض ووثب وثبة دعابة قويّة ثم نبح، وعدا سعيدًا.

لكن ما حدث بعد ذلك كان غير معقول وفظيع، لدرجة تجعلنى أأبى أن أرويه بالتفصيل. وقف طوبياس ميندرنيكل ويداه متدليتان وجسده مائلاً إلى الأمام، مطبقا شفتيه، ومقلتاه ترتعدان ارتعادًا رهيبًا فى محجر عينيه. وفجأة، قفز قفزة مجنونة، وأمسك الكلب، وكان هناك شىء لامع فى يده، وسرعان ما سقط الكلب على الأرض بجرح ممتد من ذراعه الأيمن حتى صدره، لم يُصدر صوتًا، وسقط على جانبه نازفًا مرتجفًا ... لم تكد تمر لحظة حتى أصبح راقدًا على الأريكة، ووقف أمامه طوبياس على ركبتيه، ضاغطًا على الجرح بمنديل، يقول متلعثمًا:

"صغيرى! صغيرى! وا أسفاه! كلانا تعساء! أتتألم؟ نعم، نعم، إننى أعلم أنك تتألم، كم يؤسفنى أن ترقد أمامى بلا حِراك! لكنى، لكنى معك! إننى معك! سوف آتى بأفضل منديل لدى".

www.ibtesama.com/vb

ظل عيسو راقدًا وتحشرجت أنفاسه، وتوجهت عيناه نحو صاحبه، وقد فقدت بريقها، مُعبّرة عن قصوره عن فهم ما كان، وعن براءته وشكواه، ثم مد قدميه قليلاً ومات.

لبث طوبياس فى مكانه دون حراك، موجهًا بصره نحو جسد عيسو، باكيًا بحرقة.

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

الهوامش :

(١) "الكالوش": حذاء فوقى مطّاطى يُلبس فوق الحذاء العادى.

(٢) القابلة: هى المولّدة.

(٣) طوبياس = طوبيا = (Tobias = Tobia = Tobit) طوبى البار هو بطل سفر طوبيا. أحد أسفار العهد القديم. يروى قصة أب وابنه كانا فى سبى بابل، ويحمل كلاهما اسم طوبيا. ويصف فيها سفرة قام بها الابن، رافقه فيها الملاك رافائيل وحرسه من أخطار السفر. وُضع السفر بين القرنين ٢، ٣ ق. م. باللغة الآرامية ووصل إلينا بترجمته اليونانية.

(٤) عيسو هو ابن إسحق ورفقة. باع حق البكرية بصحن عدس وحُرم بركة أبيه بخدعة من أمه وأخيه يعقوب (التوراة).

www.ibtesama.com/vb

دولاب الملابس

ما بين الليل والنهار دخل القطار السريع، فى طريقه من برلين إلى روما، محطة ليست ضخمة، فى جو معتم بارد. فى أحد دواوين الدرجة الأولى، بمقاعدها القطيفة المتسعة ذات الظهر المدبب، مُسافر مُستلقٍ بمفرده، مُصوّب عينيه إلى أعلى. اسمه "ألْبْرِشْت السيد الولوع"[1]، استيقظ ولم يرق له الحال، فقد تأثّر جسمه بقلق السكون بعد سفر طويل، حيث سكتت دقّات حركة عجل القطار المنتظمة على القضبان. لكن سرعان ما ينقطع هذا الصمت بأصوات مرتفعة بشكل ملحوظ، تأتى بها من الخارج نداءات إلى المسافرين وحركة السيمافورات ... هكذا الحال وكأنه عودة إلى الوعى بعد سكر وإغماء، حيث تفقد أعصابنا فجأة سندًا أو إيقاعًا كانت قد سلّمت نفسها إليه، وتشعر عندئذ أنها وصلت لأقصى درجة من الذهول وفقدان القوة. الأصعب من هذا هو الاستيقاظ من نوم عميق أثناء السفر.

تمطّى "ألبرشت السيد الولوع" قليلاً ثم اتجه نحو الشباك، وسحب زجاج النافذة إلى أسفل، ثم مد بصره إلى القطار بأكمله. هناك عند عربة البضائع يشتغل العديد من الرجال بشحن وتفريغ الطرود. يُحدث الجرار ضجيجًا، ويُخرج رذاذًا ويتدحرج إلى الأمام، ثم يصمت ويدور بهدوء؛ كالحصان إذا ما وقف يظل

www.ibtesama.com/vb

ثابتا، لكنه يداوم رفع وهز حوافره وتحريك أذنيه، منتظرًا بلهفة شدّة لِجام تأمره بالحركة. ظهرت الآن امرأة ضخمة وبدينة بمعطف مطر طويل، ووجه يعبّر عن قلق شديد على حقيبتها، التى تزن قنطارًا، وتدفعها أمامها بقدمها المرة بعد المرة لتتقدم بجانب القطار صامتة ومنهكة، بعيون تعبّر عن خوفها. أما شفتها وقد اندفعت إلى الأمام بما عليها من قطرات عرق صغيرة، فهى تعبّر عن تأثير لا يمكن وصفه ... دار برأس "السيد الولوع" أنه يحادثها قائلاً: عزيزتى المسكينة! يا ليتنى أستطيع أن أساعدِك وأذهب بكِ إلى مكان مبيتكِ، وأسدى معرَوفًا لشفتيكِ العليا! لكن على المرء أن يضع فى حسبانه ألاّ يتدخّل فيما لا يعنيه، لذلك فأنا أقف الآن هنا دون أى خوف وأشاهدكِ كأنك بطّة حلوة وقعت وانقلبت على ظهرها.

طلّت السماء بنور ضعيف على المحطة المتواضعة. فجر أم شفق؟ لا يعلم؟ كان نائما، وليس على ثقة مطلقا إن كان نومه قد استغرق ساعتين أو خمس أو اثنتى عشرة. ألا يبدو أنه نام دون أدنى قلق ما يزيد على أربع وعشرين ساعة بعمق، عمق شديد؟ كان "السيد الولوع" مرتديًا معطفًا شتويًا بنّيًا غامقًا، ذا رقبة من القطيفة. من العسير أن تدل ملامحه على سِنّه؛ لكن يمكن أن يتراوح عُمره بين الخامسة والعشرين والثلاثين. بشرته صفراء، لكن عيونه سوداء كالجمر، ظهرت أسفلها شحوب

www.ibtesama.com/vb

كثيفة. هذه العيون لا تنبئ بخير. مختلف الأطباء أفادوه، بجديّة وصراحة فى حوار بين رجلين، أن حياته لن تمتد شهورًا كثيرة... أما شعره الأسود فقد تجلّت نعومته فى مَفْرقه.

بعد أن ركب القطار السريع، الذى وصل هنا منذ قليل، فى برلين، على الرغم من أن رحلته لم تبدأ منها، ومعه حقيبة يده الجلد الحمراء، بدأ نومه، ولم يستيقظ إلاَّ الآن لينشرح صدره لأنه تخلّص من الوقت. ليس لديه ساعة، ويسعده ألاّ يجد معه سوى السلسلة الذهبية الرقيقة، التى علّقها فى رقبته، والميدالية الصغيرة، التى وضعها فى جيب الصديرى. لا يحب أن يعرف الساعة، أو حتى اليوم، كما لا يحتفظ بالنتيجة مطلقًا. رفض منذ وقت طويل أن يعرف اليوم أو الشهر أو حتى السنة. حافظ على فكرة وجوب تجاهل كل شىء. ويبدو أنه يعنى الكثير بتلك العبارة، على الرغم من تشاؤم محتواها. لم يقلقه هذا التجاهل إلاّ نادرًا، أو مطلقًا، لأنه اجتهد فى البُعد عن كل شىء مِثل هذه المقلقات. لعلّه لم يرض بمجرد التساؤل عن فصل السنة الحالى؟ فقد أوحت إليه صالة المحطة، المعتمة الرطبة، أنه الخريف. قال لنفسه: لا أعرف أكثر من هذا! لا أعرف حتى أين أنا الآن؟

أثناء هذا التساؤل أدّى به فجأة شعوره بالارتياح إلى إعفاء سعيد لنفسه منه. لا، إنه لا يعرف أين هو! هل فى ألمانيا؟ لا شك. فى شمال ألمانيا؟ أمر ظلّ معلقًا!

www.ibtesama.com/vb

نظر بعينيه، اللتين ما زالتا تعكسان بلاهة النوم، من شبّاك ديوانه إلى لافتة مضيئة، ربما تدل على اسم المحطة، لكن إدراكه لم يستوعب أى حرف منها. كما سمع، كأنه غارق فى السُكر، "الكمسارية" يرددونه مرتين أو ثلاثًا، لكنه لم يفهم أى كلمة مما قِيل. على أية حال إنه الآن فى زمان، لم يدرك أن كان شروقًا أم غروبًا، وفى مكان بمدينة لم يعرفها ... أخذ "ألبرشت السيد الولوع" قبعته اللُبّادية[٢]من الشمّاعة، ومسك حقيبة سفره ذات الجلد الأحمر، والإبزيم المُغطّى بحرير ناعم ذى مربَّعات بيضاء وحمراء، ومُعلّق بها ممطرة ذات عصا فضيّة، ثم خرج من الديوان ونزل – على الرغم من أن تذكرة سفره كانت إلى فلورانس[٣] – وسار حتى وصل إلى نهاية ردهة المحطة المتواضعة، ترك حاجاته فى حافظة الأمتعة، وأشعل سيجارة وعلّق شنطة لوح خلط ألوان الرَسم[٤]على كتفه وغادر المحطة.

فى الخارج بميدان معتم قد بلّته الأمطار، وكاد يخلو من المارين، بدأ خمسة أو ستة من حوذيّة "الحنطور" يطرقون بالسياط، وجاء رجل، ذو قبعة بأشرطة ومعطف طويل، مقشعر من البرد، قائلاً بنبرة التساؤل: "فندق السادة الفاضلين؟" شكره السيد الولوع بأدب، وسار قدمًا فى طريقه، الذى رفع كل

www.ibtesama.com/vb

المارين به ياقات معاطفهم، فاحتذي بهم وطوى ذقنه في ثوبه، وواصل تدخينه ومسيرته متخذاً بين السرعة والبطء سبيلاً.

مر بسور متين البنيان وبوابة ذات برجين ضخمين، ثم عبر جسرًا ذا تماثيل على أسواره، تتدفع تحته المياه متقلبة معكرة. وإذا بقارب هش، جلس فى آخره رجل يجدِّف بعصاه الطويلة. وقف السيد الولوع لحظات مائلاً على حاجز الجسر، محاورًا نفسه: انظر! إنه نهر؛ نهر يسعدنى أننى لا أعرف اسمه ... ثم تابع سيره.

مشى فترة وجيزة على رصيف شارع لا يتسم بضيق أو اتساع، ثم حاد عنه متجهًا إلى اليسار. حل الليل، وأبرقت أضواء مصابيح المنحنى، ثم أومضت عدة مرات فى الضباب بين توهج وأزيز وارتعاش. أغلقت الدكاكين أبوابها. وفكّر السيد الولوع: يمكننا القول إنه الخريف. ثم واصل سيره فوق الرصيف الأسود المبتل. لم يكن قد وضع خفاً فوق حذائه الشتوى، إلاّ أنه بدا عريضًا، متينًا، متحملاً، متميزًا لا تنقصه الأناقة.

اتجه باستمرار نحو اليسار، ومر به الكثيرون مسرعين، ذاهبين إلى عملهم أو عائدين منه، فحدَّث نفسه قائلاً: أسير بينهم ولكننى وحيد وغريب، المفروض ألاَّ يكون الإنسان هكذا. ما لى

www.ibtesama.com/vb

شغل أو هدف، ولم أجد ذات مرة عصا أتوكؤ عليها. ما من أحد يستطيع أن يكون ضعيف الإرادة، ليس لديه ما يفعله أو يسهم فيه. ما من فضل لأحد علىّ، أو لي على أحد فضل. لم يمن علىّ الرب قط، ولا عهد له بى مطلقًا. سوء حظ دائم، دون أى إحسان. أمر جيد، حيث يستطيع المرء أن يقول:

لست مدينًا للرب بشيء.

قرب الوصول إلى نهاية المدينة. لقد انطلق، على ما يبدو، من وسطها، واتجه إلى أحد أطرافها. دخل شارع ضاحية متسع ذى أشجار وفيلات، ثم مال ذات اليمين ومر بثلاث أو أربع حارات كانت تتصف بالطابع القروى عبر المصابيح الغازيّة، وتوقف أخيرًا فى حارة أكثر اتساعًا من سابقاتها أمام بوابة خارجية من الخشب على يمين منزل عادىّ ذى دهان أصفر باهت، لم يميزه سوى زجاج نوافذه؛ معتم، غير شفاف، شديد البروز. على هذه البوابة لافتة مثبّتة، مكتوب عليها: "شقق للإيجار بالدور الثالث من هذا المنزل". قال: "هكذا؟" ثم ألقى ما بقى من سيجارته جانبًا، ودخل من البوابة ليمر بجوار لوح خشب ثقيل وسميك، يفصل بين المنزلين المتجاورين، ثم اتجه يمينا ودخل من باب المنزل ومشى خطوتين على بسطة تغطيها مشّاية رمادية قديمة، وبدأ صعود السلّم الخشبى المتواضع.

www.ibtesama.com/vb

كانت أبواب الطوابق ذات ألواح زجاجية مصنفرة متهالكة، على كل منها شبك سلكى[٥] يحمل لافتة بالاسم، وأضاءت مصابيح الغاز بسطة كل طابق. أما فى الطابق الثالث وهو الأخير، حيث لا يوجد بعده سوى الصندرة – فإن السلّم يوصّل إلى مدخل إلى اليمين وآخر إلى اليسار، وكل منهما يؤدى إلى شقق ذات أبواب قائمة؛ دون أى اسم على ما يبدو. اتجه السيد الولوع نحو المنتصف وضغط على زر الجرس الضخم ... رنّ الجرس، لكن لم يصدر صوت أى حركة بالداخل. اتجه يميناً ودق الجرس ... دون إجابة. دقه فى اليسار... فإذا بصوت خطوات طويلة وخفيفة، وانفتح الباب.

سيدة جليلة، بدت نحيفة وعجوزًا، وطويلة القامة. على غطاء رأسها فيونكات ذات لون ليلكى باهت[٦]، وفستانها عتيق الطراز، مُستهلك أسود. وجهها هزيل، يشبه وجه الطائر، أما جبهتها فيها جزء مُصاب بالإكزيما؛ وهى النبات الطحلبى الذى يدعو إلى بعض من الاشمئزاز.

قال السيد الولوع: "مساء الخير! الشقق..." أحنت السيدة رأسها بالتحيّة؛ أحنتها وابتسمت ببطء وصمت معبّرين عن الإدراك الكامل، ثم أشارت بيدها البيضاء الطويلة، التى عبّرت حركتها عن البطء والتعب والاحترام، إلى الباب الأيسر المواجه لها. ثم دخلت شقتها وعادت بعد قليل بمفتاح، توجهت به لفتح

www.ibtesama.com/vb

الباب، فإذا به يحدثها فى نفسه قائلاً: يا سيدتى! أنتِ كالكابوس، مثل إحدى الشخصيات لدى هوفمان[٧]... أثناء ذلك أخذت مصباح الغاز من الخطّاف ووجهت صاحبنا للدخول.

مكان صغير، حقير، ذو أرضيّة بنيّة، حوائطه مغطاة بطلاء أصفر مطفأ حتى السقف. الشباك فى الحائط الخلفى يميناً، خاف ستارة شاش[٨]ذات ثنيات طويلة رقيقة. على اليمين باب أبيض أدّى بنا إلى حجرة نوم.

رفعت السيدة العجوز مصباحها وفتحت الحجرة. حالها داعٍ للشفقة، حوائطها بيضاء عارية، تواجد بينها ثلاثة كراسى خيزران مال لونها للحمرة الفاتحة مثل القشدة المضروبة بالفراولة، ودولاب ملابس، ومنضدة تشطيف[٩]عليها مرآة ... السرير وسط المكان؛ قطعة موبيليا قويّة وفريدة من الخشب الماهوجانى[١٠].

سألتنى السيدة العجوز، ويدها الجميلة الطويلة البيضاء تسير برفق فوق النبات الطحلبى فى جبهتها: "هل لديك أى ملاحظة؟" قالتها كأنها لا تستطيع أن تمحو من ذاكرتها الانطباع المألوف عنها عند النظر إليها. لكنها سرعان ما أضافت: "إذا جاز التعبير؟"

www.ibtesama.com/vb

قال السيد الولوع: "لا، ليس لدى أى ملاحظة. الشقّة ذات أثاث ظريف، سوف أؤجرها ... أود أن يأتينى أحدٌ بحاجياتى من محطة القطار، ها هم ذا الإيصال. ويكون لطيفًا منكِ أن تُكلّفى مَنْ يُعد لى الفراش، ومنضدة التشطيف ... وأن تعطينى الآن مفتاحى البيت والدور... وأيضا أن تدبرى لى بعض الفوط، لأننى أود أن أزور دورة المياه سريعًا، ثم أذهب لتناول الطعام فى المدينة، وبعدها أعود."

أخذ من حقيبته علبة مكسوّة بالنيكل، وأخرج منها صابونة ليغسل وجهه ويديه على منضدة التشطيف. من حين إلى حين كان يلقى نظرة على ما تطل عليه النافذة عبر زجاجها البارز للخارج، من شوارع المدينة الموحلة، ومصابيحها وفيلاتها... أثناء تنشيف يديه اتجه إلى دولاب الملابس، وهو عبارة عن شىء غليظ الأطراف، مزعزع الأركان، ذى دهان بنّى، عليه تتويج مزركش ساذج، شغل الحائط الأيمن من منتصفه حتى نهايته، حيث بابًا أبيض آخر، من المفروض أن يؤدى إلى ممر يضم أبواب رئيسية أو جانبية للشقق الأخرى وينتهى بالسلّم. هنا دار برأس السيد الولوع أن العالم ما زال يضم بعضًا من النظام، وأن هذا الدولاب يصلح لألعاب الجمباز، إن لم يكن قد أُعِد له بالفعل ... فتحه ... خال تماما، ما به سوى شمّاعات معلّقة فى سقفه؛ لكن على ما يبدو أنها قطعة موبيليا متقنة، ليس لها ظهر

www.ibtesama.com/vb

على الإطلاق، بل مغلقة من الخلف بنسيج من الخيط الرمادى الخشن المعتاد، ومُثبّت بأربعة مسامير أو دبابيس فى الأركان.

أغلق السيد الولوع الدولاب، وأخذ قبعته وحمل شنطة لوح خلط ألوان الرسم، ثم أطفأ الشمعة وتحرّك. أثناء خروجه من الحجرة الأمامية، اعتقد أن وقع أقدامه قد اختلط بصوت آت من الشقق المجاورة، ذى نغمة خافتة رنّانة ... لكنه لم يتيقّن مطلقا من أن ما سمعه، لم يكن ظنًا. عند غلقه الباب، تصوّر أنه سمع صوت وقوع خاتم من ذهب فى جرن من فضة، ثم نزل السلّم وغادر المنزل متخذًا طريق عودته لوسط المدينة.

فى شارع، به حركة دائمة، دخل مطعمًا شديد الأنوار، وجلس على منضدة فى المقدمة موليًا ظهره لكل من خلفه. تناول شوربة الخضار بخبز محمّص، ثم شريحة لحم بقرى مقليّة بالبيض، وفاكهة مسلوقة بالسكّر، بعد ذلك شرب النبيذ، وأكل جزءًا صغيرًا من جبن الجورجونزولة[١١] الخضراء، ونصف كمثراة. أثناء دفعه الحساب وارتدائه ملابسه الثقيلة أخذ أنفاسًا من سيجارته الروسية، ثم أشعل سيجارًا آخر وخرج ليسير متئد الخطى مستكشفًا طريق عودته إلى طرف المدينة، حتى وجده وقطعه متمهلاً.

www.ibtesama.com/vb

ظهر المنزل بنوافذه العاكسة للضوء معتمًا صامتًا عند وصول السيد الولوع إليه ليفتح الباب ويصعد السلّم المظلم. أشعل عود كبريت صغير ليضيء طريقه، ثم فتح الباب البنّى على اليسار المؤدى إلى حجرته، ثم وضع المعطف والقبعة على الكنبة، وأشعل المصباح على المكتب، ليجد حقيبة سفره، وكيس النوم، والممطرة. حلّ غطاء الكيس وسحب منه زجاجة كونياك، ثم أخرج كوبًا صغيرًا من الحقيبة الجلد، وجلس على الكرسى ذى الذراعين وأخذ يشرب جرعة بعد الأخرى، وقد كاد سيجاره ينتهى، ثم حدّث نفسه عن سعادته بدوام بقاء الكونياك فى العالم ... بعد ذلك دخل حجرة النوم، حيث أشعل النار فى الشمعة، وأطفأ المصباح، وأخذ يخلع ملابسه بوضع جزء بعد الآخر من بدلته، الرمادية المتينة دون بهرجة، على الكرسى الأحمر بجوار السرير؛ لكنه عندما فكّ حزام الحقيبة، تذكّر القبعة وشنطة لوح خلط ألوان الرسم الموجودين على الكنبة، فجاء بهما وفتح دولاب الملابس ... لكنه رجع خطوة إلى الوراء محاولاً أن يمسك بيده إحدى الكرات الماهوجنية القائمة على أطراف السرير الأربعة لتزيّنها.

تأرجح ضوء الشمعة على حوائط الحجرة البيضاء العارية، ليبرز الكراسى الحمراء اللامعة أمامها مثل القشدة المضروبة بالفراولة. لكن الدولاب كان مفتوحًا على مصراعيه،

www.ibtesama.com/vb

ولم يكن فارغًا، بل شخص ما بداخله، إنسان، كائن حى ذو جمال جعل قلب السيد الولوع يتوقّف لحظة، ثم يعود إلى دقاته كاملة وبطيئة ورقيقة ... كانت عارية تماما، وقد رفعت ذراعها الممشوق الليّن لتمسك بسبَّابتها إحدى الشمّاعات المعلّقة فى سقف الدولاب. استقرّت موجات شعرها الطويل البنّى على كتفيها بفتنة، ما وقعت عليها عينٌ إلاّ وشهق صاحبها. على عيونها الناعسة السوداء انعكس ضوء الشمعة ... فمها وإن رَحُبَ، فقد ضاهت حلاوته شفتى النوم، إذا ما أسدلتا ستائرهما على جبهتنا بعد أيام جهد. ضمّت كعبيها فالتصقت ساقاها الرشيقتان.

فَرَكَ "ألبرشت السيد الولوع" عينيه بيديه وأعاد النظر... عاد ورأى أن القماش الرمادى الخشن مفتوحًا فى الركن الأيمن من ظهر الدولاب ... قال:

"كيف هذا؟ ألا تدخلين؟ ... ماذا أقول! ... ألا تخرجين؟ ألا تشربين كأس كونياك؟ نصف كأس؟ ..." لكنه لم ينتظر إجابة أو يحصل عليها. لم تُعبّر عيناها الضيقتان البرّاقتان السوداوان عن مشاعرها، بل بدت بعيدة الغور دون بيان، كانت موجهة إليه، لكن دون حد أو مأرب، غامضة كأنها لا تراه.

www.ibtesama.com/vb

تحدثت فجأة بصوت خافت، هادئ النبرات، قائلة: "هل لى أن أروى لك ما كان؟".

أجابها: "تروين ..." كان مرتميًا على حافة السرير، يداه مضمومتان على المعطف فوق ركبتيه، وفمه مفتوحٍ قليلاً، وعيناه مغلقتان بعض الشيء، إلاّ أن دمه ظل يجرى دافئًا بنبض هادئ لطيف فى جسده، وقد طنّت أذناه.

جلست داخل الدولاب، ورفعت إحدى ركبتيها وأحاطتها بذراعيها الغضّين الناعمين، ثم مدت قدمها الأخرى إلى الخارج. عضداها أطبقا نهديها الصغيرين، وتألقت بشرة ركبتها اللامعة. بدأت تروى ... تروى بصوت منخفض، بينما تؤدى شعلة الشمعة رقصاتها الصامتة.

ذهبا معًا إلى المرج، مالت برأسها على كتفه، وتعبّق المكان بشذى الأعشاب، لكن سرعان ما تلبدت السماء بالغيوم. هكذا كانت البداية. نعاس كثير فى ليالى الغفوة، كأنها أبيات شعر بنظمها اليسير الجميل. لكن الأمر لم ينته بسلام. كانت نهاية حزينة، وكأن الشمل قد تشتت والشفاه ما زالت متعانقة، حين طعن أحدهما الآخر بسكين عريض فى مقتل. لكن هكذا انتهى الأمر. قامت بحركة بسيطة وهادئة للغاية، ورفعت

www.ibtesama.com/vb

الطرف الأيمن من القماش الرمادى المسدل على ظهر الدولاب، واختفت.

منذ ذلك الحين ظل يراها كل ليلة فى الدولاب، ويستمع لها... كم ليلة؟ كم يوم أو أسبوع أو شهر بقى فى هذا البيت، فى تلك المدينة؟ غير مُجدٍ أن يرد هنا رقم فى هذا الصدد. مَنْ منّا سوف يسعد برقم متواضع؟ ... نحن نعلم أن العديد من الأطباء لم يضمنوا "لألبرشت السيد الولوع" أن يعيش شهورًا كثيرة.

روت له ... وكانت الحكايات حزينة دون سلوان؛ لكنها تمثلت كأنها جهد لذيذ للقلب، أبطأت دقاته وزادته غبطة. كثيرًا ما نسى نفسه ... دمه أثار نفسه عليه، فامتدت يده إليها، وهى لم تتمنع. لكنه لم يجدها فى ليالى كثيرة بعد ذلك، وإن جاءته فى بعض الليالى فلم ترو له فى بعضها، وبدأت تتباطأ حتى نسى نفسه مرة أخرى.

كم استغرق كل هذا؟ ... مَنْ يعلم؟ ومَنْ يعلم إن كان "ألبرشت السيد الولوع" قد استيقظ بالفعل وزار تلك المدينة المجهولة؛ أم أنه بقى فى ديوان الدرجة الأولى، وجال به قطار برلين – روما بسرعة فائقة عبر كل الجبال؟ مَنْ منّا يجرؤ على أن يجيب عن هذا السؤال بحزم، وعلى مسئوليته؟ أمر غامض، و"لابد أن ينشغل الذهن".

www.ibtesama.com/vb

الهوامش

(١) العَلَم الوارد لدى توماس مان هو(Albrecht van der Qualen) ، ويعنى "ألبرشت السيد الولوع" ؛ والولوع هو مَنْ التاع قلبه التياعًا؛ احترق من الهم أو الشوق وكانت به لوعة. لذلك آثرنا نقل معنى العَلم إلى العربية ليكون له التأثير نفسه على القارئ العربى.

(٢) "اللُبّاد"، ما يُلبس من الصوف للوقاية من المطر والبرد.

(٣) "فلورانس" مدينة فى وسط إيطاليا.

(٤) "المَلْون"، لوح أو لوحة ألوان الرسّام؛ لوحة رقيقة بيضاوية الشكل أو مستطيلة، فى أحد أطرافها ثقب للإبهام، يحملها الرسّام ويمزج عليها ألوانه.

(٥) "الشبك السلكى" نسيج من أسلاك شبيهة بالشاش.

(٦) اللون اللّيلكى لون خليط من الأحمر والأزرق.

(٧) إرنست تيودور أماديوس هوفمان (١٧٧٦-١٨٢٢)؛ أديب وموسيقى ورسّام ألمانى، له أوبرات وقصص غريبة خيالية موحشة، منها "حكاية الإخوة سرابيون"، و"الأميرة برامبيلا".

www.ibtesama.com/vb

(٨) الشاش أو الموصلين نسيج قطنى رقيق.

(٩) منضدة التشطيف؛ منضدة يُوضع عليها حوض وإبريق وغيره، لغسل الوجه واليدين.

(١٠) الخشب الماهوجانى أو المُغنة أو الموجنة، خشب صلب بنّى ضارب إلى الحمرة، يُصنع منه الأثاث الفاخر.

(١١) "الجورجونزولة"، جبن إيطالى الأصل، انتشر فى أوروبا.

www.ibtesama.com/vb

الطيش

"أحيانا ما تعطينا الحياة أطرف الدلائل كحجة على أكثر الحقائق أوليّة وبساطة." هذا ما قاله أنزليم فى ساعة متأخرة.

حين تعرّفت إلى دونيا كنت غرًّا فى العشرين ذا قدرات فائقة. شغلنى إدراك الحياة، لكننى كم بعدت عن تحقيق هذا الهدف. حررت أطماعى من كل قيد، وأشبعت رغباتى دون تأنيب الضمير، وربطت الفجور الفضولى لسيرة حياتى بالمثالية، التى دفعتنى على سبيل المثال إلى تحقيق أمنية الوصول إلى حب نقى روحانى – روحانى مطلق – مع امرأة ما.

إنها دونيا شتيجمان ذات الأبوين الألمانيين، التى شهدت موسكو ميلادها، ونشأت فيها أو فى روسيا عمومًا. ثم عادت إلى ألمانيا مُربّية تجيد ثلاث لغات؛ هى الروسية والفرنسية والألمانية، إلاَّ أن ما تمتعت به من مواهب جعلتها بعد عدة أعوام تضع هذه الوظيفة جانبًا وتعيش الآن امرأة حرّة ذات ذكاء، وفليسوفة آنسة تقوم بالكتابة فى جريدة من الدرجة الثانية أو الثالثة، حيث تمدها بأخبار عن الأدب والموسيقى.

كانت فى الثلاثين من عمرها حين قابلتها أول مرة يوم وصولى إلى مدينة "ب"، على مائدة الطعام فى بنسيون صغير

www.ibtesama.com/vb

قليل النزلاء. ها هى ذى امرأة ذات قامة مديدة، وخاصرة وصدر منبسطين، وعينين فاتحتى الاخضرار لا يمكنها التعبير عن أى قلق، وأنف غليظة ، وتسريحة بسيطة لشعر أشقر لا ينال اهتمامها. فستانها بنّى غامق دون زينة، لا يلفت النظر، شأنه شأن يديها. مثل هذه القباحة الواضحة، التى لا لبس فيها، لم أرها قط لدى أى سيدة من قبل.

أثناء تناولنا اللحم البقرى المشوى دار حديثنا عن "فاجنر" عموما، وعمله "تريستان" على وجه الخصوص. أدهشتنى حريّة فكرها. كان تحررها، دون مبالغة أو إظهار، هادئًا ومؤكدًا وبديهيًا بطريقة لا إراديّة، كنت أعتقد أنها ليست فى الإمكان. لقد فاجأتنى رزانتها الموضوعيّة، التى جعلتها تستخدم أثناء حوارنا تعبيرات مثل "صدر نحيل". كما أعطتها نظراتها وحركاتها سمة الزمالة، حين وضعت يدها على كتفى.

تمتع حديثنا بالحيوية والعمق، كنّا نصله ساعات طويلة بعد تناول الطعام، وبعد أن يغادر النزلاء، الأربعة أو الخمسة، حجرة المائدة. ثم نتقابل مرة أخرى على العشاء، وبعده نعزف على بيانو البنسيون المعتل، ونتبادل الأفكار والمشاعر ونتفاهم حتى الثمالة. لقد شعرت بالرضا. امرأة ذات فكر رجالى مكتمل. كلماتها تفيد الموضوع لا الدلال، وعدم انحيازها يهيّئ راديكالية خاصة فى تبدّل الأحداث والأمزجة والأخبار المثيرة، وهذا ما

www.ibtesama.com/vb

كنت أهواه. لقد تحققت رغبتى حيث وجدت رفيقًا أنثويًا لا تؤدى بساطته المتسامية إلى القلق، وقربى منه يجعلنى أرتاح وأثق فى أن فكرى يقوم بعمله؛ فالإثارة الجسديّة لهذا المفكر هى لسانه. نعم، إن ثقتى بهذه العلاقة كانت أكبر من كل ما يتعلّق بجسد دونيا شتيجمان، ووصل الأمر لدىّ إلى درجة جعلت ألفتنا الروحيّة تزداد وتؤدى إلى نفور واشمئزاز من الجسديّات؛ انتصار للروح، لم أستطع أن أتوق إلى أكثر مما يتمتع به من بريق.

لكن على الرغم من كل ذلك ... من كل ذلك، مع وصول صداقتنا لهذا الكمال، لم نجد حرجًا بعد مغادرتنا البنسيون أن نتبادل الزيارات فى منازلنا، وأن ينشأ بيننا دائما شىء ما، شىء لعله حفظ على علاقتنا الخاصة برودها الرزين ثلاث مرّات، لكنه سرعان ما تواجد بيننا، عندما كشفت أرواحنا عن آخر أسرارها العفيفة، عندما تطلعت أرواحنا إلى حل أدق ألغازها، عندما أخلّت كلمة "حضرتك"، التى ظلّت باقية عدة ساعات أقل رصانة وتنميق، المكان لكلمة "أنت" دون تكليف. جاذبية طبيعية شغلت الأذهان، أثارتها وعاقت أنفاسى، لكنها بدت وكأنها لا تشعر بها. لهذه الدرجة كانت قوتها وحريتها! لكننى شعرت وعانيت.

www.ibtesama.com/vb

ذات مرة كان الأمر أصعب مما سبق، حيث جلسنا فى حجرتى ودار حديثنا فى نطاق علم النفس. كان عشاؤها لدىّ حتى وصل إلى النبيذ الأحمر، الذى أفردنا له المائدة لنواصل الشراب والتدخين معًا دون كُلفة. جلست دونيا شتيجمان معتدلة على المائدة، بينما توجهت نحوها مضطجعًا على الشيزلونج. تواصل حوارنا المباشر المفكك ذو الصراحة التامة، ودار حول الأوضاع النفسيّة التى تؤدى بالرجل والمرأة إلى الحب. إلاّ أننى لم أكن هادئًا أو متزنًا، بل مندفعًا بشكل غير معتاد نظرًا لأننى أفرطت فى الشراب. لقد كان ما كان ... الانفعال الطبيعى يشغل الأذهان ويثيرها بدرجة تفوق احتمالى دائما. شغلتنى حاجتى لفتح النافذة، فإذا بالصراحة تُحجب عنّى أن الاندفاع غير الصائب يؤدى دائما أبدًا إلى حقارة عبر قول بهيمى مباشر. أصدق شىء على ما قلت هو ما قررت قوله وقلته. آه، أى امتنان يستحقه على الأقل ما لديها من لياقة ولباقة.

بينما كنت أرفع ركبتى لأضع رِجلاً على رِجل، قلت لها: "أتعرفين ما نسيت دائما ذكره؟ أتعلمين ما يعطى علاقتنا أطرف وأظرف فتنة؟ إنها ألفة خاصة بين أرواحنا، صارت لا غنى لى عنها، على العكس من النفور الواضح الذى أحس به جسديًا نحوكِ. صمت. – ثم قالت: آه، آه، أمر لطيف!!" هكذا انتهى انقطاع حديثنا، حيث استأنفناه عن الحب. تنفستُ الصعداء.

www.ibtesama.com/vb

وانفتحت النافذة. هكذا اتضح الأمر نقيًا مؤكدًا، وهذا ما كان ضروريًا بلا أدنى شك. واصلنا الحديث والتدخين.

قالت فجأة: "هناك موضوع يجب أن يدخل فى حديثنا. بالطبع أنت لا تعلم أنى كانت لى علاقة غراميّة".

وجّهت رأسى نحوها وحدّقت بصرى إليها مضطربًا. أمّا هى فجلست معتدلة بهدوء شديد وأخذت تحرك يدها، التى تمسك بها سيجارتها، ذهابًا وجيئة نحو المنضدة. فتحت فاها بهدوء ليخرج الدخان، ومدت بصرها إلى الأمام دون حركة. عندئذ صحت قائلا:

"أنتِ ! ... حضرتِك ! ... حب أفلاطونى؟"

"لا ...بل عشق".

"أين ... متى ... مع مَنْ"؟

"فى فرانكفورت، على نهر الراين، قبل عام، مع موظف فى البنك، شاب وجميل جدًا... شعرت بضرورة أن أقول لك هذا... ويسعدنى أن تعرف هذا. أم أنى قد سقطت من عينك"؟

ضحكتُ واضطجعتُ ونقّرتُ بأصبعى على الحائط. قلت بسخرية مؤثرة: "على ما يبدو!" لم أنظر إليها، بل وجهت رأسى نحو الحائط ناظرًا إلى أصابعى تنقر عليها ثم سرعان ما أحدثت

www.ibtesama.com/vb

خبطة قويّة عكّرت الجو الصافى بدرجة أثارت ثائرتى وقذفت بالدم إلى وجهى... هل وجدت هذه الأنثى مَنْ يحبها؟ هل احتوى رجل جسدها هذا بذراعيه؟ ودون أن أغيّر اتجاه رأسى نحو الحائط، جعلت خيالى يجردها من ملابسها حتى وصلتُ لإثارة فظيعة. واستمر صب الخمر إلى متى؟ حتى فرغت زجاجة النبيذ. صمت.

عادت للحديث بصوت ضعيف قائلة: أُفضّل أن تعرف هذا. "وإذا بصوت حديثها الهادئ ذى الثقة يؤدى بى إلى دفعة وضيعة. ها هى ذى معى فى منتصف الليل بحجرتى لا تبدى حراكًا، فى سكون يدل على العرض وانتظار ما سيكون... ثارت غرائزى الخبيثة. تصوّرى لإغراء يظهر عبر فجور شيطانى فاحش، دفع قلبى لدقّات لا تُحتمل.

. قلت بلسان أثقله السُكر: "آه! أمر لطيف ... هل نجح موظف البنك هذا فى تسليتك؟".

أجابت: "تمامًا!"

واصلت حديثى دون أن أنظر إليها قائلاً: "وهل تعارضى أن تعيشى هذا مرة أخرى؟".

"بالطبع لا".

www.ibtesama.com/vb

استدرت بحركة عنيفة ووضعت يدى على الوسادة سائلاً بوقاحة شهوانية مفرطة:

"فلنعش هذا معًا الآن!".

ولّت وجهها نحوى ببطء ونظرت إلىّ بدهشة لطيفة.

"آه، يا عزيزى، كيف خطر هذا لخيالك؟ لا، إن علاقتنا ذات طبيعة روحانية نقيّة".

"ليكن ... ليكن ... ولكن هذا أمر آخر! نحن نستطيع دون الإضرار بعلاقتنا هذه، أو النظر إلى ذلك، أن نبقى عليها بطريقة أخرى".

أجابت بدهشة متزايدة: "لا! وقد سمعتنى أقول لا"!

عندئذ صحتُ بغضب شهوانى:

لِمَ لا؟ لِمَ لا؟ لِمَ تتمنعين وأنتِ راغبة؟!

وهمهمتُ بالاندفاع إلى القوة فنهضت دونيا شتيجمان وقالت:

"تمالك نفسك! لقد نسيت نفسك تماما! أراه ضعفًا منك، مشينًا لك. قلت لا، وقلت لك إن الاستلطاف الوجدانى بيننا طبيعة وجدانية مطلقة. ألا تفهم هذا؟ سوف أذهب الآن، لقد تأخر الوقت".

www.ibtesama.com/vb

فُقت من سُكرى، وعدت إلى رزانتى.

قلت ضاحكًا: "أصدّ هذا منكِ؟! أتمنّى ألاّ يغيّر هذا شيئا فى صداقتنا".

أجابتنى: "لِمَ لا!" وصافحتنى بود الزمالة وبابتسام يبدو ساخرًا على فمها غير الجميل، ثم ذهبت.

وقفت فى منتصف الحجرة، ولم تبد السعادة على وجهى أثناء محاولتى الخروج بذهنى من أطرف مغامراتى. فى النهاية نطحت يدى برأسى وذهبت إلى فراشى.

www.ibtesama.com/vb

طريق المقابر

طريق المقابر متوازٍ مع الطريق العام، متواز دائما حتى يصل إلى هدفه؛ بالأحرى إلى المقابر. على ناحيته الأخرى تجمُّع سكنى ذو بنايات حديثة، ما زال العمل قائما فى إنشاء بعضها، ثم تظهر بعد ذلك الحقول. نصف الطريق العام مرصوف، ونصفه الآخر ليس بعد، تشغل الأشجار جانبيه؛ أشجار زان ذات نتوء[1]. أما الطريق إلى المقابر فهو مفروش بالزلط، مما جعله ممرًا متميزًا. يمتد على جانبى الطريق مجرى مائى ضيّق وجاف، كساه النجيل وزهور المروج.

ابتسم العالم مع رحيل الربيع وحلول الصيف، وضمّت سماء الله الزرقاء سحبًا صغيرة مستديرة مدمّجة، كأنها قطعيّات جليد بيضاء تماست بخفّة ودعابة. غرّدت الطيور فوق شجر الزان، مع مجىء النسيم اللطيف عبر الحقول.

تقدمت عربة فى الطريق العام، من القرية المجاورة إلى المدينة، فسارت أولاً نصف الطريق المُبَلّط بالحجارة ثم نصفه الآخر غير المُبَلّط، وقد احتلّ الحوذى بقدميه طرفىّ عريشها، وأساء فأطلق صفيرها بإسراف. على أبرز جزء فى العربة جلس كلب صغير أصفر، ناظرًا إلى الطريق، وشاربه الصغير المدبب قد أضفى عليه سمة الجد والاهتمام. كلب صغير ليس له

www.ibtesama.com/vb

نظير، مُسَلٍّ لمن حوله، حتى صار يساوى ثقله ذهبًا؛ لكنه للأسف ليس فى موضوعنا، ولذلك سوف نعرض عن أى إسهاب عنه. مرّت جماعة جنود قادمين من ثكنة جيش قريبة، زاحفين بتفاخر ومغنّين. تقدمت عربة أخرى، عائدة من المدينة، إلى القرية المجاورة، لكنها لم تلفت النظر، فقد حملت حوذيًا نائمًا، ولم يظهر فوقها كلب صغير. ثم جاء عاملان متجوّلان على الطريق؛ أحدهما أحدب والآخر كاد يكون عملاقًا. سارا حافيين، لأن كلاً منهما قد حمل حذاءه الشتوى الثقيل على ظهره، وأخذا يناديان الحوذى النعسان، وهما يواصلان مسيرتهما وقد اعتدل مزاجهما. هكذا اعتدلت حركة الشارع دون ارتباكات أو حوادث.

سار رجل بمفرده فى طريق المقابر؛ سار بطيئًا، مطأطئ الرأس، متكئًا على عكّاز أسود. هذا الرجل اسمه بيبزام؛ بالأحرى "لوجوت بيبزام". ولعلّنا نذكر أن "بيبزام" تعنى "ذو الصوت الجهورى"، والسبب فى ذلك أن تصرفه العجيب سوف يدل فيما بعد على هذا المعنى.

ملابسه سوداء لأنه فى الطريق إلى مقابر أحبائه؛ قبّعة اسطوانية غليظة وخشنة، وجاكتة قديمة لامعة، وبنطلون شديد الضيق والقِصَرْ، وقفّاز جلد جلاسيه مكحوت. رقبته طويلة ونحيلة، برزت فيها تفاحة آدم، وحولها ياقة مطويّة، نسلت

www.ibtesama.com/vb

أطرافها، وتخشّنت حافتها. إذا ما رفع رأسه، وهذا ما يفعله أحيانًا ليرى ما تبقى من مسيرته إلى المقابر، يظهر شيء نادر، وجه منقطع النظير، وبلا جدال لا ينساه سريعًا كل من يراه.

وجه أملس، أصفر شاحب، ذو وجنتين مجوّفتين، ظهرت بينهما أنف غليظة مثل البصلة، ذات احمرار متوهّج غير طبيعي، وممتلئة ببروزات صغيرة؛ بأورام مَرَضيّة ذات صورة لا يدركها الوهم أو الخيال. أظهرت هذه الأنف، التى ناقد وهجها شحوب الوجه، شيئا بعيد الاحتمال، شيئا خلابا، فبدت على الوجه كأنها أنف الكرنفال، وكأنها دعابة حزينة. لكن ليس هذا ما كان ... أغلق فمه العريض ذا الجوانب المنخفضة، ورفع حاجبيه ذوَى الشعيرات السوداء والبيضاء حتى حافة قبعته، مما أظهر عينيه مشتعلتين، وقد أحاطت بكل منهما هالة سوداء يرثى لها. ملخّص القول: إنه وجه لا يمكن أن ننكر عليه شاعريته النابضة.

لم يعبّر ظاهر "لوبجوت بيبزام" عن سعادته، بل عن غرقه فى الكآبة، لا يتناسب مع هذا الصباح الجميل، ولا مع مَنْ يريد زيارة مقابر أحبائه. أما إذا دخلنا فى أعماقه، فلابد أن نعترف بوجود أسباب كافية لذلك. كان حزينًا بعض الشيء كيف؟ من الصعب توصيل هذا لإدراك أمثالكم من المغتبطين ... مُبتلى إلى حد ما، أليس كذلك؟ أو لعلّه بلاء يميل للعسر. آه،

www.ibtesama.com/vb

الحقيقة أن عسر بلائه لم يبلغ درجة عالية فحسب، بل وصل به أيضا دون مبالغة إلى أسوأ حالاته.

أدمن الخمر، نتيجة ما سوف نرويه لكم الآن؛ فقد صار أرمل، مهجورًا فى عالمه، دون أى أنيس على وجه الأرض. فقد زوجته، الحنون بفطرتها، منذ نصف عام بعد ولادتها طفلها الثالث ميتًا. أما الطفلان الآخران فقد فارقا الحياة أيضا؛ أولهما بعد أن أصابته الدفتريا، وثانيهما دون سبب، أو نتيجة ضعف عام. ليس كل هذا فحسب، بل سرعان ما لقى زجرًا انتهى بفقد وظيفته، والسبب أن ما عاناه بيبزام قد فاق قدرته على الاحتمال.

استطاع أن يصمد بعض الشىء أمام بلواه، على الرغم من أنها واجهته على نحو مسرف فى تعاقبه. لكن بعد اختطاف زوجته وأولاده منه، وبعد أن صار بلا سند أو دعم، ما له من تابع أو نصير على وجه الأرض، قهرته بلواه، وحطّمت مقاومته النفسية أكثر فأكثر. كان موظفا فى شركة تأمين، كاتبًا أول؛ براتب شهرى قدره تسعون مارك. إلاّ أن ما وصل إليه حاله من قصور، أدّى به إلى الوقوع فى أخطاء جسيمة، جعلته أخيرًا غير كفء وتم فصله.

www.ibtesama.com/vb

من الواضح أن ما سلف لم يؤد إلى ارتفاع معنوية بيبزام، بل وصل به إلى انهيار تام. يجب أن تعلموا أن البلوى قد تخل بكرامة الإنسان على كل حال، فلنحاول أن ندرك ذلك ولو بقدر، مع أن حقيقته غريبة ومخيفة. لا فائدة من أن يؤكد الإنسان لنفسه براءته؛ فغالبا ما يحتقر نفسه بسبب بلواه. لكن احتقار النفس يرتبط بالرذائل ارتباطًا مروعًا، فيتقاربان ويأخذ كل منهما بيد الآخر، ليصلا إلى الهمجيّة. وهذا هو حال بيبزام. شرب لأنه ازدرى نفسه، وقلّ احترامه لها شيئا فشيئا، لأن الإحباط المتزايد دائما لكل مقاصده، التهم ثقته بنفسه، وجعله يضع فى بيته زجاجة سم صفراء فى دولاب الملابس، سائل مُهلك، لن نذكر لكم اسمه من باب الحذر. وبالفعل جلس لوبجوت بيبزام على ركبتيه أمام هذا الدولاب، ثم عض على لسانه حتى قطعه؛ وأخيرًا سقط ميتًا ... لا نُفضّل أن نروى لكم مثل هذه الوقائع، لكنها دائما مصدر للعبرة. الآن نعود لما كان، فنراه فى طريقه إلى المقابر، يخبط بعصاه أمامه. عبث النسيم اللطيف بأنفه، لكنه لم يشعر به، وسار يتأمل العالم مبحلقًا بعينيه الغائرتين؛ رافعا حاجبيه متكدرًا، عاكسًا صورة إنسان بائس تعيس. فجأة سمع صوتًا خلفه، فانتبه منصتًا. خشخشة رقيقة آتية من بعيد بسرعة كبيرة. استدار إلى الوراء وتوقف فى مكانه... إنها درّاجة بخارية، دخلت مندفعة، وخرج دخان عادمها ليدفع الحصى

www.ibtesama.com/vb

المفروش على الأرض، لكنها سرعان ما أبطأت، لأن بيبزام ظل واقفًا فى وسط الطريق ولم يتحرّك.

تجوّل شاب بدرّاجته، ناعم البال، دون أن يدّعى مطلقًا أنه أحد عظماء الأرض أو سادتها! درّاجته متوسطة الحال، ولعلّ الحظ أسعده بالحصول عليها من إنتاج ذلك المصنع الذى طرحها فى السوق بسعر قدره مائتا مارك. قادها ودخل بها قليلاً فى الريف، ليعكس بدّلها البرّاق ضوء الطبيعة الحرّة، مما دفعه إلى التهليل فرحًا! كان مرتديًا قميصًا متعدد الألوان، وفوقه جاكتة رماديّة، كما لفّ قالشين حول ساقه، ووضع كابًا جريئًا فوق رأسه، كابًا نادرًا مضحكًا؛ ذا مربعات مائلة للسمرة، وعلى ربوته زر، لكن تحته قَصّة شعر أشقر كثيف بارز على جبهة الشاب، ذى العيون الزرقاء البرّاقة، الذى جاء بحيويته واستعمل آلة التنبيه؛ إلاَّ أن بيبزام لم يتحرك قيد شعرة من الطريق، وظل واقفًا جامد الوجه يتأمل الشاب النشيط.

رماه الشاب بنظرة غاضبة، واتجه نحوه بالدرّاجة، فبدأ بيبزام التقدم للأمام، حتى مر به فقال ببطء وتركيز على الألفاظ: "الرقم تسعة آلاف وسبعمائة وسبعة".

ثم قبض شفتيه، ووجَّه نظره لأسفل دون حراك، حين شعر أن عيون الشاب قد استقرت عليه بدهشة.

www.ibtesama.com/vb

استدار الشاب إلى الوراء، مرتكزًا على الدرّاجة بيده، وتقدم ببطء.

سأله: "ماذا تقول؟".

كرر بيبزام: "الرقم تسعة آلاف وسبعمائة وسبعة. لاشيء. سوف أبلغ عنك الشرطة".

سأله الشاب: "أتبلغ عنّى الشرطة؟" واستدار أكثر للوراء، وأبطأ سيره، مما اضطره لتحريك الجادون فى الاتجاهين ليتحكّم فى درّاجته.

أجابه بيبزام على بُعد خمس أو ست خطوات قائلاً: "بالتأكيد".

أنزل الشاب قدمه عن درّاجته وسأله: "لماذا؟" وبقى مكانه متشوقًا للإجابة.

قال بيبزام: "أنت تعرف جيدًا".

أجابه الشاب: "لا، لا أعرف".

قال بيبزام: "يجب عليك أن تعرف".

أجابه الشاب: "لكنى لا أعرف، ولا يهمنى مطلقًا! ثم عدّل جلسته على درّاجته ليواصل مسيره، منعًا لسلاطة اللّسان.

www.ibtesama.com/vb

حجر فى الطريق؛ ما زال يسير دون توقف. حينئذ بدأ بيبزام الصريخ والسب، يمكن أن نقول بدأ النعير، فلم يعد صوته ينتمى لأحد من بنى آدم مطلقًا.

زعق قائلاً: "لن تواصل سيرك! لن تفعلها! سوف تسير هناك، وليس هنا فى المقابر، أتسمعنى"؟!

انزل من فوق الدرّاجة! انزل فورًا! آه! آه! سوف أُريك! سوف أرفع دعوى ضدك! آه، إن وقعت، إن وقعت يا سافل، سوف أدوسك، أدوس وجهك بالحذاء، يا وغد، يا ملعون.

لم نَر مثل هذا من قبل! رجل سبَّاب، ينعر فى طريق المقابر، رجل ذو رأس متورمة، قبل أن يسب يأتى بحركات بهلوانية، يحرك يديه ورجليه ولا يستطيع أن يتمالك نفسه! هكذا ظل بيبزام يتخبط هناك على غير هدى، على الرغم من أن الدرّاجة البخارية لم تعد مرئية بالمرّة.

"امسكوه! امسكوه! إنه يركب درّاجته فوق المقابر! اطرحوه أرضًا، هذا المغتر اللعين"!

آه، آه لو لحقت بك، لهرستك! يا كلب! يا مغفّل! يا مخبول ! يا مختال بجهلك!

انزل! انزل الآن! ألا يُلقى به أحدٌ فى الطين، هذا الحقير؟ يتنزه بدرّاجته، كيف؟

www.ibtesama.com/vb

ماذا ؟ على طريق المقابر، يا وغد! يا وقح! يا قرد، يا ملعون، عيونك زرقاء برّاقة، أليس كذلك؟ وماذا أيضا؟ هل فقأ الشيطان عينيك، أتعجب بنفسك وأنت جاهل، يا جاهل! يا جاهل!

هكذا واصل بيبزام قول عبارات لا يصح قولها، وفار بالغضب فورانًا، ودفع بصوته المبحوح وابلاً من الشتائم المشينة الفاضحة، وازدادت دائما حركات جسمه المجنونة.

وإذا ببعض الأطفال المارين فى الطريق العام، حاملين سلّة وكلب صيد صغير[٢]، يتسلّقون المقابر حول الرجل الجائر بالصياح، وينظرون بفضول إلى وجهه المُشوّه. كما لاحظه أيضا عمّال الأبنية الجديدة المجاورة، وقد بدأت راحة بعضهم، فأقبل البنّاءون وأيضا النسوة ناقلات المونة لينضموا إلى المجموعة الملتفة حوله. رغم كل هذا ظل بيبزام متغيظًا يزداد سوءًا؛ يُلّوح بقبضتى يديه للسماء وسائر الاتجاهات بعمى وجنون، متخبطًا بأرجله، ودائرًا حول نفسه، يثنى ركبتيه ثم ينتفض قائما بجهد مفرط ليواصل صياحه. لم يكف لحظة عن السب، ولو حتى لحظة يأخذ فيها نَفَسه، ولا ندرى من أين أتى بكل هذه الشتائم. كان وجهه متورمًا بشكل مفزع، واستقرّت قبعته على قفاه، وخرجت أطراف قميصه المفتوح من الصديرى. كما انتقل بالرمزيّة مع مَنْ حوله من جمهور إلى

www.ibtesama.com/vb

أمور عديدة عامة، لا علاقة لها بما هو فيه؛ إلى رذائل حياته، وإلى إرشادات دينية، بنبرات غير لائقة خلطها تغافلاً بألفاظ السب.

صاح قائلاً: "تعالوا، تعالوا كلكم هنا! ليس أنتم فقط، بل أيضًا الآخرون! أنتم، يا ذوى الكابات والعيون الزرقاء البرّاقة! سوف أهمس إليكم بالحقيقة، سوف يقف شعر رأسكم دائما، يا سَفَلَة! ... أتبتسمون بشماتة؟ أتهزون أكتافكم جهلاً؟ ... إننى أشرب الخمور ... بالتأكيد أشرب! وإذا أردتم أن تعرفوا، أنا شرّيب! وما معنى هذا؟! لا تسبقوا الحوادث! سوف يأتى يوم، أيها الرعاع، يوم يحاسبنا الله فيه جميعًا ... آه ... آه ...سوف يأتى يسوع[٣]إليكم بغتة، يا منحطون ويدّعون البراءة، يأتى بعدالته التى لا يعرفها عالمكم! سوف يلقى بكم، يا سفلة الأصحاء، فى أحلك الظلمات، حيث نواحكم و ...".

أحاطت به مجموعة ضخمة من الناس؛ بعض يضحك وبعض جعّد الجبين. جاء المزيد من العمّال والنسوة ناقلات المونة من الأبنية، ونزل حوذى من عربته الواقفة على الطريق العام، وسار بين المقابر وسوطه فى يده. وتقدم رجل آخر، وهزّ ذراع بيبزام، لكن دون أى تأثير.كما اشرأب جنود فرقة طابور سير نحوه بأعناقهم ضاحكون. أما كلب الصيد الصغير فلم

www.ibtesama.com/vb

يستطع أن يكظم غيظه، فثبّت رجليه الأماميتين فى الأرض، ولفّ ذيله، ليبدأ النباح فى وجهه.

فجأة صاح بيبزام بكل قوته قائلاً: "انزل، انزل فورًا، يا مختال بجهلك! "ثم دار حول نفسه نصف دائرة متهالكًا إلى الأرض فى إغماء مفاجئ، ليظل راقدًا، وكأنه كومة قمامة سوداء محاطة بالفضوليين. أما قبعته الغليظة المقوسة فطارت فى الهواء لتعود وتصطدم بالأرض، فتقفز مرة أخرى لترقد أخيرًا بجانبه.

انحنى اثنان من البنّائين على بيبزام، ثم تحدثا فيما بينهما بنبرة العاملين الجادة العاقلة، ثم ذهب أحدهما بخطوة سريعة. أما الباقون فظلوا يحاولون مع فاقد الوعى؛ رشّه أحدهم بالماء من زجاجته، وصبّ آخر من زجاجة كونياك على يده ومسح به على أصداغه، لكن كل تلك المساعى لم تُتوّج بنجاح.

بعد فترة وجيزة رنّت أصوات عجلات عربة تدور على الطريق العام. جاءت عربة المستشفى، منقوش عليها صليب أحمر ضخم، ويجرها مُهران جميلان، وتوقفت فى المكان.

ونزل رجلان بزيهما المُوحّد اللائق من مقعد الحوذى. اتجه أحدهما إلى مؤخرة العربة وفتحها وأخرج النقّالة، أما الآخر فقفز ليدخل بين المقابر ويدفع هواة التطلّع المتكدسين،

www.ibtesama.com/vb

ليحمل السيد بيبزام رجل آخر إلى العربة، ليضعه على النقّالة، التى سرعان ما ألقاها داخل العربة، مثلما نلقى العجين فى الفرن، وأغلق الباب. ثم صعد ذوا الزّى الموحد إلى مقعد الحوذى. تم كل هذا بإحكام، بأيد ذات خبرة، أكسبته إيقاعًا مسرحيًا فكاهيًا.

ثم انطلقوا أخيرًا بالسيد لوبجوت بيبزام.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش

(١) يُعبّر شجر الزان عن قِدمه أو سنّه بالنتوء.

(٢) كلب صغير -من كلاب الصيد يسمونه "تَرْيَر الثعالب".

(٣) تسمية المسيح بثانى الأقانيم الثلاثة "ابن الإنسان" واردة فى الإصحاحات الثلاثة الأولى من الإنجيل، وقد أوردها فى هذا النص توماس مان بوحى من (متى ١٦): "فإن ابن الإنسان سوف يأتى إلى مجد أبيه مع ملائكته وحينئذ يُجازى كل واحد حسب عمله".

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

الطفل المعجزة

ساد الصالة صمت تام حتى ظهر الطفل المعجزة، وانطلق تصفيق الحاضرين، الذى بدأه بينهم قائد عام متمتع بموهبة الريادة. لم يسمعوا شيئا منه بعد، لكنهم يصفّقون، لأن جهاز دعاية مُقتدر أجاد الإعداد للطفل المعجزة، حتى أصبح الناس مفتونين به، رأوه من قبل أو لم يروه.

خرج الطفل المعجزة من وراء بارافان رائع مطرّز بأكاليل وزهور كبيرة رائعة، ثم صعد فى طرفة عين الدرجات المؤدية إلى المنصّة، ليدخلها مع عاصفة التصفيق، مرتعدًا كأنه مقشعر بردًا فى الحمّام، متأثرًا بريح الرهبة التى هبّت عليه ليستقبلها على طبيعته تماما. تقدّم إلى حافة المنصّة مبتسمًا، كأنه يستعد للتصوير، ثم عبّر عن شكره بتحيّة نسائية بسيطة وخجولة ولطيفة، على الرغم من أنه صبى.

كان لثيابه الحريرية البيضاء تأثير شديد فى صالة الحاضرين. جاكتة صغيرة ذات تفصيلة رائعة، والوشاح تحتها، والحذاء، وحتى السروال أيضا من الحرير الأبيض ليكشف سيقان الصبى اليونانى السمراء.

www.ibtesama.com/vb

اسمه بيبى ساكلافيلاكاس. هذا هو اسمه. هل اسمه الأول مجرد اختصار، أم أنه اسم التدليل؟ لا يعلم أحد! هل جاء نقيب الفنانين بهذا الاسم مُعتبرًا إيّاه سر المهنة؟ بيبى ذوشعر ناعم أسود يغطّى كتفيه. وعلى الرغم من ذلك فإن مفرقه مائل بفيونكة حرير صغيرة مُلتفّة حول جبهته الرقيقة المائلة للسمرة. وجهه فاق وجوه أطفال العالم ببراعته؛ أنف ذو حجم زخرفى ضئيل، وفم خيالى، أما عيناه الفئرانيّتان حالكتا السواد فيميزهما جفنان يميلان للشحوب. يبدوفى التاسعة من عمره، لكنه يُعد فى الثامنة، ويدّعون أنه فى السابعة. الناس أنفسهم لا يعرفون إن كانوا يُصدّقون هذا بالفعل أم لا. ربما يعرفون أكثر من هذا، لكنهم يصدّقون ما يُقال كما هومعتاد فى مثل هذه الحالات. يجدون جمالاً فى بعض الكذب. يتساءلون أين نجد الابتهاج والتسلية بعد يوم عمل، إذا لم نقل بنيّة طيبة، إنه فى الخامسة من عمره؟ وهكذا يكونون قد أصابوا بعقلهم البشرى!

ظل الطفل المعجزة يشكرهم حتى هدأ ضجيج الترحاب، ثم اتجه إلى البيانو، على حين بدأوا هم إلقاء نظرة أخيرة على برنامج الحفل؛ حيث سيعزف بيبى ساكلافيلاكاس مقطوعات:

"مسيرة احتفاليـــة"، و"أحـــلام"، و"المتـــأنّف وذووعقـــول العصافير". كل هذا البرنامج من مؤلفاته، وإن كان فى الحقيقة لا يستطيع كتابة النوتة، فإنه يحفظها كلها فى رأسه الفريدة، ويجب

www.ibtesama.com/vb

الاعتراف بقيمتها الفنيّة، كما هو مُدوّن بجديّة وموضوعية في الإعلانات، التى كتبها نقيب الفنانين، الذى لم يُقْدِم عليها إلاّ بتنازله عن طبيعته النقدية بعد معارك ضارية مع نفسه.

جلس الطفل المعجزة على كرسىّ البيانو المتحرك وبحث بأقدامه الصغيرة عن البدّالات، التى رفعتها الميكانيكا العاقلة بدرجة كبيرة عن المعتاد، حتى يستطيع بيبى الوصول إليها. هذا البيانو خاص به، يأخذه معه أينما ذهب. حوامله خشبية صغيرة، فقد بعضا من لمعانه نتيجة نقله المستمر، غير أن هذا لم يزده إلاّ رونقًا لافتًا للنظر.

وضع بيبى أقدامه على البدّالات، وأعطى بوجهه تعبيرًا بسيطًا عن المراوغة، حيث نظر أمامه ورفع يده اليمنى. يد طفل صغيرة، سمراء، ساذجة، إلاّ أن معصمه قوى غير طفولى يتمتع ببراجم[1]متمرّنة.

خاطب بيبى الناس بتعبيرات وجهه، لأنه يعرف أن واجبه إسعادهم. كما أنه هوذاته يجد سعادته الخاصة فيما هومُقْدِم عليه بهدوء، سعادته التى لا يستطيع وصفها. إنها قشعريرة السعادة، رعشة البهجة الذاتية، التى تسرى فى بدنه كل مرة عند جلوسه أمام البيانوالمفتوح، ولن يفقدها أبدًا. تتقدم إليه أصابع البيانو؛ الثامن ثم السبعة الآخرون بين أبيض وأسود، ليدخل بينهم ويفقد

www.ibtesama.com/vb

ذاته بين المغامرة والأقدار المثيرة، لكن الأصابع تعود معه للصفاء والنقاء كأنها سبورة ممسوحة. ها هى ذى الموسيقى، الموسيقى برمتها، منبسطة أمامه! منبسطة كأنها بحر مُغرٍ، يستطيع أن يلقى بنفسه فيه ويسبح روحانيًا، لينطلق ويندفع فى العاصفة، لكنه مع ذلك يُطلق يديه ويتحكم ويسيطر ... ثم يرفع يده اليمنى عاليًا فى الهواء.

سكون، وقد حُبست الأنفاس فى الصالة. إنها شدة الإنصات قبل التون الأول[٢]كيف ستكون البداية؟ ها هى ذى البداية، سبّابة بيبى تأتى بأول تون من البيانو، تون قوى غير مُتَوقّع من الوسط [٣]، يشبه صوت البوق. تبعته درجات نغم أخرى، لتكون مقدمة، الآن أُرخيت أوصال المستمعين.

الصالة فخمة، فى فندق على الطراز الحديث، تزيّنت جدرانها بلوحات ورديّة تبرز جمال الجسم البشرى، وعواميد ضخمة، ومرايا محاطة بالزخارف وعدد ضخم من مصابيح كهربائية، ذات طراز عالمى يتمثّل فى ربطة زهور خيمية[٤]بضوئها النهارى الخافت ذى العذوبة السماوية ... لا يوجد كرسى واحد خالٍ، والناس يقفون فى الممرات الجانبية وأيضا فى نهاية الصالة. يتكلّف الكرسى فى الصفوف الأولى، للطبقة الراقية، اثنى عشر ماركًا (لأن نقيب الفنانين يذهب مذهب الأسعار المحترمة)، وقد أقبلت الأوساط المحترمة على

www.ibtesama.com/vb

الطفل المعجزة، حيث ظهرت حُلل عسكرية عديدة، وثياب سهرة ذات أذواق مختارة ... حتى الأطفال المهندمين، الذين حين جلسوا لم تصل أرجلهم إلى الأرض، ليتأملوا بأعينهم اللاّمعة صاحبهم الصغير الموهوب ذا الرداء الحريرى الأبيض.

جلست أم الطفل المعجزة فى الصف الأول يسارًا. سيدة متناهية فى السمنة، ذات لُغد تكسوه البودرة، وريشة فوق رأسها. الجالس جانبها هو نقيب الفنانين؛ رجل ذو نمط شرقى تجلّى فى زراير ذهب ضخمة على أساور قميصه البارزة. فى منتصف الصف جلست الأميرة. نحيلة عجوز، مجعّدة الجبين، لكنها تُشجّع الفنون بقدر ما فيها من إحساس مرهف. كرسيها فوتيه ضخم ذومسند، وتحت أقدامها امتد السجّاد الإيرانى. ضمّت يدها تحت صدرها فوق رداء حريرى ذى أقلام رمادية، ومالت برأسها مُعبّرة عن اطمئنانها التام أثناء تتبعها عزف الطفل المعجزة. بجانبها جلست وصيفتها، التى ارتدت هى الأخرى رداءً حريريًا ذا أقلام خضراء. لكنها ظلّت مجرد وصيفة، لا يجوز لها أن تميل أوتتكئ.

أنهى بيبى المقطوعة بعظمة ورواء. أى قوة تلك التى يتعامل بها هذا الصغير مع البيانو! قوة لا تصدقها الآذان! مارش احتفالى، أوبالأحرى متتالية حماسيّة مندفعة، تتدفق بفخامة هارمونية، ومرة أخرى باسترسال ومباهاة. ومع كل

www.ibtesama.com/vb

إيقاع يميل بيبى بنصفه الأعلى إلى الوراء، كأنه يسير فى موكب النصر، ثم يختتم بشدة، وينزل منحنيًا من مقعده ليتنحّى جانبًا ويترقّب التصفيق مبتسمًا.

تفجّر التصفيق من الجميع بولع وإعجاب، وتعالت الهتافات، فقال أحدهم: "ألا ترون خاصرته الرشيقة وهو يؤدى تحيته النسائية البسيطة! صفقوا! صفقوا! انتظرونى سوف أخلع قفازى! برافو! يا صغيرنا ساكوفيلاكاس، أوأيًّا كان اسمك! لكنك عفريت"!

اضطر بيبى إلى الدخول خلف البارافان ثم الخروج ثلاث مرّات حتى هدأ الحاضرون، الذين اجتهد المتأخرون منهم فى الوصول، حتى اندسّوا فى الصالة المكتظة، قبل أن يستأنف الكونسير مسيره.

همس بيبى بمقطوعة "الأحلام" القائمة على نغمات متعاقبة سريعة، تعلوها أحيانا قطعة مُولُودِى صغيرة وبسيطة، ثم عزف بعد ذلك مقطوعة "المتأنف وذوو عقول العصافير"، التى حققت نجاحًا هائلاً، وأخذت بالألباب. إنها بحق مقطوعة أطفال، ذات تجسيم عجيب. صوت الباص جعلنا نرى البومة جالسة تلعب البيانوبعيونها المتذمرة، على حين جاء صوت الطبقة العالية ليُسمعنا شجاعة وخوف فرقة العصافير التى أرادت مداعبتها.

www.ibtesama.com/vb

احتفاء بهذه المقطوعة لقى بيبى تهليلاً من الجمهور أربع مرات. وجاءه أحد خدم الصالة، بردائه ذى الأزرار البرّاقة، ليضع ثلاثة أكاليل بجواره على المنصّة، لكنه سرعان ما تقدّم ليحيى الناس ويشكرهم. حتى الأميرة ذاتها شاركت فى التصفيق بأن جعلت كفّيها المنبسطتين تلتقيان برقّة دون أن تحدثا صوتًا بالمرة.

يستطيع هذا المخلوق الصغير الضليع أن يجذب كل هذا الاستحسان! ينتظر وراء البارافان، ويتباطأ قليلاً فوق الدرجات المؤدية للمنصّة، ويتأمل بفرحة الأطفال أناشيط الأكاليل الحريرية متعددة الألوان، على الرغم من أنها قد أملّته، كما يحيىّ الناس بلطف وتريّث ويعطيهم وقتًا حتى يهدءون، دون فقدان شىء من صوت أيديهم القيّم. يرى أن الجمهور يتهافت على مقطوعته الموسيقية "المتأنّف"؛ وقد أفصح له عن هذا نقيب الفنانين، لكنه يرى دور نتازيا[٥]أفضل بكثير، وخاصة عند ظهور علامة نصف التون. لقد جاءت المقطوعة بما يهواه الجمهور، على الرغم من أنه يعتبرها أول وأسخف ما قدّم، لكنه شكرهم أيضا بلطف.

عزف بعد ذلك مقطوعة قدمت تأملاً روحانيًا، ومقطوعة أخرى عرضت مهارة العزف.

www.ibtesama.com/vb

برنامج ضخم منظّم. سارت مقطوعة التأمل الروحانى مسيرة مقطوعة الأحلام، أما مقطوعة مهارة العزف فقد عرض فيها بيبى .كل ما لديه من تكنيك فنّى رفيع، كاد يصل إلى مستوى موهبته الخلاّقة. لكن بعد ذلك جاءت الفانتزيا، وهى أحب ما يلعبه إليه، حيث يأتى بها كل مرة بطريقة مختلفة، ويؤدّيها بدرجة من الحريّة، تجعله أحيانًا يفاجئ نفسه بما يضيفه إليها من ملحقات وتحوّلات جديدة، تأتيه فى ليلة قد طاب فيها مزاجه.

جلس الصغير بردائه الأبيض المتلألئ وعزف على البيانوالضخم الأسود، لقد اصطفوه ليحتل وحده المنصّة أمام جموع بشرية زاخرة لا تُحصى، اجتمعت فى روح واحدة، عكست صورتها مدى تأثرها الشديد بروحه المنفردة الراقية ... كسا جبهته الشعر الناعم الأسود والفيونكة الحريرية البيضاء، وواصل معصماه القويان المتدربان عملهما، وظهرت عضلات وجناته الطفولية السمراء.

تأتيه أحيانا لحظات يغفل فيها عن الوجود، وينفرد بنفسه، وتفلت منه عيناه الفئرانيتان العجيبتان ذواتا المحيط الشاحب، وتنتقلان من الجمهور إلى حائط الصالة المنقوش، لتفرا بعيدًا عن الحياة المليئة بالجولات وبالأحداث. لكن نظره يعود بعد ذلك من طرف عينيه إلى الصالة، ويعود للمثول أمام الجمهور.

www.ibtesama.com/vb

تهليل وصراخ، تحليق وتهاوٍ من الجمهور يشهده بيبي ويدور برأسه في وله "ها هي ذي الفانتزيا لديّ ! سوف يأتي الآن ما يسير على نصف التون، ثم اتجه إلى التحويل حتى يخفض التون، ثم تساءل: هل لاحظوا هذا؟" لا لم يلحظوا! فاتجه بعينيه إلى السقف، لينتبه الحاضرون إلى ما كان عليهم أن يلاحظوه.

أناس كثيرون جالسون في صفوف يراقبون الطفل المعجزة، وتدور بعقولهم البسيطة ألوان من الأفكار. رجل عجوز بلحية بيضاء، وخاتم في سبّابته، وعلى صلعته ورم بصلي الشكل، يمكننا القول إنه نتوء، أمعن الفكر ثم أسرّ إلى نفسه قائلاً: "في الحقيقة إنه أمر يثير الخجل. عِلْيَةْ القوم ذوو الشعر الأبيض يجلسون مثل الأطفال لمشاهدة أعاجيب ولد صغير. لكن لابد أن يكونوا قد وضعوا في اعتبارهم أنها نعمة سماوية، يؤتيها الله مَنْ يشاء، وما بيدنا شيء، ولا نخجل أن نكون بشرا طبيعيين. الأمر شبيه بحالة الطفل يسوع. ويجوز لنا أن ننحني أمام طفل دون خجل. وإن لم يطب لنا هذا إلاّ نادرًا! لكنه لم يجرؤ أن يفكر في "حلاوة" هذا الطفل! ربما كلمة "حلاوة" تُخجل رجلاً كبيرًا ورشيدًا مثله، لكنها تُعبّر عن شعوره! تُعبّر بحق عن شعوره!

www.ibtesama.com/vb

تحدَّث رجل أعمال، أنفه مثل أنف الببغاء، إلى نفسه قائلاً: الفن ... نعم، الفن بلا ريب، يأتى الحياة ببارقة نور، ورنين أجراس، وحرير أبيض. لا يفشل أبدًا. خمسون مقعدًا، يأتى الواحد منهم باثنى عشر ماركا، ليصل هذا فقط إلى ستمائة مارك، وبالإضافة لغير ذلك. وبخصم إيجار الصالة وتكاليف الإضاءة وإعداد البروجرام، يصل الحد الأدنى للصافى بيسر إلى ألف مارك. صفقة رابحة.

أما مُدَرّسة البيانو، ذات الأنف المدببة، التى بلغت من العمر ما يُسقم الآمال ويزيد الفكر حِدّة، فقد ورد بذهنها: "أجمل ما عزفه كان للموسيقار شوبان[٦]! ويمكن القول إنه ليس غير مباشر إلى حد كبير. كما يجوز الاعتراف بأنه غير مباشر بقدر قليل. عزفه عجيب، لكن حركة أصابعه ليست رزينة، لأن الواجب أن تظل العملة المعدنية[٧]ثابتة فوق يد العازف ولا تقع ... لوالأمر بيدى لضربته بالمسطرة عقابًا له.

فتاة صغيرة، مُصفرّة الوجه، فى سن متوترة يمكن وصفه بأنه يتميز بالأفكار الحرجة، قالت فى سِرّها: "ما هذا! ماذا يعزف! أيدل عزفه هذا عن ولعه! ألم يزل طفلاً؟! لو جاءتنى منه قُبلة، لاعتبرتها من أخى الصغير، إنها ليست قبلة. هل هناك ولع فردى، ولع ذاتى، مجرّد لعبة أطفال؟ ... آه! لو قلت هذا بصوتٍ لانهالت علىّ الشتائم. عالم غريبا!".

www.ibtesama.com/vb

وقف ضابط مرتكنٌ على أحد أعمدة الصالة، يتأمل بيبى، وقد دار بخلده أنه يحدثه قائلاً: "أنت شيء وأنا شيء، كلٌ منّا على شاكلته! ثم واصل متابعته الفقرات الموسيقية وقد أكنّ لعازفها الإجلال بكل ما لديه من قوة.

أما الناقد، كبير السن، بجاكتته السوداء اللاّمعة، وبنطلونه ذى الحرف الملطّخ، فقد دار بعقله، وهو جالس على كرسيه: "لعلّ بيبى يبدو مجرد طفل، لا يُكترث به باعتباره فتى ما زال يحتاج إلى النمو، أمّا باعتباره طرازًا، طراز فنّان، فهومكتمل. لقد صار يحمل سمات الفنّان من سمو وخنوع، ودجل وتقديس، وترفّع ونشوة خفيّة. لكن لا يجوز لى أن أكتب هذا، فقد تجاوز الحدود بامتيازه. آه، صدّقونى، إن لم أكن قد أدركت كل هذا بوضوح لصرت فنانًا".

انتهى عزف الطفل المعجزة، لتهب عاصفة التشجيع فى الصالة، ويتكرر احتجابه وراء البارفان ثم ظهوره. ويظل ذوالأزرار اللامعة يأتيه بأكاليل جديدة، أربعة أكاليل غار، ثم باقة زهور، ثم قيثارة من بنفسج، إلى أن عجزت يداه عن توصيل ما يجد من هدايا للطفل المعجزة، وصعد نقيب الفنّانين بنفسه إلى المنصّة ليساعده، وألبس بيبى إكليل الغار، ثم ربت شعره الأسود بحنو، لكنه انحنى فجأة، كأنه فقد عقله، لتدوّى قبلته على شفتى الطفل المعجزة، ولتتحول عاصفة الجمهور إلى

www.ibtesama.com/vb

إعصار. اندفعت تلك القبلة فى الصالة مثل التيار الكهربائى، وسرت فى بدن الجمهور كأنها رعدة عصبية. لقد انطلق الناس فى ضجّة هائجة، حتى اختلط صراخهم بفرقعة تصفيقهم الثائر. كما لوّح بعض الأطفال المألوفين فى حفلات بيبى بمناديلهم ... أما الناقد فقد رأى بداخله: أمر بسيط. قبلة واجبة من نقيب الفنانين. دعابة قديمة مؤثرة. آه، ماذا لو لم يكن فى الإمكان اكتشاف كل شىء بهذا الوضوح!

وصل كونسير الطفل المعجزة إلى نهايته، بدأ فى السابعة والنصف وانتهى فى التاسعة. الآن المنصّة مليئة بالأكاليل، وفوق أرفف مصابيح البيانو إصيصان صغيران، وسوف يعزف بيبى فقرته الختامية "قصائد يونانيّة دراميّة"، التى تنتقل أخيرًا إلى الراوى اليونانى وأناشيد شعره الحر، لو لم تكن حفلة موسيقية راقية، لانطلق أولاد بلده اليونانيون إلى الغناء معه. هذا مما دفعهم إلى الاحتجاج فى الختام بضجة شديدة وصخب حاد ومظاهرة وطنية. مما دفع الناقد العجوز للتحدث إلى نفسه قائلاً: "الواقع أن هذا النشيد قد أصبح واجبًا. حيث إن عزف الشىء فى غير مجاله هوالسبيل إلى عدم إهمال أى شىء تهتز له النفوس. سوف أكتب أن هذا أمر غير فنّى. مُنْ هوالفنان إذًا؟ إنه مهرّج. وليس هناك ما هو أسمى من النقد، لكن لا يجوز لى أن أكتب هذا." ثم رحل ببنطلونه الملطّخ.

www.ibtesama.com/vb

بعد ظهوره تسع أوعشر مرّات، تلبية لرغبة المشـــجعين، لم يبق الطفل المعجزة المتحمّس وراء البارافان، بل نزل إلـــى أمه ونقيب الفنانين فى الصالة. وقف النـــاس بـــين الكراســـى المتداخلة يصفّقون، وسرعان ما تداخلوا ليروا بيبى عن قـــرب. أراد بعضهم أيضا رؤية الأميرة. هكذا تكونت دائرتان كثيفتـــان فى المنصّة، إحداهما حول الطفل المعجزة، والأخـــرى حـــول الأميرة، ولا نعرف أيهما كان يتحدث مع مَـــنْ حولـــه. إلاّ أن الوصيفة توجهت، بأمر من سيدتها، إلى بيبى ونمّقـــت جاكتتـــه الحرير وأصقلتها استعدادًا لمثوله بين يدى الأميرة، ثم أخـــذت بيده وأتت به أمامها، فتقدم بحماسة ليقبّل يد جلالتهـــا. ســـألته الأميرة: "كيف وصلت إلى ما أنت فيه أيها الصغير؟ أيأتيك كل هذا فى ذهنك فور جلوسك للعزف؟ فأجابها بيبى: نعم يا سيدتى لكنه قال فى داخله: آه، بالطبع أيتها الأميرة الغبيّة العجوز!" ثم استدار بحياء وأدب، وعاد لمن كان معهم.

ازدحام شديد خارج الصالة عند رُكن الملابس. كلٌ يقدّم رقمه ثم يعود ويضع ما بيده على المنضدة؛ فرو كان أو شال أو حذاء مطر. ظهرت مُدَرِّسَة البيانو بين معارفها تدور حول نفسها وتنتقد بصوت عالٍ قائلة: قِلّة نظام!

أمام مرآة الحائط الضخمة وقفت شابة راقيـــة، يســـاعدها أخواها ضابطا الجيش، فى ارتداء معطف السهرة وحذاء فـــرو.

www.ibtesama.com/vb

رائعة الجمال بعيونها ذات الزرقة الفولاذيّة، ووجهها الصافى، ذى المعالم الدالة على أنها بحق إحدى آنسات النبلاء. بعد انتهائها، انتظرت أخويها. لكن أحدهما لم يستطع أن يقاوم النظر فى المرآة إلى وجهه الوسيم وبسيط الملامح، فنادته بصوت هامس، لكنه يعبّر أيضا عن الغضب: "لا تقف طويلاً أمام المرآة يا أدولف!" الآن بدأ الضابط أدولف يرى نفسه على ما يرام، لكنه ظفر بسماحها له أن يظل واقفًا أمام المرآة ليزرر معطفه! ساروا بعد ذلك معًا حتى خرجوا إلى الشارع، حيث لاح ضوء لمبّات الطريق خافتًا عبر ضباب الجليد، فبدأ الضابط أدولف المسير إلى الأمام فوق الثلج رافعًا ياقته، وواضعًا يديه فى جيوب معطفه المائل، كأن شِدة البرودة جعلته يُقَدّم عرضًا لرقص الزنوج.

خلفهم سارت الفتاة الشعثاء مع الشاب كالح الوجه متشابكى الذراعين، تُحدّث نفسها قائلة:

"طفل ظريف! قدّم فى صالة العزف ..." هنا هتفت بصوتٍ عالٍ على وتيرة واحدة، قائلة:

"كلنا أطفال معجزة، كلنا مبدعون".

يظهر الآن الرجل العجوز، الذى رأى عِلية القوم أمام العازف كأنهم أطفال، بعد أن غطّى صلعته بقبعة أسطوانية

www.ibtesama.com/vb

رسميّة، وقد دار بخلده: "والآن! ما كل هذا! أرى أنه لون من ألغاز العرّافة اليونانية بيتيا".[٨]

أومأ الشاب كالح الوجه مُصدقًا.

واصلوا جميعا سيرهم، وتابعت الفتاة الشـــعثاء الأخـــوة الثلاثة النبلاء ببصرها. احتقرتهم، لكنها تابعتهم حتى غابوا عن عينيها عند الناصية.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش :

(١) البُرجُمة: مفرد البراجم وهى مفاصل الأصابع أوالعظام الصغار فى اليد أوالرِجل.

(٢) التون: درجة نغم.

(٣) المقصود موقع وسط فى أصابع البيانو.

(٤) الخيميّات: فصيلة من النبات يكون نظام ازدهارها على شكل خيمة. من أنواعها الجزر والكزبرة والكمّون.

(٥) الفانتزيا: لحن موسيقى متحرر من قيود الشكل التقليدية.

(٦) فريدريش شوبان (١٨١٠ – ١٨٤٩) مؤلف موسيقى بولونى. نزع فى فنه إلى الرومانتيكية. من أشهر تآليفه "البولونية". جدد موسيقى البيانو.

(٧) العملة المعدنية الوارد ذكرهاTALER تعود للقرن ١٨، وتعادل وقتها ٣ ماركات ألمانى.

(٨) بيتيا PYTHIA؛ الكاهنة اليونانية المتنبئة التى اشتهرت باسم عرّافة دلفى. معبدها فى مدينة دلفى DELPHOI اليونانية القديمة. أنقاضها فى قرية كاسترى.

www.ibtesama.com/vb

لدى المتنبئ

هنا الغريب والعجيب من الأماكن والعقول وأنواع الأنفس البشرية، الرفيعة شكلاً والدنيئة موضوعًا. فى طرف إحدى كبريات المدن حيث طريق تقل مصابيحه ويسير به زوجًا من رجال الشرطة لحراسته، علينا الدخول فى بيت والصعود حتى نهايته، حتى الوصول إلى تلك الحجرات المنحدرة تحت السقف، لنجد نابغة شاب، شاحب اللون، يشبك يديه دون عمل، حتى تأتى المثالية والوحشية والشهوانية لزيارته، فى صور منمّقة ذات قيمة عالية لفنّانين بكل شهوتهم وفخرهم على الرغم مما فيهم من غيظ وغم، وسط دخان سجائرهم الكثيف. هنا تأتى النهاية؛ عدم إحساس، وذهول، ولا شيء. هنا لا عهد ولا تنازل ولا تسامح ولا اعتدال ولا قيمة. هنا يؤدى ضعف الهواء وقلّته إلى تزايد قذارة الحياة. هنا يسيطر العناد، وقصوى العواقب، والأنا بعرشها وشكّها، والحرية المطلقة، والجنون...

فى الثامنة من مساء الجمعة الحزينة[1]، أتى العديد ممن دعاهم دانيل فى الميعاد. دعاهم فى كارت رباعى الشكل، عليه صورة نسر طائر يحمل سيفًا مشهورًا بمخالبه، وتحتها بكتابة زخرفية: دعوة للمشاركة فى سماع ردود دانيل على ما جاءه من نداءاتهم المتسائلة فى مساء الجمعة الحزينة. اللقاء فى ميعاد

www.ibtesama.com/vb

مُحدد بأحد شوارع الضاحية المقفرة الخاوية، أمام عمارة إيجار مبتذلة، هى المسكن الجسدى للمتنبئ.

بعضهم يعرف كل منهم الآخر، فتبادلوا التحيّات؛ الرسّام البولندى مع الفتاة الممشوقة، التى تعيش معه؛ والشاعر الساميّ الطويل ذو الذقن السوداء مع زوجته البدينة، شاحبة اللون ذات الثياب الواسعة؛ وشخص آخر يبدوعليه الهرم والمرض، قائد فرسان على المعاش؛ وفيلسوف شاب يشبه حيوان الكنجر. أما الكاتب القصصى بقبعته المتصلّبة وشنبه محل عنايته، فلا يعرفه أحد. لقد أتى من منطقة أخرى بالمصادفة سماعًا للنصيحة. له علاقته الخاصة بالحياة، وقد لقى كتابه قبولاً فى النطاق الشعبى. عزم فى حياته على التواضع الشديد، والعرفان بالجميل، والسلوك المتسم بالصبر. لذلك لم يسبق الآخرين عند الدخول للمنزل، بل اتبعهم، تاركا مسافة بينهم. صعدوا السلّم واحدًا تلوالآخر، متكئين على درابزين من حديد الزهر. كلهم صامتون لأنهم ينتمون لهؤلاء الذين يعرفون قيمة الكلمة، ويراعون عدم الحديث دون فائدة. استطاعوا فى ضوء سُرُجْ ناعسة النور على بسطة السلّم فوق طرف النافذة، أن يقرأوا الأسماء على أبواب الشقق؛ حيث مرّوا هادئين متعجبين دون ازدراء بمنزل ومكتب أحد وكلاء التأمين، ومُولّدة، وسمسار، وجَرّاح متخصص فى مسمار القدم[٢]. واصلوا صعودهم عبر بئر السلّم الضيق كأنه

www.ibtesama.com/vb

بيّارة معتمة باطمئنان ودون توقّف؛ لأن هناك، فى أعلى، عند النهاية، بزغ شعاع خافت؛ بالأحرى ضوء ضعيف يتحرك برفق عند السقف.

أخيرًا بلغوا غايتهم، تحت السقف؛ حيث عدة شمعدانات فوق رءوس السلّم، يضم كل منها ست شمعات، تلقى الضوء على مناضد صغيرة مغطّاة بمفارش صغيرة ذات زخارف يدوية باهتة. ثم قرءوا على الباب، الذى يبدو كأنه مدخل صومعة، فوق لوحة رماديّة من ورق الكرتون، كتابة بالطباشير الأسود لاسم "دانيل" بالحروف الرومانية. دقّوا الجرس، وفتح لهم الباب غلام عريض الجبهة، جميل الابتسام، مرتديًا بدلة زرقاء جديدة، وحذاء طويل لامع، حاملاً شمعة مائلة فى يده، أضاء بها طريقهم عبر دهليز صغير مظلم إلى بهو متميّز بوقوعه تحت السقف ولا يحوى شيئا، حتى الوصول لشمّاعة خشبية للملابس. دون أى كلمة، بمجرد إشارة يد مصحوبة بتأتأة، طلب منهم الفتى خلع ملابسهم الثقيلة، وحين عرض عليه الكاتب القصصى سؤالاً تعاطفًا معه، اتضح تماما أنه طفل أبكم، قاد بعدها الضيوف، بالضوء فى يده، عبر الدهليز عائدًا إلى باب آخر أدخلهم إيّاه. كان آخرهم الكاتب القصصى، يحمل جاكتة وقفّازًا، عاقدًا العزم على التصرف كأنه فى كنيسة.

www.ibtesama.com/vb

دخلوا جميعا صالة تميل للاتساع، ذات ضوء متلألئ متأجج، تلقيه عشرون شمعة مشتعلة. وقفت الفتاة الشابة ماريا يوسفا على الباب مباشرة، برداء بسيط ذى ياقة وأساور بيضاء، تمد يدها لمصافحة الجميع، بينما وجهها يُعبّر عن بساطة بلهاء. الكاتب القصصى يعرفها، فقد رآها من قبل على مائدة شاى أدبية. جلست معتدلة، فى يدها قدح تتحدث عن أخيها بصوت واضح متودد.

إنها متفانية فى حب دانيل.

جال الكاتب القصصى بعينيه باحثًا عنه.

قالت ماريا يوسفا: "إنه غائب الآن، ولا أعرف أين. لكنه سوف يأتى ويكون بيننا بكل روحه، عند قراءة نداءات أرواحكم هنا، جملة تلو الجملة".

فسأل الكاتب القصصى بصوت منخفض وبإجلال، آخذًا الأمر بجديّة، بكونه إنسان ذو نيّة طيبة، وباطنيًا متواضعًا، يتهيب كل ظواهر العالم، وعلى استعداد أن يُقدّر كل ما يستحق التقدير: "مَنْ سوف يكونِ القارئ؟"

أجابته ماريا يوسفا قائلة: "أخى الشاب، الذى ننتظر قدومه الآن من سويسرا، لكنه لم يأت بعد. سوف يأتى فى موعده".

www.ibtesama.com/vb

أمام الباب صورة مرسومة بخطوطٍ طباشير ثقيلة فى لوحة داخل برواز مُسند فوق منضدة بحافته العليا على السقف المنحدر بشدة، يعرض نابليون فى وقفته الاستبدادية الغليظة، واضعًا قدمه بحذائها ذى الرقبة الطويلة فوق المدفأة. على يمين المدخل دولاب ذوطراز قديم، فوقه بين شموع تلقى ضوءها الفضّى الخافت، صورة قدّيس باسطًا راحتيه، وعيناه متجهتان لأعلى. أمام ذلك دكّة صلاة، مَنْ يتقدم نحوها يجد صورة مستندة على إحدى قدمى القدّيس، لرجل فى الثلاثين من عمره تقريبا، ذى جبهة شاحبة ضخمة مائلة للوراء، ووجه دون ذقن، بارز العظام، يشبه وجه الطائر الجارح، ويعبّر عن عقلٍ واعٍ.

توقف الكاتب القصصى برهة أمام هذه الصورة لدانيل؛ ثم تقدّم بحذر ودخل الحجرة ليجد منضدة مستديرة كبيرة ذات سطح مصقول بالون الأصفر، ومُزيّنة بإكليل الغار وصورة النسر حامل السيف، الموجود على الدعوة. حولها مقاعد خشبية كبيرة متواضعة، وكرسى غوطى شديد وقائم، كأنه مقعد العرش. أمامها دكّة طويلة ذات نجارة بسيطة، يكسوها قماش رخيص، تمتد فى الركن الفسيح ذى السقف وإلسور، والشباك المنخفض، الذى ظل مفتوحًا، ربما لأن المدفأة الحجرية القائمة هناك قد أتت بدفء زائد، والذى أعطى الفرصة لرؤية جزء من الأفق فى

www.ibtesama.com/vb

الغسق. حيث المصابيح المبعثرة كنقاط صفراء لامعة تتلاشى مع اتساع الأفق.

يضيق المكان أمام الشباك ليبدوكحجرة صغيرة تشبه القبّة، ويزيد فيه النور عن باقى أجزاء شقة السطح، كأنه حجرة صغيرة أوكنيسة صغيرة. إذا تقدمنا فيه يمينًا نجد كنبة دون مسند، يغطيها قماش خفيف باهت اللون، وبلمح رف كتب معلقًا، يأتيه الضوء من حوله عبر شموع الشمعدان ولمبّات مصباح الزيت. أما على اليسار فتوجد منضدة ذات غطاء أبيض، عليها صليب ومصباح ذو سبع شمعات، وكوب ممتلئ نبيذًا أحمر، وطبق عليه كعك بالزبيب. فى مقدمة تلك القبّة قالب من الجبس مموّه بالذهب، يحمله شمعدان من الحديد على منصّة مسطّحة، على رأسه غطاء الهيكل من حرير أحمر قانٍ. فوقه رصّة قطع ورق مكتوب عليها: نداءات تساؤلية إلى دانيل. أما السور والأجزاء المائلة من السطح، فهى مغطاة بورق جدران يحمل أكاليل فرنسية. على الحوائط أيضا وجوه موتى مطبوعة على الجبس، وأكاليل من الورد، وسيف صدئ؛ وعلاوة على صورة نابليون الكبيرة، فهناك مثيلاتها بحجم أصغر لكل من لوتر، ونيتشه، ومولتكه، والإسكندر السادس، وروبسبير، وسافونارولا.[٣]

قالت ماريا يوسفا للكاتب القصصى لترى ما وراء تعبير وجهه عن ذهول الإجلال والاحترام: "كل هذا كما هو".

www.ibtesama.com/vb

أثناء ذلك حضر ضيوف جدد، ولقوا الترحاب الهادئ، ثم أخذوا أماكنهم برزانة على الدكك؛ هكذا انضم للحاضرين رسّام ذو وجه مُعبّر عن طفولة الشيخوخة؛ وسيدة عرجاء، تراعى إبراز مظهرها "الشهوانى"؛ وأم غير متزوجة، شابة ذات أصل رفيع، نبذتها أسرتها، ففقدت حقها الروحى، ولم تجد قبولاً بسبب أمومتها إلاّ فى هذه الدائرة؛ وأخيرًا كاتبة عجوز؛ وموسيقار ذوعاهة، أى أنهم إجماليًا اثنا عشر ضيفًا. رجع الكاتب القصصى قليلاً إلى الوراء فى النطاق السميك المحيط بالنافذة، وجلست ماريا يوسفا على كرسى بجوار الباب مباشرة، واضعةً يديها فوق ركبتيها. هكذا ينتظر الجميع الشاب القادم من سويسرا، الذى سوف يظهر فى موعده.

فجأة دخلت على الحاضرين تلك السيدة الغنيّة، التى راعت دائما تحقيق هوايتها بالحضور مع أمثال هؤلاء الزائرين. جاءت من بيتها الرائع، ذى الأبواب، التى تحمل حوافها زخارف "جيالّوأنتيكو"، عبر المدينة مستقلّة مركبتها طراز "الكوبيه"[٤]، وصعدت السلّم الطويل ثم دخلت عليهم من الباب لتبدو جميلة، يفوح عطرها، ويتألق طرفها، فى رداء أزرق ذى تطريز أصفر، وبقبّعة من باريس فوق شعرها البنّى المائل للحمرة، وقد ابتسمت بعيونها الأرجوانيّة[٥]. دفعها الفضول، نتيجة مللها السريع ورغبتها فى رؤية التناقضات وولعها بكل ما

www.ibtesama.com/vb

يخرج إلى حد ما عن المعتاد، وبكل شبهة غريبة وشيّقة، إلى تحيّة أخت دانيل والكاتب القصصى، الذى تردد من قبل مرارًا على بيتها، أما الآن فهو يجلس على الكنبة عند حافة النافذة بين السيدة الشهوانية والفيلسوف شبيه الكنجر، هادئًا كأن كل شىء على ما يرام.

همست إلى الكاتب القصصى الجالس خلفها، بفمها الجميل النشيط قائلة: "وكأنى قد تأخرت".

"كانت لدى حفلة شاى، وقد ترامت ..."

تأثر الكاتب القصصى بشدة، وشكر ربه على أن زينته كانت حسنة ليلتها. جال بخاطره؛ كم هى جميلة! إنها جديرة بأن تكون أمًا لهذه الابنة ...

سألها من محل الدعابة: "أين الآنسة سونيا؟ لماذا لم تأت معكِ"؟

سونيا هى ابنة السيدة الغنيّة، التى يعتبرها الكاتب القصصى حالة حظ فريدة بين المخلوقات، لا يصدّقها العقل، فهى معجزة فى كل ما لديها، إنها مَثَل حضارى قد تحقق. كرر اسمها مرّتين، لأن مجرد نطقه إيّاه يأتيه بلذّة لا تُوصف.

قالت السيدة الغنيّة: "لدى سونيا ما يؤلمها. نعم، تتصوّر محنتها فى قدمها. آه، لا شىء سوى ورم، مثل الالتهاب

www.ibtesama.com/vb

أوالبدانة. تمت إزالتها بالجراحة. ربما لم يكن هذا ضروريًا، لكنها أصرّت".

كرر الكاتب القصصى هامسًا: أصرّت!

ثم قال: "هذا ما أعرفه عنها! لكن مَنْ فى العالم يستطيع أن يشاركها الرأى"؟

قالت السيدة الغنيّة: "سوف أنقل لها تحيّاتك. ولأنه صَمَت أضافت: أم أن هذا لا يكفيك"؟

قال بصوته الخافت جدًا: "لا، لا يكفينى"! ابتسمت ثم قالت تعبيرًا عن إعجابها بكتبه: "أرسل لها إذًا إحدى زهورك الصغيرة". قال: "أشكركِ! أشكركِ! هذا ما أريد"! وجال بذهنه زُهيرة؟ باقة؟ بوكيه! غدًا سأذهب قبل الإفطار بحنطور لبائع الزهور! ثم شعر كأنه قد صارت له علاقة وثيقة بالحياة.

انطلق فى الخارج صوت صرير عالٍ. وإذا بالباب ينفتح ثم يُغلق بعنف واندفاع، بعد ما دخل شاب متين البنيان، ممتلئ العود، ذو بدلة قاتمة اللّون، ثم وقف أمام الحاضرين تحت أضواء الشموع. لقد أتى الشاب المُنْتظر من سويسرا، وبدأ يمر بعينيه على الغرفة بنظرة وعيد، ثم خطا بشدة متجهًا نحوعمود الجبس أمام القبّة، ووقف وراءه فوق المنصّة المسطحة، كأنه

www.ibtesama.com/vb

يود الرسوخ هناك، ثم أمسك قطع الورق المكتوبة بخط اليد وبدأ قراءتها.

كان فى الثامنة والعشرين من عمره تقريبًا، ذا رقبة قصيرة، وقبيح. شعر رأسه، الذى كان قد أزاله تماما، عاد للنمو وكأنه أشواك بارزة؛ خاصة فى جبهته الضيقة المخيفة على أى حال. وجهه دون لحية، ومُتكدِّر وضخم، ذو أنف كمثيلتها لدى كلب البحر، ووجنة سميكة ذات جزء بارز، وشفتين شديدتى الغلظة، يخرج من بينهما الكلام ليس عن طيب خاطر، بل بعسر وغضب فاتر. الوجه ذاته كان أيضا فظًا وشاحبًا. قرأ بصوت جامح وجهور، لكنه بدا مرتجفًا فى داخله متكدرًا بضيق النفس. يده القابضة على الأوراق المكتوبة كانت عريضة وحمراء، لكنها على الرغم من ذلك ترتعش. لقد أتى بخلط مُقبض بين الوحشية والضعف، وهذا بما يتوافق بطريقة فريدة مع ما يقرأ.

تتابعت المواعظ والأمثال والنظريّات والمبادئ والرؤى والتنبؤ والنداءات فى خلط أسلوبى بين لهجة وحى المزامير، وبين التعبيرات الاستراتيجية العسكرية، وأيضا النقديّة الفلسفية، داخل سلسلة متعددة الألوان لا يُعرف لها مدى. امتد وطال ظهور الأنا ذات التهيّج فى جنون عظمة فريد، مهددًا العالم بسيل من أقوال ذات قهر. وقد حملت تلك الأنا اسم الحاكم الأعلى "كريستوس"، الذى جمع قوّات مستميتة لإخضاع الكرة

www.ibtesama.com/vb

الأرضية بأكملها، وبعث سفرائه برسائله، ووضع شروطه المتشددة، واقتضى الفقر والقهر، مكررًا بضجة لا حد لها، وبتلذذ شاذ بالطاعة الحتمية لأوامره، معتبرًا بوذا والإسكندر ونابليون والمسيح أيضا، غير قادرين على فك رباط حذاء قيصره الروحى.

استمر الشاب ساعة فى القراءة؛ حيث شرب بيد مرتعشة جرعة من كأس النبيذ الأحمر، ومد يده إلى ورقة جديدة. تلألأ العرق فوق جبينه، وارتجفت شفتاه الغليظتان، دافعًا الهواء من أنفه دائما بنفخ قصير، معبرًا عن إعيائه ونفوذ صبره. كشفت الأنا المتوحشة عن نفسها، ثم ثارت وأصدرت أوامرها. لقد افتقدت ذاتها بصورة جنونية، ودخلت فى دوّامة اللامنطق، ثم تهاوت فجأة فيما لا يُنتظر، حيث اختلط اللعن بالتهليل، والبخور بدخان الماء. معارك كقصف الرعد غزت العالم وحررته. لعله كان من العسير تحديد تأثير رد دانيل على مستمعيه. منهم مَنْ مال برأسه إلى الوراء موجهًا عينيه إلى السقف؛ وآخر انثنى على ركبتيه دافنًا وجهه تحت كفّيه. العرجاء الشهوانية حجبت عينيها بطريقة فريدة كلما وردت كلمة "طهارة"، والفيلسوف كتب بسبّابته الطويلة المعوجّة شيئًا مجهولاً على الهواء. أما الكاتب القصصى فقد حاول وقتًا طويلاً الوصول لجلسة مناسبة تدفع عنه الآم ظهره، وفى الساعة العاشرة ظهر فى خياله رغيف

www.ibtesama.com/vb

صغير بلحم الخنزير، لكنه أطار الفكرة عن رأسه. فى حدود العاشرة والنصف أمسك الشاب آخر الورقات المكتوبة فى يده اليمنى الحمراء المرتعشة. لقد وصل إلى النهاية. قال فى الختام بكل قوته، بصوت جهورى مختنق النبرات كالرعد: "أيها الجنود! لقد دعوتكم إلى أن تأتوا على كل شىء على العالم! "ثم نزل من المنصّة، وألقى نظرة الوعيد على الجميع، وخرج، كما دخل، بخطاه الشديدة من الباب.

ظل الحاضرون دقيقة لائذين بالصمت فى الوضع الذى كانوا عليه. ثم قاموا معًا، وكأنهم متفقون على ذلك، ومشوا بكثافة إلى الباب، بعد أن صافح كل منهم ماريا يوسفا، الساكنة الصامتة، ذات الياقة البيضاء، وهمس إليها مودعًا.

وقف الصبى الأخرس فى الخارج للخدمة، فقاد الضيوف إلى بهو الشمّاعة الخشبية، وساعدهم فى ارتداء ملابسهم الثقيلة، ثم قادهم عبر الدهليز الضيّق، تحت ضوء الشموع الساقط متحركًا من أعالى إمبراطورية دانيل، إلى الباب، ثم فتحه لهم، ليخرجوا واحدًا تلو الآخر إلى شارع الضاحية المقفرة.

مركبة السيدة الغنية مازالت أمام الباب، وقد ظل الحوذى جالسًا على مقعده بين مصبحيها المضيئين، وفى يده السوط متأهبا، إلى أن جاءه الكاتب القصصى بالسيدة الغنيّة حتى بابها.

www.ibtesama.com/vb

سألها: "ما رأيك؟".

فأجابته: "لا أحب أن أدلى برأى قاطع، لكنه كان فى الحقيقة عبقريًا، أوما شابه ذلك ...".

قال مفكرًا: "نعم، وأى عبقرية؟ لدى دانيل هذا، توافرت كل الشروط: انفراده، وحماسه الذهنى، ومظهره الرائع، وثقته بنفسه، وحتى قربه الشديد من الجريمة والجنون.

ماذا ينقصه إذًا؟ ربما الإنسانية؟ ربما بعض المشاعر والشوق والحب؟ لكنها مجرد فرضيّة مرتجلة ...".

بعد أن جلست فى مركبتها قال لها: "تحياتى إلى سونيا!" فمدت يدها لتصافحه، وقرأ بتشوّق تعبير وجهها الدال على أنها أدركت أنه عندما يذكر "سونيا" لا يقصد "الآنسة سونيا" أو"ابنتها الآنسة".

مدحت كتبه، وابتسمت تعبيرًا عن أن أمره مُطاع، وقالت: "سوف أفعلها".

قال لها: "أشكرك!" وقد أربكته خامرة الأمل. ثم هتف وقد تأكدت علاقته بالحياة:

الآن، أذهب إلى عشائى كالوحش!

www.ibtesama.com/vb

الهوامش:

(١) الجمعة الحزينة: هى جمعة الآلام لدى المسيحيين.

(٢) مسمار القَدَم: تصلّب موضعى فى بشرة أصبع القدم.

(٣) مارتن لوثر (١٤٨٣ – ١٥٤٦): كاتب وراهب بدأ فى ألمانيا الإصلاح الدينى (البروتستانتية). نقل الكتاب المقدّس إلى الألمانية، فكانت الترجمة حدثًا دينيًا وأدبيًا.

- فريدريش نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠): فيلسوف ألمانى أخذ بمذهب التطور، وقال إن الحياة ليست غير تنازع على البقاء، وبقاء الأصلح.
- ماكسميليان روبسبير (١٧٥٨ – ١٧٩٤): زعيم المتطرفين اليعقوبيين فى الثورة الفرنسية.
- بورجيا إسكندر السادس (١٤٩٢ – ١٥٠٣): من باباوات النهضة. انصرف إلى السياسة وبرع فيها. فى حياته الخاصة ما يُؤخذ عليه.
- هلموت فون مولتكه (١٨٠٠ – ١٨٩١): قائد ألمانى، رئيس أركان أعلى، قاد الحرب ضد فرنسا ١٨٧٠ – ١٨٧١.

www.ibtesama.com/vb

- إيرونيمو سافونارولا (١٤٥٢ – ١٤٩٨): راهب رومينيكى. رئيس دير القدّيس مرقص فى فلورنسه.

(٤) "الكوبيه": مركبة خيل مقفلة، بأربع عجلات.

(٥) "العيون الأرجوانية": هى العيون الحمراء الذهبية، التى وردت لدى المؤلف "عيون تتسيان" (Titzian Augen)، نسبة إلى الفنان التشيكى الإيطالى "تتسيان".

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

محنة

قام وترك مكتبه، بالأحرى ترك كومودينو قديمًا للكتابة؛ قام وحالته توحى باليأس، ثم مشى فى الزاوية المقابلة بحجرته مطلاً بوجهه على مدفأة طويلة ورفيعة مثل العمود. وضع يديه فوق بلاط كسوة المدفأة، الذى كاد على الرغم من ذلك أن يتصف بالبرودة التامة بعد انتصاف الليل بوقت طويل، لكنه ركن ظهره عليه، دون أن يجد فيه نعمة الدفء التى تطلَّع إليها، وسحب ذيل معطفه، ذى الياقة العريضة ذات الكلفة الباهتة المتدلية، وتنشّق من أنفه بصعوبة ليتنفس القليل من الهواء؛ فقد أصابته نزلة البرد كالمعتاد.

نزلة برد فريدة ورهيبة، كادت لا تفارقه. تأججت جفونه، وأصابت الجروح طرفى فتحتى أنفه. أما رأسه وباقى أعضاء جسمه فقد ظهر عليهم تأثير عسير ومؤلم للبرد متمثلاً فى فقدان الاتزان. ربما كان بطش حجرته الوحشى سببًا لضعفه ومعاناته، كما أشار الطبيب مرارًا منذ أسابيع؟ الله أعلم، ربما كان على صواب، فقد استمر التهاب رئتيه وكذلك تشنّجات صدره وبطنه، كما أن مدينته "ينا" شهدت طقسًا سيئًا عدّة أسابيع؛ نعم، عدّة أسابيع طقس سيّء وبغيض، أفقد المرء أعصابه، فهو قاتم ومتجهّم وبارد، حيث تعوى رياح شهر ديسمبر فى ماسورة

www.ibtesama.com/vb

المدخنة المُوحشة المُهملة، كأنها عاصفة على مرج مظلم، وكرب، وداء للنفس لا يطيب. نفس أصابها داء الشعور الخانق بالأسر، فأشلّ الفكر، حيث عرقل مسيرة دم المخ، الذى ينبعث منه الفكر.

حجرة ذات ستة أركان جرداء، خاوية وغير مريحة، يحوم تحت سقفها ذى الدهان الأبيض دخّان السجاير، ورق حوائطها ذو مربّعات مائلة ذات ظل بيضاوى. شمعتان مشتعلتان بجوار مخطوط يد فوق المكتب، يلقيان الضوء على أربعة أوخمسة قطع موبيليا بالحجرة. ستائر حمراء مُعلّقة على الإطار العلوى للشباك، مجرد قطع متماثلة الطول من نسيج بفتة القطن؛ لونها أحمر، أحمر فاقع، وهو يحبها ولا يريد أن يفارقها، لأنها تضفى على حجرته بعضًا من الفخامة والمتعة على الرغم من سوء حالها الخارج عن العقل.

وقف عند المدفأة ينظر، وقد رمشت عيناه بسرعة وإجهاد مؤلم، إلى عمله الذى فر منه كأنه حِمل ثقيل وضغط وعذاب ضمير وبحر قد لزم تجرّعه وواجب مرعب من أجل الفخر والبؤس، والسمو والهلاك أعاده عمله للتحامل على نفسه، حتى تعثّر وتوقّف توقّف من جديد، من جديد! السبب هو الطقس البارد ومرضه وإعياؤه. أم أنه العمل ذاته؟ العمل؟ العمل بكونه حِملاً تعسًا يثير الشك؟

www.ibtesama.com/vb

كان قد وقف ليأخذ مسافة بينه وبين مخطوط يده، لأن البُعد المكانى عنه يجعل صاحبه قادرًا على إلقاء نظرة، نظرة شاملة على مادته وتهيئة الوسائل لها. نعم، هناك حالات، عندما يدير المرء ظهره لموقع الصراع، يأتيه شعور بالارتياح ذو تأثير كبير. إنه تحمّس برىء يناله المرء بكأس عرق حلو[1] أو فنجان قهوة ... الفنجان موجود بالفعل على المكتب، لكن هل ساعد صاحبه على اجتياز العائق؟ لا، لا، لم يعد يستطيع ! لم يفده الطبيب، وكذلك الآخر، ذو الاعتبار، أعطاه النصيحة ذاتها. الآخر النازل فى مدينة فيمار، الذى يحبه بعداوة شيّقة. هذا الذى يعرف كيف يعيش، كيف يُنتج؛ دون أن يضر نفسه، بل يضعها دائماً فى الاعتبار.

ساد الهدوء فى البيت، ترامى من الخارج صوت الرياح العاصفة على حارة شلوس، ودقدقة قطرات المطر على الشباك. الجميع كانوا نائمين، صاحب البيت وأهله؛ لوتا والأولاد. أما هو فيقف الآن بمفرده أمام الفرن البارد وقد ترقرقت عيناه ناظرًا إلى مخطوطه، معتقدًا أنه أدى به إلى المرض ... برزت رقبته البيضاء من ياقته، وتعرجت ساقاه للداخل بين أذيال الروب. تراجع شعره الأحمر للخلف عن جبهته الرقيقة المرتفعة، كاشفًا خلجان باهتة ذات عروق على أصداغه ومغطيًا أذنيه بخصلات رقيقة. أنفه كبير مُقوّس ينتهى بطرف ضارب للبياض، عند

www.ibtesama.com/vb

جذره يلتقى حاجباه الثقيلان، ذوا الشعر الأغمق من نظيره فى الرأس، مما يعطى نظرة عينيه الغائرتين المتألمتين صورة محزنة. فتح شفتيه الرقيقتين ليتنفّس من فمه مضطرًا، وقد صارت وجنته هزيلة نمشاء متراخية.

لا، إنه فشل، كل شيء صار دون جدوى! حشد غفير! حشد غفير من الأفكار وجب عرضه! حشد غفير كان أساسا لكل شيء! هل تعذُّر عرضه أمام العين، جعل الفن المارد يجبره على الخيال؟ لم يكن البطل بطلاً، بل شخصًا باردًا ليس من الأشراف! الحدث زائف، واللغة زائفة، وصار البطل خاملاً، أدرك الإعياء جناحيه فى التاريخ، واسع الصدر، حصيف وفاشل فى المسرح!

حسنًا! انتهى الأمر. هزيمة. مشروع ضائع فى غير محله. لقد أراد أن يكتب بنظرة حادة، يؤمن بها، ويرتبط بالثقة الطفولية فى عبقريته. سيحدث ضجة ويلقى هجومًا واستهزاءً – والصديق – سوف يعيد "كارلوس"[٢]إلى ذاكرته، الذى انتصر بالشك والجهد والتغيّر، بعد كل العذاب ووصل إلى الامتياز والعمل المشرّف. لكن الأمر مختلف. الرجل حالفه الحظ وجعل الأمر بيده، فحقق به النصر. تأنيب ضمير ومعارك؟ آه، نعم، لقد كان مريضا، أشد مرضًا من الآن، فقير وهارب، انهار عالمه، ولا يملك قوت يومه من الأفكار. لكنه شاب، مازال

www.ibtesama.com/vb

شابا! ظهر على الدوام محدودبًا للغاية، لكن نفسه كانت متطلّعة بمرونة، بعد ساعات الكرب تأتى ساعات الثقة والانتصار النفسى. لكنها لم تعد تأتى، أو نادرًا ما تأتى. ليل الحماسة المتوهجة، حيث يرى المرء فى ضوء معاناة العبقرية، ماذا عساه أن يكون، إذا ما استطاع المرء التمتع بمثل هذه النعمة، لابد أن يدفع الثمن، ويمضى أسبوعًا فى الظلمة والعجز. كان مجهدًا فى السابعة والثلاثين من عمره، يبدو كأنه قد قرب من نهايته. لقد ولّت الثقة التى كانت تنير له المستقبل فى حالة الضنك. هكذا كانت الحال، حقيقة ميئوسًا منها. سنوات الشدّة والعناء، التى اعتبرها سنوات أسى وبلاء، كانت غنيّة ومثمرة؛ أما الآن وقد ندر الحظ، وانتقل من قرصنة النفس إلى العدل الذاتى والارتباط الشخصى، عمل وأسرة، زوجة وأولاد، لقد وهن وانتهى. لم يبق سوى العجز، العجز.

تأوه وضغط بيديه على وجهه، وسار فى الحجرة منهكًا. ما جال للتو برأسه، كان مفزعًا، جعله لا يستطيع البقاء فى المكان الذى جاءه فيه هذا الفكر. جلس على كرسى بجوار الحائط، ووضع راحتيه مشبوكتين بين رجليه، وثبّت بصره منقبضًا على الدهليز.

الضمير ... كَمْ ضج ضميره بالصياح! لقد وقع فى معصية، جنى على نفسه طوال السنين، على أجهزة جسمه

www.ibtesama.com/vb

الغض. جرأة جسده الشاب، والليالى الساهرة، وأيام هواؤها معبأ بدخان السجائر، والإفراط الذهنى والجسدى دون قيد، والشراب – كأنه حُقَن طوال العمل – كل هذا ينتقم، ينتقم منّى الآن!

انتقام، لأنه أراد أن يتحدّى الآلهة، الذين يقضون بالذنب ويوقعون العقوبة. لقد عاش، كما وجب عليه أن يعيش، لم يكن لديه وقت ليتعقّل. إذا تنفّس أو سعل أم تثاءب، يشعر فى صدره بألم كأنه تنبيه شيطانى، حاد، موخز، لم يتوقف منذ خمس سنوات، بعد أن أصابه الالتهاب الرئوي، هذا المرض الصدرى المحموم، فى مدينة ارفورت، ماذا يعنى هذا؟ فى الحقيقة إنه يعرف ماذا يعنى، هذا ما أراد واستطاع الطبيب أن يوجهه به. ليس لديه وقت ليخفف المرض عن نفسه عبر تلاطفه الذكى بنفسه. كل ما أراد فعله، اوجب على نفسه فعله فورًا وبعجل ... أين التلاطف بالنفس؟ كيف وصل الأمر فى النهاية إلى أن الذنوب؛ بالأحرى رفع لواء الإضرار بالنفس وإهلاكها، جعلوه يظن أنهم كل الحكمة والطاعة الرزينة؟ ليس المقصود بالتلاطف أن تصل السريرة النقيّة إلى فن محتقر، بل إلى تحاشى الصراع والفاقة والمعاناة والألم. الألم.. كما أوسعت له هذه الكلمة صدره! قام وشبك ذراعيه، وامتلأت نظرة عينيه، تحت حاجبيه الملتصقين ذوى الاحمرار، بحلو الشكوى. لم يشف بعد، لم يصل إلى قمة شفائه، طالما لم يزل يطلق على بؤسه اسم الفخر

www.ibtesama.com/vb

والشرف. واجبه أن يتشجّع ويضع تسميات عظيمة وجميلة لحياته! وألاّ يُرجع شقاءه إلى هواء حجرته واضطراب أمعائه! أن يستعيد صحته ويحافظ عليها، حتى لا تحتل جسمانيته عقله ومشاعره! أن يُيسّر أموره ببساطة، ولا يُعسّرها بعلمه! أن يُقدّر ويستطيع تقدير الألم ... لأن تقديره الراهن للألم شديد وعميق بدرجة جعلت كل ما يحدث نتيجة لألم، لا يمكن أن يكون دون فائدة أوسيّئًا. قفز بصره على مخطوط، واشتد تشابك يديه فوق صدره ... أليست الموهبة ألمًا؟ إن كان هذا العمل مشئوم، وسبب للألم، ألا يكون على ما يرام، وكاد يكون بالفعل علامة جيدة؟ لم تتفجر الموهبة، وبدا فقدان الثقة. التفجّر لا يكون إلا مع غير المحترفين أوغير المتخصصين، مع سريعى الرضا وغير العالمين، الذين يعيشون تحت وطأة كبح جماح الموهبة. لأن الموهبة، أيها السادة والسيدات الآهلين فى الطابق الأرضى، ليست شيئًا سهلاً أودعابة، إنها ببساطة وسهولة مجرد مقدرة. إنها فى الأصل "حاجة ضرورية"، معرفة نقديّة من أجل المثالية، عدم رضا يخلق قدرته وينمّيها، ليس دون ألم أوعذاب. أكبرهم قدرًا وعدم رضا، يكون موهبتهم سوطًا حادًا بلا نظير ... لا تشكو! لا تتباهى! ارتضِ وفكّر بصبر فيما تحتمل! وإذا لم يكن لديك يوم فى الأسبوع، أوساعة دون ألم، ماذا سوف يكون إذًا؟

www.ibtesama.com/vb

إن تبسيط وتصغير الأعباء والإنجازات والمتطلبات والمشقّات والمتاعب سبيل بناء العظماء!

نهض وسحب علبة، وتنشّق منها بنهم، ثم وضع يده خلف ظهره ومشى باندفاع فى الحجرة، مما دفع تيّار هواء نحوالشمعة ليموّج لهيبها ... عظمة وتفوق وعالمية وخلود الأعلام! أى هدف دون ذلك يجوز للمغمور أن يتطلّع إليه؟ أن يجد الشهرة؛ الشهرة والحب لدى كل شعوب الأرض ! وليس للثرثرة فى حب الذات ثمة حلاوة هذا الحلم وتلك الرغبة ! ويعتل حب الذّات إن جاء صاحبه بالعلّة. إن مراقبة الذات بإفراط أشد عسرًا من قيامها بأداء رسالتها اليسيرة على الأرض ! الطموح يتساءل: هل المعاناة دون عائد؟ لا، بل تجعلنى عظيمًا!

توترت أرنبة أنفه، وألقت عيناه نظرة وعيد شاردة. أدخل يمينه بعمق فى ياقة الروب، وطبّق يسراه تحتها. ظهرت حمرة مفاجئة على وجناته النحيلة؛ لهب مندفع من وهج حب الذات لدى الفنانين، ومعاناة الأنا المتأججة فى أعماقه لا تمحها الأيام. وقد أدرك النشوة الخفيّة لهذا الحب. لقد احتاج أحيانًا مجرد أن يتأمل يده حتى يمتلئ حنوًا متحمسًا إلى نفسه، التى قرر أن يجعل كل ما لديه من أسلحة الموهبة والفن فى خدمتهما. له هذا، ولا شىء فيه مُخل للشرف. لأن الإدراك يظل أعمق من حب الذات، ويكون لدي الجميع فى خدمة كل ما هو راق، ليس

www.ibtesama.com/vb

بعائد، ولكن لضرورة الإتيان بما لا يأتى بفائدة خاصة، والتفانى فيه. هكذا يبلور تحمسه فى ألاّ يكون هناك من هو أعظم أو أعمق منه فى معاناة الوصول لهذه القمة.

لن يكون!... ظلّ واقفًا، يداه فوق عينيه، وقد التوى بنصفه الأعلى مسرعًا متهربًا، ليفر من وخزات شوك خاطره، دارت فى ذهنه عن هذا الإنسان المرح، السعيد، الشهوانى، ذى اللاّدراية بالألوهية، الذى كان يعيش هناك، فى "فيمر"، وأحبه بعداوة شيّقة ... ثم عاد كعادته للقلق الشديد، بسرعة وشغف، وشعر أن العمل قد بدأ بداخله، انطلاقًا من فكرة تحديد وإثبات ما يميزه عن صاحبنا الآخر من كينونة وفن ... هل هو الأكبر؟ فى ماذا؟ لماذا؟ هل التحدى دائم لديه حتى يفوز؟ هل هزيمته مسرحية تراجيدية؟ لم يكن إلهًا، لم يكن بطلاً. لكن كونه إلهًا أيسر من كونه بطلاً! أيسر ... كان أيسر لدى الآخر أن يفرّق بين المعرفة والإبداع، مما يجعل الأمر بهيجًا دون حيرة، وغزير الثمر. فإذا كان الخلق ربّانيًا، تكون المعرفة بطولة، رب وبطل، كلاهما يبدع عن معرفة!

اختيار العسير... أيدرك المرء قدر ما تتطلبه جملة وفكرة عسيرة من عفاف وجهاد للنفس؟ لأنه فى النهاية يكون دون معرفة ولم يتعلّم إلاّ القليل، يكون ذا أحلام وسباحة فى الخيال. أفضل مشهد مسرحى يفوق مكتوب يوليوس فى صعوبته – إن

www.ibtesama.com/vb

كان بالفعل هوالأفضل؟ – ابتداءً من الشدّة الإيقاعية للبنية الفنيّة للمادة والجوهر وإمكانية دفقها، حتى الوصول للأفكار والصور والكلمات والسطور. أى صراع هذا؟ وأى طريق مملوء بالأشواك! أعماله معجزات شوقه؛ شوق إلى شكل وهيئة وتحديد وتجسيد، شوق إلى ما هناك فى عالم الآخرين الواضح، شوق ذو لسان إلهى يخاطب كل ما تشرق عليه الشمس باسمه.

لكن، ومع كل ذلك، أليس الفنان مثل الشاعر، مثله تمامًا؟ إنه يبدع من اللاّ شىء، من بين جوانحه؟ ألم تُولد القصيدة داخل نفسه مثل الموسيقى، مثل النموذج الأول النقى للوجود، قبل أن يتحوّل إلى رمز لا يرتدى رداء العالم الأرضى؟ التاريخ وحكمة العالم والألم، جميعها مجرد وسائل وحجج لما ليس له إلاّ دور ضئيل معهم، ويجد وطنه فى الأعماق الاورفيسية.[٣]كأن العبارات والمدلولات أزرار إبداع، الضغط عليها يجعل عزفًا كامنًا يعود للرنين فى الآذان.

ماذا إن أدركها المرء؟ تأتيه بمدح خبرة الناس لقدرته الروحيّة التى وجهته إلى تلك الأزرار. أجمل كلماته ذات الرنين والأجراس، المعبرة عن قمة سعادة النفس، تفتن الكثيرين ... تفتنهم الحريّة ... كما فتنته من قبل بقدر قلّ أو زاد. الحريّة ماذا تعنى؟ ألا تعنى حريّة إرادة الجمهور، وليست الحريّة من

www.ibtesama.com/vb

عروش الأمراء؟ أليست حريّة خيال النفس لكل ما يمكن أن تعنيه العبارات؟

هل هناك حريّة أخرى؟ حريّة من شيء آخر؟ ربما من الحظ، من حظ الإنسان، هذا القيد الحريرى، هذا الارتباط الرقيق الخلاّب.

من الحظ ... ارتجفت شفتاه، وكأن بصره انتقل إلى داخله، فخفض رأسه ببطء بين يديه ... كان فى حجرته الجانبيّة، حيث انبعث من المصباح المعلّق ضوء مائل إلى الزرقة، والستار الموشىّ بالأزهار حجب النافذة بثنايا لا تبدى حراكًا. وقف بجانب الفراش، ومال على رأسها الجميلة فوق الوسادة ... خصلة من شعره كانت قد تجعدت فوق وجنته ذات صفاء الزهر، وقد انفتحت شفتاه فى غفوة ... زوجتى! زوجتى! أدركتِ حبّى، وجئتنى بالسعادة! اهدئى ونامى! لا تفتحى عينيكِ بأهدابها طويلة الظل، عينيكِ الكبيرة السوداء، لتبحث عنّى وتتساءل! أقسم بالله! أقسم بالله! كم أحبكِ! أحيانًا تفلت منّى مشاعرى، نتيجة معاناتى الشديدة. وصراعى مع واجب إثبات ذاتى. لا أستطيع أن أكون لكِ برمتى، أو أن أسعد بكِ، بسبب ما اعتبرته رسالتى فى الحياة.

www.ibtesama.com/vb

قبّلها، وفارق دفء غفوتها اللطيف، وجال ببصره فيما حوله، حتى نبهته دقّات الساعة إلى انجلاء الليل، وأعلنت بصفاء نهاية ساعة عسيرة. تنفّس الصعداء، وانطبقت شفتاه؛ فذهب بالقلم ... لم يمعن التفكير! لأنه بعيد الأعماق بدرجة تتيح له ألاّ يمعن التفكير! لم يهبط فى وادى فوضى الفكر، أو على الأقل الاقتراب منها، بل أخرج، من ظلماء الفوضى إلى النور، ما نضج واقتدر حتى حقق هيئته. أوقف التأمل، وبدأ العمل! تحديد، وتقرير، وخلق، وانتهاء.

سوف ينتهى عمل، عانى منه صاحبه. ربما لن يكون جيدًا، لكنه سينتهى. وبعد انتهائه، انظر! إنه جيد. من نفس صاحبه، وموسيقاه وفكره، ينطلق العمل الجديد، خلقًا رنّانًا برّاقًا، ويوحى بمنبعه اللانهائى فى صيغة مقدّسة، كما هى الحال حين يعزف البحر فى القوقعة الآتية منه.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش:

(١) عرق حلو مُسكِّر مُعطَّر، يكون عادة محلّيًا.

(٢) تراجيديا فريدريش شيلر "دون كارلوس".

(٣) له علاقة بأورفيوس، وهو فى الأسطورة الإغريقية رجل موسيقى تبع زوجته بوربديس إلى "مثوى الأموات"، فأجاز له بلوتو، وقد سُحر بألحانه، أن يُخرجها من ذلك المثوى شرط ألاّ ينظر إلى الوراء، ولكنه فعل فى اللحظة الأخيرة ففقدها.

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

نادرة

كُنّا مجموعة أصدقاء، وقد لبّينا ذات ليلة دعوة عشاء لدى واحد منّا، اجتمعنا بعدها فى حجرة مكتبه حتى وقت متأخر من الليل. أثناء التدخين كان حديثنا تأمليًا وإلى حد ما وجدانيًا. تكلمنا عن حجب الحقيقة وخديعته البرّاقة، وعمّا أسماه بوذا "الظمأ"، وعن حلاوة الشوق ومرارة المعرفة، وعن التضليل والخداع الكبيرين. تردد القول عن "فضيحة الشوق"؛ حيث ترى الفلسفة أن هدف كل الشوق هو التغلّب على العالم. وإذا بتلك التأملات تؤثر فى أحدنا ليروى النادرة التالية، التى أكّد أنها وقعت بالفعل لدى الجمع الراقى فى مسقط رأسه.

"إذا ما عرفتم أنجلا، زوجة بيكر المدير، أنجلا بيكر الشابة الرائعة، إذا ما رأيتم عيونها الزرقاء المبتسمة، وفمها الحلو، وثغرة خدّها الساحرة، وخصلات شعرها الأصفر على جانبى وجهها، وإذا ما حظيتم بلطافة روحها الفاتنة، سوف تعشقونها مثلى ومثل كل مَنْ رآها! يا لها من صورة مثالية! قدرة نشيطة، وتفاؤل، ومنهل تحمّس وقوة يدفعون ويثيرون كل الطاقات الروحية فى كل جوانب الحياة! هكذا كانت أنجلا بيكر صورة مثالية ونجمًا برّاقًا ومشهدًا خياليا فى مدينتنا. أعتقد أن لا أحد، على الأقل من عالمنا، قد غفل عنها، أو يستطيع تصوّر

www.ibtesama.com/vb

فراقها دون فقدان الحياة والرغبة فيها، والشعور بإصابة فى صميم الفؤاد. وأقسم أنه هكذا كان الأمر!

أتى بها من خارج المدينة إرنست بيكر، الهادئ، دمث الخلق، ذو اللحية، الذى لم يكن من عِلية القوم. ويعلم الله، كم فاز بأنجلا؛ حيث صارت زوجته. كان رجل قانون وموظفًا، ثم انتقل فى الثلاثين من عمره للعمل فى البنك حتى يستطيع تجهيز بيت الزوجيّة الرفيع والحياة الراقية لتلك الفتاة، التى تمنّى الارتباط بها ، وسرعان ما تحققت أمنيته بزواجها.

بلغ دخله، بكونه مساعد مدير بنك المرهونات العقاريّة، ثلاثين أو خمسين ألف مارك شهريًا، ولم ينجب أطفالا، بل قام هو وزوجته بدور فاعل فى حياة مدينتهم الاجتماعية. كانت أنجلا ملكة عصرها والفائزة دائما بجائزة لعبة الرقص الجماعى. وكانت مقصورتها فى مسرح المدينة أثناء الراحات ممتلئة بخدمها، وأيضا بالمبتهجين والمفتونين بها من عِلية القوم. أما مكانها فى أسواق التبرعات الخيرية فممتلئ دائما بزائرين يتدافعون ليخففوا وزن ما تحمله محافظهم من أموال حتى يتسنّى لهم أن يحظوا بقبلة على يدها الصغيرة، وبسمة على شفتيها الساحرتين. لماذا تتصف بَسمتها إذًا بالبريق والبهجة؟ فقط عن طريق تأثيراتها، التى تصوّر ما لشخصيتها من جاذبية حلوة. كما جاءت بعاصر العشق للكبار والصغار، وجعلت الرجال

www.ibtesama.com/vb

والنساء يحبونها لدرجة العبادة. فإذا بضابط شاب ينازل مستشارا إداريًا، ويصيبه بطلقة نارية بين منكبيه، نتيجة اشتباكهما فى خصومة على رقصة فالس مع أنجلا. إلاّ أن إجلالهما لها قد جعل منهما فيما بعد صديقين لا يفترقان. حول مأدبتها التف مشايخ القوم لسماع حديثها الخلاّب والتلذذ بتعبير وجهها السماوى المشرق؛ عاد الدم لوجنات العجائز، فسعدوا وتعلّقوا بالحياة. ذات مرّة خر أحد الجنرالات أمامها فى الصالون راكعًا بالطبع على سبيل الدعابة، لكنه أيضا تعبيرًا صادقًا عن مشاعره.

لم يستطع أحد، رجل كان أو امرأة، أن يتفاخر بثقتها وصُحبتها، سوى إرنست بيكر بالطبع، الذى اتّسم بالصمت والتواضع، وكذلك بعدم قدرته على التعبير عن تفاخره بحظه. ظلّت بينهما وبيننا دائما حدود سامية أدت إلى ندرة إمكانية رؤيتها خارج الصالونات وصالات الرقص؛ وإذا ما أمعنّا الفكر نجد أن هذا الكائن الذى يمثّل روح الحفلات، لا يظهر فى ضوء النهار، بل دائما فى الليل ذى الأضواء والدفء الروحى. تحب الجميع، لكنها ليست مُقرّبة لصديق أو صديقة بعينها، وقد أصابت، فأى مثالية يستطيع المرء أن يخاطبها بالكاف؟

أعطت أنجلا الاهتمام ببيتها معظم وقتها، من أجل ذلك الرونق العذب الذى تميزت به حفلاتها الليلية، التى ذاع صيتها

www.ibtesama.com/vb

وبلغت ذروتها بحق طوال الشتاء. لعلّ من الواجب أن نذكر أن كل ذلك كان خدمة جليّة من المُضيفة وحدها، لأن بيكر مُضيف مُهذّب وليس محدثًا ماهرًا. هكذا بذلت أنجلا قصارى جهدها فى هذه الليالى. بعد الطعام تعزف على الجنك وتغنّى مع هدير الأوتار بصوتها ذى البريق الفضّى. لا ينسى أحد مذاقها وجمالها وحضور ذهنها الساحر، الذى يجعل من ليلتها لوحة جميلة؛ حبها الذى يلقى أشعته المتساوية فى كل اتجاه ويحتل كل القلوب، رقّتها البالغة مع زوجها تُجسّد السعادة وإمكانياتها أمام أعيننا. تقودنا لإيمان تطلّعى ممتع بالخير، أو إمكانية إهدائها إيّاه تكاملاً للحياة عن طريق الفن.

هكذا كانت زوجة السيد إرنست بيكر، ولعلّه قدّر فوزه بها. إن كان هناك رجلاً فى مدينته محلاً للحسد، فهو هذا الرجل، ومن المعتقد أن كثيرا ما وصلت إليه أقوال حاسديه. كما سمع مباشرة من محادثيه حسد حاسديه، وقبله قبولا لطيفا. كانا زوجين منذ عشر سنوات؛ المدير فى الأربعين من عمره وأنجلا فى الثلاثين تقريبا. حينئذ حدث ما يلى:

فى إحدى الليالى المثالية ضمت دعوة العشاء لدى عائلة بيكر عشرين ضيفا. وجبة لا مثيل لها، صارت بعدها الحال على أصفى ما يكون. عند صب كأس الشمبانيا قام أحد السادة، شاب فى سن الاعتدال، شرب النخب ثم أثنى على صاحبة

www.ibtesama.com/vb

الدعوة ومدح ضيافتها، تلك الضيافة المثلى الثرية، التى تستهدف زيادة سعادتها بزيادة عدد مَنْ هم فيها. تحدّث عن أنجلا، متجهًا نحوها بالكأس فى يده، ومدحها بأعلى صوته قائلاً: "سيدتى الحبيبة، المبجّلة، المحترمة! إذا ما قضيت حياتى كلها أعزب، فسوف يعود هذا إلى أننى لم أجد سيدة يمكن أن تكون مِثْلكِ، وإذا ما أردت الزواج، فمن المؤكد وجوب أن تشبهكِ زوجتى تمام الشبه! "ثم اتجه نحو إرنست بيكر، ورجاه أن يسمح له أن يكرر ما قاله مرارًا من قبل عن حسدهم جميعا إيّاه، وأمنياتهم وتبجيلهم له. ثم دعا الحاضرين لشرب نخب مضيفيهما المحظوظين؛ السيد بيكر وزوجته.

شربوا النخب وتركوا مقاعدهم، وأرادوا جميعا التسابق للوصول إلى مضيفيهما. لكن فجأة هدأت الضجّة لأن بيكر المدير، وقف بوجه باهت كوجوه الموتى.

بدأ يتحدث، باهت الوجه محمر العينين، بأبهة مرتجفة، قائلاً: "ها هو ذا – تتقاذف الكلمات من فيه – اضطر أخيرًا أن يقول الحقيقة التى حملها وحده زمنًا طويلاً على عاتقه! أخيرًا نفتح أعيننا، نحن العمى الضالين، على هذا الوثن لنحسده بشدة على ما له من صفات! "جلس بعض الضيوف ووقف بعضهم الآخر، فاقدى الوعى كأن على رءوسهم الطير، لا يصدّقون

www.ibtesama.com/vb

آذانهم، محملقين بأبصارهم على المائدة ذات الزينة، حيث يرسم هذا الإنسان صورة مفزعة لزيجته. – لجحيمه بسبب زيجته.

هذه المرأة – الماثلة أمامهم – ذات وجهين، كاذبة، حيوانية القسوة. جافة منفّرة. تقضى نهارها كله فى ميوعة منحطة سمجة، حتى يأتى الليل ليوقظها بأضوائه الصناعيّة لتعيش حياة نفاق. طوال نهارها لا تفعل شيئا سوى تعذيب هرّتها بطريقة فظيعة مبتدعة. تعتصر دماء زوجها بتعكّر مزاجها. تخونه دون حياء، وتجعله رجلاً ذى قرنين، مع الخدم وصبيان الحرفيين، ومَنْ يدق بابهم من الشحّاذين. لقد ألقت به فى مهوى فسادها السحيق، وأذلّته ولطّخته بالعار وحطّمته. لكنه تحمّل كل هذا، تحمّله من أجل الحب، حبه لهذا الوهم المتجسّد فى تلك الفقيرة التى دعته إلى الشفقة. لكنه تعب أخيرًا من الحسد عليها والتهنئة بها، ووجب عليه القول، قول الحقيقة.

ثم هتف قائلاً: إنها تتكاسل، ولا تستحم مطلقًا! وتخفى قذارتها تحت ملابسها الراقية!

سرعان ما خرج به اثنان من الضيوف من المكان، وتفرّق الباقون.

www.ibtesama.com/vb

بعد بضعة أيام، دخل بيكر، بالاتفاق مع زوجته، أحد مستشفيات الأمراض العقليّة، لكنه سرعان ما شفى تماما، وعادت صحته لأحسن الأحوال.

فيما بعد انتقلت أسرة بيكر إلى مدينة أخرى.

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

تعارُك يابه ودو-أسكوبار

تأثرت جدًا حين أبلغنى يونّى بيشوب أن يابه ودو-أسكوبار يريدان أن يتعاركا وأننا سوف نذهب لنحضر هذا العراك.

كُنّا فى إجازة الصيف بمرسى ترافاموندا[1] فى يوم ملتهب الحرارة، تميَّز بريح بريّة ضعيفة ساخنة، وبحر مستوٍ فى حالة جذب شديدة. مكثنا فى مياه البحر ثلاثة أرباع الساعة، ثم رقدنا فوق الرمال الجافة على حوض السباحة، تحت مظلّته ذات القوائم والألواح الخشبية، وكان معنا يورجن براتشتروم، ابن صاحب السفن. رقد يونّى وبراتشتروم على ظهريهما عاريين تماما.

بينما آثرت أن ألِفْ المنشفة حول خاصرتى، فسألنى براتشتروم، لماذا فعلت هذا؟ ولأننى لم أستطع أن أجد له إجابة، سرعان ما عبّر يونّى عن نصره وسعادته بابتسامة تقول: ربما لأننى ضخمًا ولا أستطيع أن أرقد عاريًا. بالفعل أنا أضخم منه وأيضا من براتشتروم، وعلى الأقل أكبر منهما، حيث بلغت تقريبًا الثالثة عشر. هكذا تقبّلت ما عبّر عنه يونّى صامتًا، على الرغم مما فيه من إساءة معنوية لى، لأن كل مَنْ يصاحب يونّى لابد أن يقع بسهولة تحت أضواء سخريته، إذا كان أقل منه فى

www.ibtesama.com/vb

الجسم والرقّة والطفولة الجسديّة، لأنه بلغ درجة عالية فى كل هذا. تستطيع عيونه الزرقاء الجميلة أن تتجه، كأنها عيون فتاة مبتسمة بلطف وسخرية، إلى أحد الموجودين، وتوحى أنه يريد أن يقول: "يا لك من جلف طويل!" لقد ضاعت لديه مثالية الرجولة والهيبة، التى كانت، فى وقت ليس بعد الحرب بكثير، قيمة عالية نراها نحن الشباب فى القوة والشجاعة والخشونة، ونرى كل ما عداها ليونة. لكن يونّى، بكونه أجنبيًا أو نصف أجنبى، لم يكن متأثرًا باتجاهنا هذا، بل على العكس متأثرًا بالمرأة التى تحافظ على رشاقتها، وتجعل كل مَنْ يُقل مِنْ المحافظة عليها موضوعًا لمزاحها. كما كان يظهر وكأنه فتى المدينة الأول بلا منازع، الذى يحتل عرش الأناقة الأرستقراطية، حيث يظهر فى بدلة البحّار الإنجليزية الأصيلة بياقة من الكتّان الأزرق وعقدة البحّارة وخيوط القُنَّبْ، وغليون فضّى فى جيب الجاكتة العلوى، وهِلب فوق الكُم القطنى الملتصق بالمعصم. أما إذا ظهر أحد غيره مرتديًا كل هذا، فيراه مُبالغًا فى التأنّق ويستحق السخرية. لكن لأنه يرتديها بملاحة وبديهية، فهى على ما يرام، ولا يجد فيها أى شىء يقلقه.

يبدو عاشقًا صغيرًا نحيفًا مفطورًا على الحب، متوسدًا ذراعيه الممشوقين ليظهر فوقهما وجهه الأشقر الناعم ذو الملامح الإنجليزية. كان والده تاجرًا ألمانيًا، حصل على الجنسيّة

www.ibtesama.com/vb

الإنجليزية، ومات منذ سنوات. أما والدته فهى إنجليزية الأصل؛ امرأة ذات طبيعة رقيقة وهادئة، ووجه طويل، وقد استقرّت فى مدينتنا مع ابنها يونّى، وابنتها الصغيرة الجميلة المائلة للخبث. ارتدت دائما الملابس السوداء دون غيرها حزنًا على زوجها، وحفظت آخر وصاياه بأن جعلت أبناءها ينشأون فى ألمانيا، وكانت تتمتع بعلاقات طيبة فى محيطها. كانت تملك بيتًا فسيحًا فى طرف المدينة، وفيلاّ على البحر، وتزور من وقت لآخر أحواض السباحة البعيدة مع يونّى وسيسى.

لكنها على الرغم من انفتاحها، لم تشارك فى الحفلات. بالأحرى أنها عاشت فى خلوة شديدة بنفسها، ربما بسبب حزنها، وبسبب ضيق أفق العائلات المحيطة بها، ومع ذلك فإن اهتمامها بدعوات وترتيبات الألعاب الجماعية لكل من يونّى وسيسى، واشتراكهما فى دروس الرقص واللّياقة والذوق وما إلى ذلك، يوضّح أنها لم تُحدد علاقات أولادها الاجتماعية، بل راقبتهم بعناية متّزنة، حتى صارت علاقات يونّى وسيسى مع أولاد العائلات الراقية دون غيرها، بالطبع لم يكن ذلك اعتمادًا على مبدأ أعلنته، بل مجرد حقيقة بسيطة واقعة. من هذه الناحية يمكن أن أعتبرها شاركت فى تربيتى عن بُعد، عندما علّمتنى أنه إن أراد المرء أن يجذب الأنظار إليه، لا عليه سوى أن يتأنّق. إن فقدان رب الأسرة لم يؤد بهم إلى ظهور علامات الإهمال

www.ibtesama.com/vb

والانحدار، التى غالبا ما تؤدى إلى أن يظن الناس بمثل هذه السيدة الظنون. دون أنساب أو ألقاب أو مآثر أو مراكز. تمتعت حياتها بالعديد من التطلّعات والأهداف حتى أدّى يدبرها إلى الاعتراف لها دون النطق بكلمة أو حرج، وأيضا إلى التقدير العالى للصداقة التى ربطت أبناءها بالأولاد والبنات. إذا انتقلنا إلى يورجن براتشتروم، لعلّنا نذكر ارتقاء والده المناصب العالية والثراء وقيامه ببناء بيت من الحجر الرملى الأحمر فوق بطحاء الجبل نه ولأهله بجوار منزل عائلة السيدة بيشوب. هكذا أصبح يورجن، بتصريح رزين من السيدة بيشوب، وبتأثير الذهاب إلى المدرسة وأيضا اللّعب مع يونّى، صبيًا ذا لطف بلغمى[٢]، دائم المجاملة، دون خصال بارزة، يمارس خِفية بعضًا من التملّق.

كما قلت فيما سبق، لقد أفزعنى ما أخبرنى به يونّى عن عراك وشيك الوقوع بين يابه ودو – أسكوبار؛ للأسف الشديد، إنه اليوم، الساعة الثانية عشرة فى حلقة مفتوحة أمام الحاضرين. سوف يكون عراكًا طاحنًا لأن يابه ودو – أسكوبار شابان جريئان كالفرسان الذين لا يُشق لهم غبار، يمكن أن تكون المجابهة العدائية بينهما وحشيّة ومفزعة. أذكر، حين رأيتهما أول مرة، كانا متميزين بالضخامة والشجاعة ولم يتجاوزا يومئذ الخامسة عشر من عمرهما. يابه من الطبقة المتوسطة بمدينتنا؛ ولم يكن لافتًا للأنظار بدرجة كبيرة، بل كان، كما أسميناه حينئذ،

www.ibtesama.com/vb

صبى "بُرَمْ" (نقصد أنه ماجن)، أى أنه بالمعنى الدقيق "المنغرس فى اللذّات". أما دو – أسكوبار فقد كان خارجًا عن المألوف، غريب الأطوار، لم يواظب قط على الذهاب إلى المدرسة، بل مجرد مستمع ومنصت فى بعض الأحيان (حياته فوضاويّة لكنها فردوسيّة) يدفع إيجار بنسيون لدى أحد أهل المدينة، وتغمره السعادة بحريّة التصرّف الكاملة. كان كلاهما من هؤلاء الذين لا ينامون إلاّ فى ساعة متأخرة من الليل، ويأكلون فى المطاعم، ويتسكّعون ليلاً فى الشارع الرئيسى، ويمشون وراء البنات، ويخاطرون بقفزات الجمبّاز؛ الخلاصة، يفعلون كل هذا كأنهم فرسان. على الرغم من عدم نزولهما بفندق الحمّامات المعدنية فى ترافاموندا ولا حتى انتمائهما إليه، بل إلى أحد أزقّة المدينة، صارا اثنين من رجال حديقة الحمّامات المعدنية اللّبقين، وعرفت أننى بينما كنت فى المساء، بالأحرى مساء كل أحد، أرقد بهدوء فى فراشى فى أحد البيوت السويسرية، وكثيرًا ما أغيب فى نومى مع نغمات فرقة موسيقى الحمّامات المعدنية، كان الشابان يتسكّعان بنشاط متنعّمين بين تيارات زائرى الحمّامات والمتنزّهين أمام المظلّة الكبيرة، ويحاولان تجاذب أطراف الحديث مع الكبار وتتوّج محاولاتهما بالنجاح. فى هذه الأثناء حدث الاشتباك بينهما، الله أعلم كيف ولماذا؟ ربما تدافعا بالأكتاف أثناء سيرهما، ودفعتهما مسألة الشرف إلى العراك.

www.ibtesama.com/vb

فور قيام يونّى من نومه الطويل، وصل الخبر إلى سمعه، ليعلن بصوته اللطيف الطفولى المائل للانخفاض، أن الأمر يدور حول "فتاة"، وهذا هو المُتوقّع مما زاد على حده من جرأة لدى يابه ودو – أسكوبار. باختصار، إنهما لم ينهيا الموضوع أمام الناس، بل أمام شهود، بتحديد المكان والزمان لرد الاعتبار. الميعاد غدًا الساعة الثانية عشرة فى مكان ما على ساحة مكشوفة. الليلة عشيّة المعركة! كما سيأتى من هامبورج راقص الباليه كناك، رئيس الراقصين ومُنظّم حفلات دار الحمّامات المعدنية، الذى شهد تلك الواقعة ووعد بالحضور لأرض العِراك.

انتظر تونى العراك بسعادة بالغة، شاركه فيها براتشتروم، ولم يصب أحدهما ما شعرت به من انقباض. أكد مرارًا، مخرجًا راءه بطريقة مستفزّة من سقف حلقه[٣]، أن كلاً منهما سوف يضرب الآخر بجديّة بوصفه عدوًا؛ ثم تبصّر فى إمكانيات الفوز لاهيًا، وإلى حد ما ساخرًا. يابه ودو – أسكوبار شديدا القوة، بالأحرى أجلاف. كان من الفكه أن يتم مثل هذا الاتفاق الجدى بين اثنين من أقوى الأجلاف. أفاد يونّى أن يابه يظهر بصدره العريض وعضلاته الباهرة فى ذراعيه ورجليه يوميا عند حمّام السباحة. دو – أسكوبار أيضا هائل القوة والوحشيّة لدرجة تُعسّر التنبؤ بالفائز. الغريب أن تسمع يونّى وهو يفيض فى حديثه عن إمكانيات يابه ودو–أسكوبار، وترى

www.ibtesama.com/vb

فى الوقت نفسه ذراعيه الصغيرين مثل أذرع الأطفال، التى لا يمكنه أن يوجّه بها ضربة أو يردها. أما أنا، فقد كنت أبعد ما أكون عن أن أصرف نفسى عن حضور ذلك العراك، لأن ذلك سوف يثير السخرية، كما أنه حدث وشيك الوقوع، وَجَبَ علىّ الذهاب ورؤية كل شىء، لأنهم سبق أن وأخبرونى به، إنه نوع من الشعور بالواجب، قد وقع فى صراع مع مشاعر الامتعاض، بالأحرى مع الجفول والحياء، أى أن يتشجّع مَنْ هو غير شغوف بالعراك وقليل الشجاعة مثلى، ويحضر مسرح أحداث مفاخر الشجاعة؛ مع التوجّس العصبى من صدمات سوف تصيبنى بها مشاهدة معركة مريرة، جادة تصل للفصل بين الحياة والموت؛ مع الخوف البسيط من أن أقوم، مجهدًا منهكًا، بتكليف نفسى بما يعارض طبيعتى النفسيّة، أى الخوف من الاضطرار إلى أن أثبت لنفسى أننى صبى شجاع، وهذا الإثبات هو أبغض ما لدىّ. لكننى من ناحية أخرى لم أجد بُدًا من أن أحل نفسى محل يابه أو دو – أسكوبار، وأشعر بما افترضت وجوده لديهما من أحاسيس مهلكة. تصوّرت أنى لقيت الإهانة وإعلان التحدى فى حديقة الحمّامات المعدنية، وطويت فى صدرى وفعلت مثلهما، آخذًا أناقة الظهور فى الاعتبار، وأخفيت رغبتى فى توجيه لكمات متلاحقة. كما شعرت بوضعهما الثائر فى ليلة وجب عليهما قضاؤها مع الكراهية

www.ibtesama.com/vb

المتوهجة ونفاذ الصبر وحب الانتقام. ثم وصلت لحد أقصى قهر كل الخوف. ووضعت فى مخيلتى أننى أواجه عدوًا متوحشًا، وقد تملّكنى غضب أعمى مُستعر، ووجهت له بكل قوتى ضربة فى فمه البغيض، أسقطت كل أسنانه، ثم تلقّيت منه ركلة بهيميّة فى بطنى وسقطت فى دمى، الآن استيقظت من خيالى وعدت للأعصاب الهادئة، ووضعت فوق رأسى كمّادة ثلج متمثلة فى تأنيب ذاتى رقيق ... المهم، عندما حلّت الساعة الثانية عشرة، وقمنا لنرتدى ملابسنا، كاد القلق ينهك قوتى، فى مكان خلع الملابس وبعد خروجنا منه خفق قلبى كأننى سوف أقوم بالعراك مع يابه أو دو – أسكوبار بعسر على الملأ.

أذكر أننا، نحن الثلاثة، نزلنا الحسر الخشبى المتأرجح، والمُتصاعد تدريجيًا من الشاطئ إلى حوض السباحة. تحنجلنا بالطبع حتى يتأرجح بنا الكوبرى، ويقفز بنا لأعلى، بقدر المستطاع، كأننا فى منط. بعد نزولنا لم نسر فى طريق الجسر الخشبى المؤدى إلى الشاطئ عبر الأكشاك وكراسيها المصنوعة من الأغصان المجدولة، بل اتجهنا نحو المدينة، تقريبًا على يسار فندق الحمّامات المعدنية. ألقت الشمس بحرارتها الحارقة على الكثبان الرمليّة، لتدفع من الأرض الجافة بوصًا وأشواكًا نفذت إلى أقدامنا وملأت المكان بشذاها الساخن الجاف. لم نسمع هناك سوى طنين لا ينقطع من ذباب ذى لون أزرق معدنى،

www.ibtesama.com/vb

يقف دون حركة تقريبًا عندما تشتد الحرارة، ويقفز من مكان لآخر ليواصل صياحًا حاد الصوت رتيب. تناوبت مع براتشتروم رفع أغطية رءوسنا للتهوية وتجفيف العرق كان يرتدى قلنسوة الملاّحين السويديين ذات الرفرف المشمّع البارز، وكان لدىّ كاب صوف مستدير من جزيرة هلجولندر فى بحر الشمال، التى يطلقون عليها اسم "التَاميّة"(٤). لكن يونّى لم يعانِ بشدة من الحر مثلنا، بسبب نحافته وأيضا ملابسه الصيفيّة الأكثر أناقة وتتناسب مع الصيف من مثيلتها لدينا. كان يرتدى بدلة بحّارة من قماش مقلّم، لا تغطى بطن الساق ولا الرقبة؛ وقلنسوة ذات أشرطة منقوشة بحروف إنجليزية على قمتها الصغيرة الجميلة. أمّا حذاء قدميه الطويلتين النحيفتين فهو نصف قصير، من الجلد الأبيض دون كعب تقريبًا. سار، وقد تقوست ركبتاه، بخطوات تزداد سرعتها واتساعها، بيننا، وغنّى بنبرة ظريفة يا صيّادة! يا صغيرة!، تلك الطقطوقة الرائجة حينئذٍ بين الناس؛ لكنه غنّاها بتغيرات لفظيّة بذيئة، ابتدعها بعض من الشباب، الذين سبقوا عمرهم بذهنهم. وهكذا كان يونّى؛ يعرف أمورا شتّى بسذاجة، ولا يؤذيه مطلقًا ترديدها. لكنه جلس بعد ذلك قاطبًا جبينه، متظاهرًا بالجد قائلاً:

يا للعار! مُنْ يردد مثل هذه الأغانى الخليعة!

www.ibtesama.com/vb

قالها كأننا نحن الذين أهنا "الصيادة الصغيرة" بتلك الخلاعة الفاحشة.

لم أجد بداخلى أى رغبة فى الغناء، عند اقترابنا من مكان اللقاء والبلاء. تقدمنا حيث نجيل الرمال الحاد والطحلب الرملى فى أرض عجفاء، يطلقون عليها اسم "المساحة المضيئة"، بعد الفنار الأخضر المستدير المرتفع بعيدًا فى اليسار، ها نحن أولاء قد وصلنا فجأة إلى الهدف.

مكان دافئ وهادئ، نادرًا ما يمر به أحد، وقد توارى خلف شجيرات المراعى. فى ميدان فارغ وسط تلك الشجيرات جلسنا وتعسكرت مجموعة من الشباب على هيئة دائرة وكأنهم حواجز بشريّة. جميعهم أكبر منّا سنًا ومن طبقات اجتماعية مختلفة. كان واضحًا أننا آخر الحاضرين، الذين صاروا لا ينتظرون سوى وصول مُعلّم الراقصين كناك ليشارك بوصفه حكمًا محايدًا فى العراك. كل من يابه ودو – أسكوبار كانا فى الميدان، وسرعان ما بدأت أراقبهما بعينىّ. جلس كل منهما بعيدًا عن الآخر وسط دائرته، كأن كلاً منهما لا يرى الآخر. بعد أن حيينّا بعض معارفنا بهزة رأس صامتة، طوى كل منّا ساقيه وجلس على الأرض الدافئة.

www.ibtesama.com/vb

تصاعد دخان سجائر الحاضرين، أما يابه ودو – أسكوبار فقد وضع كل منهما سيجارته فى زاوية فمه لترمش عيناه من الدخان ويغلق إحداهما، مبديًا تعجرفه بجلوسه وتدخينه، معلنًا عدم تخوفه من العراك المنتظر. كلاهما ظهر بالرداء الفاخر، إلاّ أن دو – أسكوبار فاق يابه كثيرًا باجتماعيته ولباقته. كما ارتدى حذاء أصفر مدببًا وقميصًا ورديًا ذا أساور، وكرافتة ملونة، وقبعة قش مستديرة ذات أطراف ضعيفة، جذبها للخلف على قمة رأسه حتى ظهرت ربوة شعره الأسود اللامع المدهون بالفازلين، التى سرّحها بميل فوق جبهته. رفع أحيانا يده وأشار بها ليظهر سواره الفضّى ثم يعيدها تحت أساور قميصه. أقل أناقة بوجه عام بدا يابه بسيقانه المحشورة فى بنطلون ضيّق، ذى لون أفتح من الجاكتة والصديرى، وأمسكته حمّالته السوداء. كبست جبهته طاقية رياضية مربّعات، على العكس من دو– أسكوبار، وغطّت شعره الأشقر الأجعد. جلس القرفصاء وأحاط ركبتيه بذراعيه، مما أوضح إلينا أولاً أنه شمّر أكمام قميصه، وثانيًا أن أصابعه المتشابكة تدل على أنه يقص أظافره بشدة أو أنه يمارس رذيلة قرض الأظافر. لقد اتسمت حالة دائرة الحاضرين، على الرغم من تدخينهم الماجن، بجديتهم وارتباكهم وصمت غالبيتهم. لم يخرج عن هذا سوى دو – أسكوبار فى حديثه مع مَنْ حوله بصوت عالٍ مستعر ولسان حوّل راءه إلى

www.ibtesama.com/vb

غاء، مخرجًا الدخّان من أنفه. نفّرتنى منه حذلقته، مثلما نفرنى من يابه، ذى الأظافر القصيرة، كلامه من آونة لأخرى ببعض من الازدراء، وتأمّله دخان سيجارته لإظهار بروده التام.

جاء كناك مرتديًا بدلة الصباح المقلّمة والمائلة للزرقة، ذات النسيج الصوفى الرقيق(٥)، قادما بخطوات سريعة من طريق فندق الحمّامات المعدنية، رافعًا قبعته القش، حتى وصل ووقف خارج مجموعتنا. لم أعتقد فقط أنه لم يأت عن طيب خاطر، بل إننى أيضا على يقين أنه تجرّع كأسًا مُرًا بحضوره هذا العراك؛ إلاّ أن موقفه، المتمثّل فى علاقته الحرجة بالشابين المتشاجرين تحت ظل الرجولة، قد أرغمه على ذلك. ها هو ذا كناك الأسمر، الجميل، السمين (سمين خصوصًا عند خاصرته)، الذى يقوم فى الشتاء بتدريس الرقص واللّياقة والذوق فى نطاق العائلات، وأيضا النوادى الخاصة، كما يتكفّل فى الصيف بتنظيم الحفلات ووكالة الحمّامات المعدنيّة فى ترافاموندا. عيونه المعبّرة عن إعجابه بنفسه، ومشيته المتموّجة بانسجام، وإنزاله طرف قدمه بعناية على الأرض أولاً ثم إتباعه بباقيها، وطريقة كلامه المدروسة والمعبرة عن الغرور، وثقته فى ظهوره المسرحى، وتأكده الشديد الواضح من نهجه، جعلوه فتنة للجنس اللطيف، وموضوعًا للشك فى عالم الرجال، خاصة لدى المراهقين الناقدين. كثيرًا ما أمعنت الفكر فى مستوى فرانسوا

www.ibtesama.com/vb

كناك فى المجتمع، ووجدته دائما غريبًا وعجيبًا. ابن بيت فقير، يرفعه مجرد انشغاله بحياة الطبقة الراقية إلى السماء، دون انتمائه لهذه الطبقة، يدفع له أهلها مالاً ليرعى مثالية اللياقة والذوق لديهم ويُدرِّسها. يابه ودو – أسكوبار أصبحا أيضا من تلاميذه؛ ليس فى درس خاص كما هى الحال على سبيل المثال مع يونّى وبراتشتروم ومعى، لكن فى درس عملى بالنوادى الخاصة؛ هذا ما وضع السيد كناك هنا تحت أصعب اختيار لكونه وجوهره (على هذا نكون نحن أكثر لطفًا به فى دروسنا) شاب يعلّم تلاميذه صحبة الفتيات الصغيرات بلطف ورقّة، شاب راجت عنه شائعة أنه يرتدى مَشَدًا، شاب يمسك جاكتته بأطراف أصابعه، ويبدو جادًا، ثم يؤدى وثباته ويقفز فجأة عاليًا ويدور بأقدامه فى الهواء ثم يهبط بمرونة على الباركيه محدثًا صوتًا رقيقًا. هل يأتى شاب بكل هذا؟ ليس هذا فقط ما يدفع إلى الارتياب فى شخصية وكينونة السيد كناك، بل أيضا ثقته واتزانه المتجاوزان الحد. أمر مهم أن نعود لسنوات سالفة فى عمره (بصورة فكاهية)، حيث نجد زوجته وأولاده فى هامبورج. كونه فتى يافعًا، وتواجده الدائم فى صالة الرقص فقط، يدفعان عنه إثبات الاتهام والفضيحة. هل لعب الجمباز؟ هل استطاع ذلك فى أى وقت؟ هل لديه شجاعة؟ هل لديه قوة؟ باختصار، هل يمكن اعتباره من الأعيان؟ إنه لم يتعرّض لما يتطلّب منه إثبات سماته

www.ibtesama.com/vb

العفيفة، التى يجب أن تكون ميزان تقييم لما لديه من مهارات الصالون، حتى تحقق له الاحترام. لكن هناك شبابًا يجولون ويعلنون أنه قرد جبان. ويبدو أنه يعلم هذا، مما دفعه للمجيء اليوم لإعلان اهتمامه بتدبير مثل هذا العراك، وأيضا انتماؤه لهؤلاء الشباب، على الرغم من أنه كوكيل للحمّامات المعدنية لا يجوز له قبول مثل هذه المسائل الشرفية غير المعترف بها. لكننى على يقين أنه لم يشعر بالارتياح لهذا الموضوع، كما أدرك أنه ألقى بنفسه فيه. راقبه بعض الحاضرين بنظراتهم الباردة، وهو يقلّب بصره فيمن حوله، ليرى إن كان هناك أناس آخرون قادمون.

اعتذر بأدب عن تأخيره. قال إن محادثاته مع المدير بشان حفل مساء السبت قد أبطأته، وسأل بجديّة: هل حضر المتعاركان؟ ثم أجابته عيناه فقال: نستطيع أن نبدأ إذًا! وقف خارج دائرتنا متكئًا على عصاه، وقد شبك قدميه وأمسك شاربه الناعم البنّى بشفته السفلى، ملقيًا نظرة متجهّمة.

قام يابه ودو – أسكوبار، وألقى كل منهما سيجارته وبدأ الاستعداد للعراك. فعلها دو – أسكوبار بسرعة رائعة؛ ألقى القبعة، والجاكتة، والصديرى على الأرض، وفك أيضا الكرافتة،

www.ibtesama.com/vb

وأزرار الياقة، والحمّالة، ثم زاد بهم ملقياته. أخرج بعد ذلك قميصه الأحمر ذا الأساور من البنطلون، ورفع الأكمام بنشاط، ووقف بصديرى تريكو ذى خرز واسعة، مُقلّم أبيض وأحمر، وكشف ذراعيه، من المنتصف حتى العضد، ليرينا لونها الأبيض وشعرها الأسود. ثم تقدم مسرعًا بصدر مشدود، محركًا كتفيه ومعصميه، إلى وسط الميدان، وقال برائه ذات رنين الغاء:

أرجوك السرعة، يا سيدى! ... ما زال مرتديًا سواره الفضّى.

لم يكن يابه قد أنهى استعداده بعد، أدار رأسه على غريمه ناظرًا إليه لحظة وقد توجهت عيناه ذاتا الجفون شبه المغلقة إلى حذائه، وكأنه أراد أن يقول: "انتظر يا أنيق! إننى قادم دون سخافاتك الاستعراضية". على الرغم من أن أكتافه أعرض بكثير، ظهر عن بُعد، عند قيامه للمواجهة، غير متأنّق أو مستعد للعراك مثل دو – أسكوبار. بنطلونه ذو حمّالة، بداخله ساقاه على شكل حرف إكس، وتحت تلك الحمّالة الرمادية قميص ناعم هائل الاصفرار، ذو كُمّين واسعين بأساور ذات زراير مغلقة حول معصميه. على حين يدل التريكو ذو الخرز الواسعة، وشعر ذراعيه الأسود على خطورة دو – أسكوبار واستعداده للعراك. ظهرا شاحبى اللون، لكن بصورة أوضح لدى يابه، لأنه يبدو عادةً مورّد الوجنتين، بوجهه الأشقر ذى العافية

www.ibtesama.com/vb

والوحشيّة البهيمية، وأنفه الأفطس، الذى يكسوه النمش. على العكس من ذلك يبدو أنف دو – أسكوبار قصيرة مستقيمة منخفضة، ويظهر شارب خفيف فوق شفتيه الغليظتين.

وقفا وجهًا لوجه، وقد قوّص كل منهما ذراعيه ناظرًا إلى أعلى بطن الخصم[٦]بتعبير وجه عابسٍ منذرٍ. لكن اتضح أن كلاً منهما لا يعرف كيف يبدأ مع الآخر، وهذا ما كنت أتوقعه. حيث مضت ليلة ونصف نهار على تصادمهما، وتوفّر الوقت حتى يصيب البرود رغبتهما فى العراك، التى كانت مشتعلة بالأمس ولم يكبح جماحها سوى روح الفروسية. عليهما الآن، في ساعة محددة وتحت قيادة ما، بعد أن هدأ غضبهما، وأمام جمهور أيضا، أن يقوما بما كان لديهما بالأمس من دافع شديد له. آخر الأمر أنهما صارا الآن اثنين من الشباب المؤدب، وليس من مقاتلى العصور القديمة. إن التعقّل الهادئ يؤدى إلى خجل إنسانى من الإتيان على الجسد الصحيح بضربات قاتلة. هذا ما تصورته، وقد كان بالفعل.

نتيجة حتمية وقوع هذا الحدث شبه الشرفى بينهما، بدأ المتعاركان، ودفع كل منهما الآخر في صدره بأنامله، وكأنها استهانة متبادلة، وإظهار القدرة على طرح الخصم أرضًا ببساطة، وإعلان الهدف الواضح؛ ألا وهو التحدّى. لكن فى هذه

www.ibtesama.com/vb

اللحظة، بعد أن بدأ تقلّص وجه يابه، أنهى دو – أسكوبار فترة ما قبل الاشتباك.

قال: لا تؤاخذنى يا سيدى! وتقهقر خطوتين وأدار لهم ظهره. السبب فى ذلك أنه أراد تثبيت أبزيم بنطلونه؛ فقد خلع الحمّالة، ونتيجة وسطه النحيل، بدأ بنطلونه ينزلق. بعد انتهائه من ذلك ، عاد كأنه يقلّد سيفه من جديد، وقال بصوت حنكى ذى صلصلة بالإسبانية ما لم يفهمه أحد، لكن لعلّه يعنى، أنه على استعداد، ثم عاد وشد منكبيه متقدمًا للأمام. الواضح أنه أفرط فى الإعجاب بنفسه.

بدأت لكمات مناوشة بالكتفين والكفين من الأمام. لكن، دون أى انتظار، انفجر فجأة اشتباك قصير أعمى بين الأيدى، وتصادم مائج بين القبضات، استمر ثلاث ثوان ثم توقّف فجأة.

"الآن بدأ العراك."، قالها يونّى الجالس بجوارى، واضعًا عود حشيش يابس فى فمه، ثم أضاف:" أراهنكم أن يابه سوف يقهره. دو – أسكوبار مدبّر ماهر. انظروا! لقد مالت عيناه إلى غريمه! مازال يابه على ما هو عليه. نتراهن أنه سيضربه بقوة؟

ارتد الخصمان، كلٌ عن الآخر، وقد تعالت أنفاسهما، واضعين الأيدى على الخواصر. بلا شك تعرّض كلاهما للإيذاء، لأن الغضب ظهر على وجهيهما، وأبرز كل منهما

www.ibtesama.com/vb

شفتيه معبرًا عن غيظه، وكأن كلاً منهما أراد أن يقول: "أتجرؤ ويأتينى منك ما يؤلمنى!" تجلّت عيون يابه الحمراء، وأظهر دو – أسكوبار أسنانه البيضاء كأنها تريد الانقضاض على الخصم.

يتبادلان الآن بكل قوتهما ضربات متقطعة فى الأكتاف والسواعد والصدر. قال يونّي بلكنته المحببة: " كل هذا لا شىء. لن يكسر أحدهما شوكة الآخر. لابد أن يتلاكما في الذقن والفك. وهذا يكفي. " لكن في هذه الأثناء رأينا دو – أسكوبار قد قبض بيساره على ذراعى يابه وضمّهما إلى صدره، وكأنه وضعهما فى اِلمنْجَلة(٧)، ثم انهالت قبضة يمينه بلكمات فى جنب يابه دون انقطاع.

نشأت حركة كبيرة بين الحاضرين، وانتفض كثيرون واقفين، يرددون: لا تقيده! أسرع السيد كناك ودخل مذعورًا دائرة العراك وهتف: لا تقيده! أنت تقيده يا سيدى! هذا يخالف القواعد. ثم فصل بينهما، وأفاد دو – أسكوبار مرة أخرى بأن التقييد ممنوع فى العراك منعًا باتًا، ثم أسرع بالخروج من الدائرة.

اغتاظ يابه، وأخذ يدلّك جنبه ممتقعًا، بينما اتجه بصره نحو دو – أسكوبار مصحوبًا بهزات رأس بطيئة ومشحونة بالنَذْر بالخطر. على عجل بدأ جولة عراك جديدة، وقد أعلن

www.ibtesama.com/vb

تعبير وجهه عن قرار جعل كل الحاضرين يتوقعون منه أفعال حاسمة.

بالفعل، ما إن بدأت الجولة الجديدة، حتى وجه يابه ضربة مصيبة بحيلة بارعة، على ما يبدو أنه ابتكرها. وجّه لكمة وهميّة بيسراه إلى أعلى، مما جعل دو – أسكوبار يحمى وجهه؛ لكن فور ما فعلها، وجه يابه ضربة أخرى عنيفة بيمينه فى بطن دو – أسكوبار، جعلته يتلوى، وأصابت وجهه باصفرار متزايد.

قال يونّى: أجلسته الضربة وآلمته. لعلّه يخطط الآن بجديّة للانتقام ... إنها ضربة بطن شديدة، أصابت دو – أسكوبار وأفقدته أعصابه بشكل ملحوظ. أصبح من الملاحظ أنه لم يعد يستطيع أن يحكم قبضته ليواصل العراك، كما أعطت عيناه انطباعًا بأنه لم يعد فى وعيه. لكن شعوره بأن قواه قد خذلته، لم يصرفه عن إعجابه بنفسه، بل جعله يبدأ تمثيل دور أحد أبناء الجنوب المتحركين، الذى يداعب الدب الألمانى بشطارة، ويدفع به إلى اليأس. تبختر بخطوات قصيرة ليدور بلا داعٍ حول يابه، محاولاً الابتسام بغرور، مما جعل حالته تترك أثرًا عميقًا فى نفسى. إلاّ أن يابه لم ييأس، بل استدار على كعبه ملاحقًا دو – أسكوبار ومستقبلاً هجماته الضعيفة بيمينه ثم أنزل به ضربة بيساره. الآن ظهر ما جعل مصير دو – أسكوبار محتومًا، حيث بدأ انزلاق بنطلونه، ليندفع الصديرى لأعلى حتى تعرّى جزء

www.ibtesama.com/vb

من مؤخرته البيضاء، وانطلق ضحك بعض الحاضرين. لماذا خلع حمّالته! كان عليه أن يدع أسباب الجمال جانبًا. البنطلون يشغله الآن، وربما شغله طوال العراك. أراد دائما أن يسحبه لأعلى ويُدْخل به الصديرى، لأنه على الرغم من حالته السيئة لم يتحمّل أن يخل بأناقته. وهذا ما جعله يعارك بيدٍ ويحاول أن يعدل زينته بالأخرى، مما جعل يابه يوجه تلك الضربة إلى أنفه، التى أتعجب حتى الآن لعدم انكسارها التام.

تدفق دم دو – أسكوبار، فأدبر يابه ظهره، وحاول أن يوقف نزيفه بيمينه، وأعطى إشارة ذات مغزى بيساره إلى الخلف. وقف يابه، وقد انفرجت ساقاه القائمتان على شكل حرف إكس، وانقبضت يداه، منتظرًا عودة دو – أسكوبار. لكن لم يعد دو – أسكوبار للعراك، موحيًا إلينا أنه أكثر المتعاركين تحضرًا، وأن الوقت قد حان لإنهاء هذا الصراع. كان فى الإمكان أن يواصل يابه عراكه دون أدنى شك مع الخصم ذى الأنف الدامية؛ إلاّ أن دو – أسكوبار منعته حالته من المشاركة، بإصرار أكثر الآن، لأنه ينزف دمًا. ساعده أحد الحاضرين وأزال الدم من أنفه، وا أسفاه! لم يعتقد قط أن الأمر سيصل إلى هذا الحد. سال دمه من بين أصابعه على ردائه، وقطرات منه أصابت بنطلونه ثم حذاءه الأصفر. تبًا لذلك! لا شىء أمامه سوى أن يعلن لا إنسانية مواصلة العراك. وجد نداؤه قبول

www.ibtesama.com/vb

غالب الحاضرين، ودخل السيد كناك الدائرة ليعلن نهاية العراك قائلاً: يكفينا هذا شرفًا، لقد استمر كلاهما فى المقاومة على خير الوجوه. هكذا بدا على صاحبنا شعوره بالارتياح لأنه أنهى الأزمة دون ضرر بالغ. قال يونّى مندهشًا، وقد خاب أمله: "لم يسقط أحدهما على الأرض." لم يرفض يابه إنهاء العراك، بل عاد إلى ملابسه متنفسًا الصعداء. وجد التعادل الافتراضى نتيجة للعراك، أعلنها السيد كناك بلباقته، قبولاً عامًا.

وتلقّى يابه تهنئة خفيّة؛ بينما أعطى آخرون دو- أسكوبار مناديلهم، فسرعان ما تشبّع منديله بالدم. المضحك أننا سمعنا مَنْ يقول: هيّا ! ليتعارك الآن اثنان آخران!

انتهى الأمر بما يرضى الجميع، ولم يستغرق عقد الاتفاق بين يابه ودو- أسكوبار وقتًا طويلاً؛ عشر دقائق تقريبًا. ماذا يفعل الحاضرون إذًا؟ مازال لديهم وقت، لابد أن يقوموا فيه بشىء!

ليأتِ اثنان إلى الميدان! ليأت مَنْ يريد إثبات رجولته!

لم يتقدم أحد. لكن لماذا بعد أن سمعت هذا النداء، أتى قلبى بدقّات طبول صغيرة؟ لقد حدث ما كنت أخشاه؛ دارت دائرة العراك على الحاضرين. لكن لماذا أكون الآن هكذا، كأننى سعدت طوال هذه اللحظة بذلك الفزع، ولماذا أجد نفسى مع هذا

www.ibtesama.com/vb

الفزع؟ لقد اندفعت فى دوّامة من المشاعر الممتعضة! ها هو ذا يونى يجلس بجوارى هادئًا دون أدنى تأثّر، واضعًا عود الحشيش اليابس فى فمه، ناظرًا بفضول إلى مَنْ حوله، منتظرًا ظهور اثنين من الأجلاف الأقوياء، يريد كل منهما الاستمتاع بكسر أنف الآخر! لماذا إذًا وجب علىّ - مبتليًا ومضطرًا - أن أدفع نفسى إلى مثل هذا الانفعال الفظيع، وأن أقهر خجلى بجهد خيالى شديد، وأُلفت أنظار من حولى إلىّ بأن أدخل الميدان متحديًا مثل الأبطال؟ فى الحقيقة أننى أوشكت، بسبب الاعتزاز بالنفس أو الاستحياء المفرط، أن أرفع يدى معلنًا رغبتى فى دخول ساحة العراك، لولا أننا سمعنا صوتًا جسورًا ينطلق من بين الحاضرين قائلاً: "هيّا إلى العراك يا سيد كناك!" اتجهت كل العيون إلى السيد كناك. ألم أقل أنه ألقى بنفسه فى امتحان قاسٍ؟

لكنه أجاب:

"أشكرك! نلت ما يكفينى من ضرب العراك فى صباى".

نجا، بعد أن راوغ وخرج خروج الشعرة من العجين. أشار إلى سنوات قد مضت من عمره، حتى يقنع سامعيه بتجنبه عراك الأشراف، ولم يفخر به مطلقًا حتى يطبع كلامه بطابع الحقيقة، وسخر من نفسه بلطف معترفًا باحتمال ما يمكن أن

www.ibtesama.com/vb

يناله من ضرب فى العراك. هكذا كفّ عن نفسه من حوله، مثبتًا صعوبة، وربما استحالة، الإيقاع به.

صاح أحدهم : "هيّا! لنوقع به أرضًا!" إلاّ أن هذا النداء لم يجد تحبيذًا، بل إن دو – أسكوبار دخل تلك المداولة بمنديله الدامى وصوته الإسبانى المبحوح (لن أنسى ما أعطانى هذا من انطباع مخزٍ) قائلاً: "انتهى العراك. العراك فعلة الألمان!" فظاظة صارخة، سرعان ما وجدت رفضًا خشنًا تستحقه، حيث رد عليه السيد كناك ببلاغة قائلاً: "يجوز، لكن يبدو أيضًا أن الألمان قد أعطوا الإسبان علقة بارعة إلى حد ما." أيّده الحاضرون بالقهقهة، بل ثبّت قوله إقدامه لديهم منذ ذلك الحين، بينما فقد دو – أسكوبار مكانته بصورة نهائية.

عن إن كان الملل زهد أو قل من العراك، دار بينهم الحوار، الذى سرعان ما نقلهم لألعاب الجمباز حتى يمر الوقت؛ قفز الحصان الخشبى فوق الظهور، والوقوف على الرأس، والسير على اليدين، وما إلى ذلك. وقف يونّى وقال لى ولبراتشتروم: "لنذهب الآن، هيّا بنا!" ها هو ذا يونّى بيشوب، جاء ليشاهد وقوع ما قالوا إنه سينتهى بالدم. لكن الأمر تحوّل إلى لعب. لذلك قرر الرحيل.

www.ibtesama.com/vb

هكذا ترك يونّى فى نفسى الانطباعات الأولى عن حصافة واتزان شخصيته الإنجليزية، التى عرفتها فيما بعد وازداد إعجابى بها.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش :

(١) مرسى ترافاموندا يتبع ميناء لوبيك فى شمال ألمانيا قرب البلطيق، وتربطه قناة بالألب. عاصمة رابطة المدن التجارية هانزا. وهى وطن الروائى الألمانى توماس مان.

(٢) "بلغمى": أى أنه يتميز بالبرودة، وهى إحدى الطبائع الأربع عند الأقدمين؛ الحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة.

(٣) المقصود أنه تكلّف اللثغ، أى أنه حوّل لسانه من حرف إلى حرف غيره، كأن يجعل السين ثاء، أو الراء غينًا.

(٤) التَاميّة: قلنسوة صوف من جزيرة هلجولندر فى بحر الشمال.

(٥) هذا النسيج الصوفى الرقيق يحمل اسم "الفلانيلّة".

(٦) ذلك الجزء من البطن، الواقع فوق المعدة، هو المنطقة الشرسوفية.

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

تريستان وإيزولدا

مشهوران فى زمانهما ومكانهما، وعنهما أقوال كثيرة تداولتها الألسن[1]؛ السيد "تريستان" ببلاط الملك ماركا فى كورنفال، ابن عم الملك، وابن أخته المتوفاة بلانخفلور؛ والأميرة الأيرلندية "إيزولدا"، ابنة الملك جرومون والملكة إيزوت.

تريستان مثل أعلى للرجال لدى إيزولدا دون أن تراه، وهى لديه تحقيق لأحلامه عن الرقّة والسمو الأنثوى. تتمثل شهرة تريستان فى شجاعته وذكائه وأدبه الرفيع، الذى ورثه عن نسبه إلى آل برتان (والده ريمالين فون بارمنين أتى من بلاط فى تينتاجول؛ وامتازت سيرة حبه لبلانخفلور بالتراجيدية). لم يكن فقط أجمل الشباب وألطفهم، وقائد جيش ذا دهاء، قدّم لعمه خدمات عسكريّة عديدة وكبيرة، وفارسًا بارعًا. ظهرت بطولته فى العديد من المعارك والمغامرات، بل أيضا أكثر رجال عصره أدبًا وثقافة، راسخ القدم فى اللغات والغنائيّات، والعديد من الفنون، ذو فكر سياسى وليس محاربًا فحسب. أما إيزولدا الفاتنة الشقراء، ذات الفضائل الروحانية المتميزة (ورثت عن أمها أسرار التطبيب)، فلم يستطع الرحّالة، الذين جالوا فى أيرلندا وعاصمتها دوبلن، أن يعطوها ما تستحق من فخر وتباه.

www.ibtesama.com/vb

هكذا حمل كل منهما صورة للآخر فى قلبه، وتلاقت الأفكار عن بُعد. (الصورة الأوليّة!)

أمّا أن يستطيع كل منهما أن يجد الآخر، فقد كان من المحال،لأن الخصومة قائمة بين أيرلندا وكورنفال. تكررت حروبهما لأسباب مختلفة، وتدفقت سيول الدماء، فتضخّمت الكراهة بينهما، حتى وصلت ذروتها فى أيرلندا التى أصدرت قانونًا يقضى بقتل أى رجل يحاول دخولها من كورنفال.

فى تينتاجول، قلعة الملك ماركا، تمثّل الوضع فى أن ماركا كان يحب أخيه وجعله وريثًا له، ولذلك عزف عن الزواج. هذا مما جعل تريستان يجد فى البلاط حاسدين كثيرين من كبار البلد والبارونات الذين تآمروا عليه، وألحّوا على ماركا أن يأتى بلاده بملكة ثم بوارث مباشر للعرش. لم يكن تريستان أنانيًا بأى حال من الأحوال، بل متسمًا بوفاء الرجال المطلق لعمه ماركا، مما هداه لفكرة المشاركة فى محاولة الفوز بالأميرة المبجّلة إيزولدا كزوجة لعمه الملك. وقد ارتفعت قيمة هذه الخطة لأهميتها السياسية؛ حيث أراد تريستان أن يصل إلى تحقيق السلام بين البلدين، اللذين تبادلا الإضرار الشديد بسبب الكراهية والحرب. كانت الفكرة جريئة، وبدت أمام الملك غير قابلة للتنفيذ، حين عرضها عليه تريستان. إلاّ أن ماركا احتضنها فى النهاية ليضع حدًا لإلحاح البارونات. وأعلن قبوله الاقتران

www.ibtesama.com/vb

بإيزولدا فقط، وليس بغيرها. وإذا لم يتحقق هذا، فلن يتزوج، وسوف يورّث تريستان العرش.

أراد البارونات أن يحمّلوا تريستان بمفرده عبء المغامرة الخطيرة، وحملوا الملك على أن يرسله وحده إلى أيرلندا (آملين أن يلقى فيها حتفه). رفض الملك غاضبًا وأراد أن يذهبوا دون ابن أخيه. إلاّ أن تريستان اعتبر تلك الرحلة أسمى شرف له، وطلب فقط أن يرافقه بعض البارونات، الذين وافقوا كارهين.

سافروا، وعند اقترابهم من الساحل الأيرلندى، لبس تريستان أحقر رداء وصلت إليه يده، ونزل من البَرْك[٢] إلى قارب حاملاً معه قيثاره[٣]، آمرًا الآخرين بالعودة ليعلنوا أنه لن يعود إلا ومعه إيزولدا. ثم لم يوجه قاربه بل ترك الأمواج تسبح به نحو الشاطئ.

لمح مراقبو ساحل دوبلن قاربًا ضالاً دون قائد، فأرسلوا إليه بعض رجالهم، الذين ما كادوا يقتربون منه حتى سمعوا غناءً وعزف قيثار ساحرين، أطرباهم بدرجة جعلتهم ينصتون دون حراك وينسون دفّة قاربهم ومجاديفه. لكنهم بعد قليل أمسكوا القارب الغريب ووجدوا فيه تريستان، الذى روى لهم من الخيال أنه عازف فى بلاط السراى فى إسبانيا، لكنه انكب على التجارة وانطلق مع صديق غنىّ بسفينة مُحمّلة إلى

www.ibtesama.com/vb

بريطانيا، إلاّ أن القراصنة هجموا عليهم فى عرض البحر، وقتلوا كل مَنْ معه من تجّار وبحّارة، ولم يبقوا إلاّ عليه بسبب أغانيه الجميلة، وأنعموا عليه بإلقائه فى البحر بهذا القارب وبه بعض من الطعام.

نزل الأيرلنديون به إلى البر، بينما كانت إيزولدا وتابعتها برنجنا ونسوة أخريات عائدات من شاطئ الاستحمام. تدفق الشعب إليها، ووصلها خبر ما كان من تريستان، الذى أطلق على نفسه اسم "تانتريس" واستطاع أن يبدوا متهالكًا، فجعلتهم يأتونها به، وأمرته بالغناء والعزف، فأطاع الأمر وأخذ بقلوب الحاضرين بقوله وخُلقه. وسرعان ما أمرت أن يأتوا براكب السفينة الغارقة إلى قلعة الملك، ويدخلوه هناك حجرة صغيرة لينام فيها حتى يسترد قواه.

هكذا دخل تريستان البلاط، وعرف كيف يكسب كل مَنْ حوله بمواهبه وشخصيته. تفوّق على الجميع فى الفكر والأدب والعلم. خاطب إيزولدا بالموسيقى واللّغات، وأطلعها على "الأخلاقيات" والفن والآداب الجميلة، حتى أحب كل منهما الآخر. لكن تريستان رأى هذا الشعور قد جعل فكره ورسالته وواجبه نحو ماركا تغيب عن الوجود، فعندما رأى أن إيزولدا تحبه، أسعده ذلك على ضوء نجاحه فى جعلها تسعد بالذهاب معه إلى كورنفال، مع أن الأمر ذاته سوف يُبَلّغه قمة سعادته.

www.ibtesama.com/vb

أما هى فلم تتصور مطلقًا أن مشاعرها سوف تتجه نحو رجل فقير مجهول، قد ظهر أيضا بطريقة عجيبة عازفًا وتاجرًا يتمتع بسمات السادة.

اعترف لها أخيرًا بحقيقته، وظهرت مشاعر بالغة الاضطراب. عَلِمَتْ أن حبيبها وفتى أحلام صباها هو تريستان، الذى أتى بدهاء ليظفر بها، ليس لنفسه، بل لماركا. لها أن تذهب معه، ولكن ليضعها فى حضن عمّه. تقدّم ، وقد آلمته مشاعره، لخطبتها باسم ماركا واتجاهه السياسى، ونال أخيرًا قبولها. وما وصل الأمر للأسرة المالكة إلاّ وكانت المفاجأة والغضب، تبعهما تفكير وتدبّر، وأخيرًا الموافقة، فاصطحب تريستان إيزولدا متجها إلى كورنفال.

فى الطريق على ظهر السفينة أظهرت علاقتهما الغريبة تداخل المشاعر، إيزولدا بين الحب وكراهية الخداع، وتريستان بين معاناته ووفاء الرجال. لكن الأمر لم يبق على هذه الحال، بل كان ما كان؛ حيث كانت الملكة إيزوت، ذات العلم فى العلاج بالطب السحرى، قد أعدت شرابًا للحُب، ثم وضعته فى وعاء زجاجى، وحفظته لدى برنجنا. وكان على إيزولدا أن تسقيه لماركا فى ليلة الزفاف لتجعل الحب يستشيط لها فى قلبه دائمًا. أصاب النسوة دوار البحر، ورست السفينة فى أحد الموانئ، ونزلت برنجنا مع معظم المسافرين إلى البر. أما الحبيبان فقد

www.ibtesama.com/vb

ظلاّ فى السفينة ومعهما بعض من تابعيهما، حتى أصابهما الظمأ، فطلبا النبيذ من خادمة صغيرة، لم تجد أمامها سوى شراب الحب، الذى بدا لها كأنه نبيذ، فجاءتهما به، وشرباه. ما إن عادت برنجنا وعرفت ما كان، حتى فزعت وأخبرتهما بالمصيبة أنها السبب فيما سيقع من بلاء، لم يعد لها الحق أو القدرة على منعه، لقد صارت لا تستطيع حراسة عذريّة إيزولدا، التى خضعت لحبها بعد تحرره بالشراب (لم يعد الشرف يعيقه) وجعلها تتحرر من كل قيد. ارتبط الحبيبان وعاشا كأنهما زوجان طوال ما بقى من رحلة السفينة، تلك الحالة التى صارت لهما رهيبة، تذهب بالعقول.

استقبلهما ماركا بحفاوة كبيرة فى كورنفال، وتم الاحتفال بالزفاف، وفى الليل استطاعت برنجنا، ذات الشعور بالذنب، أن تدبّر أمرهما، فشغلت مكان إيزولدا أمام الملك لخدمته، وبعد أن جاء تريستان، كأنه النبيذ المعتاد، عادت إيزولدا وقضى ماركا معها الليل.

هكذا أدىّ السماح لتريستان بزيارة إيزولدا إلى استمرار خداعهما لماركا، الذى لم يشك فيهما مطلقًا. إلاّ أن أحد مُبجّليها، وهو ماريودو كبير الأمناء فى البلاط الملكي، قد تبيّن له سبب هنائها المشئوم. كان يبيت مع تريستان، الذى طالما استرق الخطى ليلاً إلى خِدر الحريم. فى ليلة ساور الشك ماريودو فتتبع

www.ibtesama.com/vb

تريستان، واقتفى أثر خطواته على الجليد، واسترق السمع، وعلى الرغم من أن برنجنا حجبت الضوء بلوحة الشطرنج، استطاع أن يرى تريستان والملكة معًا فى الفراش! أى ألم وغضب! لكنه لم يقل للملك إنه رآهما بل أثار قلقه وواصل مراقبته المشددة لهما.

شعر ماركا بالشك والعذاب، لأن الأمر يتعلق بامرأة معروفة بعفتها، وبأقرب أصدقائه إلى قلبه. كما لم يدع ماريودو ارتيابه يهدأ، بل شاركه فى القيام بتكليف قزم من بلاد الغال القديمة، يُدعى ميلوت، بترقبهما. ثم أصدر القرار بمنع تريستان من دخول خِدر الحريم.

لم يخف عن ماركا أن فراق الحبيبين جعل الغم يضنيهما، فأعلن خروجه للصيد عشرين يومًا، إلاّ أن تريستان تخلّف عن الرحلة بسبب مرضه. نصحت برنجنا الحبيبين بوريقات شجرة الزيتون، فأطاعاها وتقابلا تحت الشجرة، حيث استرق القزم السمع إليهما، ودون أن يتأكد من صوت الملكة، تصوّر بدهائه أنه لقاء غرام بين تريستان وإيزولدا، وذهب بالخبر.

وصل ميلوت بجواده إلى الملك، وأتى به إلى شجرة الزيتون عند البئر، ليراهما عند الشجرة. تريستان وإيزولدا يجلسان، ويتأملان، ويتسامران ببراءة جعلت ماركا يصدقهما

www.ibtesama.com/vb

ويلقي بالقزم ميلوت فى مجرى الماء، ويعود للحبيبين وصالهما الحر من جديد.

اجتهد ماريودو وميلوت حتى عادا بماركا إلى الشك من جديد، ولم يوقفا الشائعات.

فأمعن ماركا فكره ليصل أخيرًا إلى الرجوع للحكم الإلهى (دفع إيزولدا لقبول الحكم الإلهى فى أمرها، اعتمادًا على ثقتها فى عدل حساب الرب) . طلبت أن يرافقها تريستان فى سيرها حتى ساحة الحكم لإلهى المقدّس كارليوم، وحددت معه كيفية ظهورهما (يلف ذراعه حولها)، عند إلقائهما القسم معًا فى وقت واحد. وإذا بيدها تمسك السيف المتوهج دون أن تصاب.

النصر! انتصر الحبيبان ولم يفترقا. هذا ما قرأه ماركا فى تعبيرات وجه كليهما، التى عبّرت عن حقيقة مشاعرهما، مما أفقده ثقته فى الحكم الإلهى، ووقع من جديد فى حيرة الشك والغيرة، ولم يعد يتحمّلها، ولم يرد أن يواصل فقدان كرامته بسعادتهما، فطردهما من البلاط.

انتقلا إلى أرض مقفرة وعاشا فى كهف قديم قد بناه العمالة، بينما ذاب ماركا شوقًا إلى إيزولدا، ولعن صرامته من أجل الشرف، التى منعته من اقتسام الهوى مع تريستان. بحذر تم اكتشاف مكانهما؛ شاهدهما ماركا ودفعه شعوره بالقوادة إلى

www.ibtesama.com/vb

الحزم بسيفه، لكنه عاد من جديد لخداع نفسه،. سمعًا لنصيحة علية القوم عادا إلى القصر، وتوسّل إليهما ماركا أن يتجنبا الظهور معًا فى الوضع السيئ، وأن يعود إليه التمتع بإيزولدا. لقد علم، لكنه أراد ألاّ يعلم، عاش عديم الكرامة مع إيزولدا، التى لم يعد يُعاب عليها الخداع. لكن جاء الصيف وظهر فى الحديقة مشهد الفراش. غلب تريستان وإيزولدا النعاس بعد أن بلغا ذروة متعتهما، ووصل الأمر إلى ماركا. فر تريستان بعد أن أخذ الخاتم من إيزولدا، قبل أن يذهب ماركا بجماعته ليجد الملكة وحدها، ويلقى تأنيب البارونات على تعذيب نفسه، وكذلك تكهنات أشباحه. لكنه لم يقدم على شىء ضد إيزولدا.

هام تريستان على وجهه فى العالم مغامرًا حتى وصل أخيرًا إلى دوقيّة أروندل بين بريتجن[٤]وفرنسا، حيث كان الدوق يوفلين والدوقة كارزى وأبناؤهما كادين وإيزولدا- فيسهاند فى قلعة كاركا، التى استقبلت ضيفها تريستان بحفاوة شديدة. فقد غمرت أهلها السعادة بقدوم الضيف الشهير، الذى سرعان ما صار صديقًا حميمًا. لقى لدى كادين احترام شباب الفروسيّة، أما إيزولدا - فيسهاند، فقد كان لاسمها تأثير عليه كبير، كما جذبته فتنتها الرقيقة، وسرعان ما نشأت بينهما علاقة مرهفة، أسعدت كادين أيضًا. شب الصراع داخل تريستان مع وفائه إلى إيزولدا الأيرلنديّة. الأسماء أدت إلى عمل يدل على عمى العاطفة.

www.ibtesama.com/vb

اختلط الغدر بالوفاء. تمثّل عذر مشاعره فى تصوره أن إيزولدا فى أحضان ماركا (صورة خيال). أحبته إيزولدا – فيسهاند؛ وجاملها هو بالمثل. روى لها وشاركها الغناء والكتابة والقراءة. أشعر قصائد غنائية، وأورد فيها دائما اسم إيزولدا، حتى اعتقد الجميع أنه يقصد إيزولدا – فيسهاند. آخر الأمر احتضنها وقبّلها وخطبها من والديها ليسعدا ويردا بالإيجاب.

تلألأ حفل الزفاف بالولائم ومبارزات الفرسان، حتى زفوا إيزولدا – فيسهاند إلى فِراش العُرس، ونزعوا عن تريستان ملابسه، لكن أثناء تجريده من ثوبه الحرير وقع خاتم إيزولدا الأيرلندية من يده. تأمله طويلاً وجاهد نفسه. لا يصح أن يخدع إيزولدا الشقراء، لكن لا يصح أيضا أن يخل بواجبه الزوجى. أدّى به ارتباك قلبه إلى هذه الحال؛ يكذب على نفسه أكثر مما يكذب عليها؛ يخون إحداهما مع الأخرى. لكنه عاد فى النهاية إلى إيزولدا، وسأل الأخرى الرقيقة صبرًا على ما أصابه من سحر، بأمل أن يشفى منه، فاستسلمت للمقادير عن طيب خاطر، وعاشا معًا أخوين.

بعد حين وقع هجوم على الدوق يوفلين من جيرانه الأقوياء، مما أوقعه فى موقف حرج. فانتهز تريستان الحزين تلك الفرصة ليظفر بالموت. دخل المعركة متحالفًا مع كادين ليحقق النصر بذكائه وشجاعته، واستطاع أن يرُد الأعداء. لكن

www.ibtesama.com/vb

الفرسان عادوا بتريستان مصابًا بسهم مسموم ليرقد فى كاركا بمرض ليس له شفاء. لم يجد وسيلة، سوى أن يأتمن صديقه الشاب المخلص كادين على خاتم إيزولدا، ويرجوه أن يسافر به إلى كورنفال ويطلب من إيزولدا أن تأتى إليه فى أروندل. هى وحدها تستطيع مساعدته، ومن المؤكد أنها ستأتى، لأنها تحب تريستان. ليرتحل كادين كأنه تاجر حرير، ويطلع الملكة على الخاتم سرًا، ويقسم لها أن ريستان لم يحب أو يلمس سواها، وأنه يُذكّرها بمتعة وعذاب ما قضياه معًا فى زمن قد مضى. أما حب أخت كادين لتريستان فقد أبقاها معه فى خدمته. لكنه سأل أخاها ألاّ يبوح لها بشىء، ويخبرها أن هدف رحلته هو الإتيان بطبيب أجنبى. وكن عليه أن يبحر بسفينة تريستان ذات الشراعين، وإن عاد بإيزولدا أن يشد الشراع الأبيض، وإن عاد بدونها يشد الأسود. وعده كادين بكل شىء، وفاءً له وإدراكًا لحبه.

دار حوارهما هذا بعد أن أمر تريستان بخروج إيزولدا- فيسهاند وكل من عداها من حجرته، إلاّ أنها استرقت السمع من وراء الحائط المجاور لفراشه. الآن علمت سبب عدم تحقيق السعادة فى حياتها، وتحولت رقّة الهرَّة إلى نفخ استعدادًا للحرب، وقررت الانتقام، لكنها ظلّت تتظاهر أمام تريستان بالحب والولاء.

www.ibtesama.com/vb

وصل كادين إلى كورنفال ونزل بلاط الملك ببضائعه من أقمشة وصقور وحُلى من ذهب. ثم دخل القلعة ووصل إلى الملكة وأطلعها على أجمل ما حمله. فما رأت إيزولدا الخاتم حتى اصفرّ وجهها، وأخذت البائع جانبًا ليطلعها على كل شيء. وسرعان ما تحدثت مضطربة مع برنجنا، التى دبّرت أحد الأبواب ليلاً دون حراسة، فخرجت منه إيزولدا مع كادين إلى السفينة، ليشجعهما الطقس الجيد ويفتحا الشراع الأبيض.

تحرّق تريستان شوقًا، حيث أرسل كل ساعة مراقبيه ليتطلّعوا بأعينهم إلى السفينة، كما أراد أن ينقلوه إلى البحر، إلا أن خوفه من رؤية الشراع الأسود، عاد به إلى حجرته، ليأتيه النبأ من الآخرين. وإذا بإيزولدا – فيسهاند تدخل عليه بمكرها لتبشره بظهور الشراع الأسود فى الأفق، فمات يائسًا.

عويل هائل. سادة وخدم يضعون الجثمان على نعشه البهى. وتأتى إيزولدا لتصل لآذانها صيحات الأسى من كل الحارات، ونواقيس الجُنّاز من صغير الكنائس وكبيرها. سَألت– وأجابتها عجوز بأن تريستان قد مات. جمدت دموعها، وتقدمت مرافقيها بخطوات نحو القصر، ليندهش الناظرون لألمها وجمالها. اتجهت نحو تريستان الراقد تحت أضواء الشموع، احتوته بذراعيها وقبّلته ثم تهالكت إلى الأرض أمام نعش فؤادها الكسير.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش:

(١) "تريستان وإيزولدا" حكاية غرام من أساطير القرون الوسطى.

(٢) البَرْك، مركب بثلاثة صوارٍ.

(٣) القيثار والقيثارة ، آلة طرب ذات ستة أوتار.

(٤) "بريتجن"، شبه جزيرة فرنسية فى الشمال الشرقى.

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

سيف الله

(١)

تألقت ميونيخ وامتدت سماؤها بحرير أزرق برّاق فوق ميادين زاهية وأروقة ذات أعمدة بيضاء، وأنصاب تذكارية، ونافورات تدفع ماءها، وقصور الحكم وحدائقها، كما تجلّى أفقها الرحب ذو التنسيق الرفيع تحت شبورة أحد أول أيام شهر يونيو الجميلة.

تُعبّر زقزقة الطيور عن سعادة فى كل أزقّة المدينة ... وتشهد ميادينها الجميلة المُلْهية، والشوارع التى تربط بينها، حركة مستمرّة ذات رنين. بالحوذيّة الصغيرة البطيئة يجول فيها زائروها من كل أنحاء العالم، ثم يدفعهم فضولهم للنزول والتطلّع يمينًا ويسارًا إلى واجهات بناياتها، وصعود السلالم الخارجيّة المؤدّية إلى متاحفها.

نوافذ عديدة مفتوحة تنبعث منها الموسيقى إلى الشوارع، إنها تمارين عزف على البيانو أو الكمان أو الكونترباس، جهود صادقة مخلصة تتخذ الخبرة هدفًا. أما الاندماج الشديد فى المسرح الموسيقى، كما يقولون، فكأنه كورال مع مغنّى.

www.ibtesama.com/vb

هناك شباب يطلقون صفيرهم مرحًا، ويملؤون كل ليلة الصفوف الأخيرة فى صالات المسرح الحديث، ويتجولون وجيوبهم تحوى مطبوعات الأدبَ الدوريّة، ولا تنقطع زيارتهم للمكتبة العامة. أمام كليّة الفنون الجميلة، التى تبسط ذراعيها ذواتى اللون الأبيض بين شارع الأتراك وبوابة النصر فى ميونيخ، يقف الحنطور الفاخر، وعلى جانبى الطريق يجلس ويقف كثيرون من الرجال والنساء والأطفال، لتعكس ثيابهم ألوان أزياء أهل جبال الألب الشعبية الرائعة.

الاسترخاء وسير الهوينى يميزان شوارع جنوب المدينة لم يعد حب الامتلاك يسيطر على أهلها ويدفعهم إلى الاحتمال، بل صارت حياتهم ذات أهدف مقبولة. فنانون شبّان بقبعاتهم الصغيرة المستديرة فوق مؤخرات رءوسهم وأربطة عنقهم المفكوكة، لا يمسكون عصا، ولا يحملون همًّا، ويدفعون إيجار سكنهم مما يكسبونه من الرسم الكروكى، ويتنزّهون الآن ليستمتعوا بهذا الصباح المشرق، وليروا هؤلاء الشابات الجميلات، ممتلئات العود وذوات أنشوطة الشعر السوداء، المتميزات بأقدام تميل للكبر وتقاليدهن المحمودة... ما يمر المرء بأربعة منازل هناك، حتى يجد خامسهم قد تميّز بتلألؤ زجاج نوافذه المُحلّى بالرسومات. تظهر أحيانًا، وسط هذا الخط المعمارى التقليدى، إنجازات رائعة لمهندسين معماريين شبّان

www.ibtesama.com/vb

متمثلة فى بناء فنّى عريض منبسط ذى زخرفة فريدة تتسم بفطنة عرض الطراز المتميزة. يؤدى أبوابه إلى واجهات محلاّت ذات ارتجال غير مبهر، تعرض لوحات عديدة، تظهر فى بعضها الخطوط المناسبة ذات الألوان المتدرّجة، وفى بعضها الآخر نرى السكّير وعروسة البحر وعرايا ببشرتهن الورديّة.

دائمًا ما يتجدد الاستمتاع بالوقوف أمام واجهات محلاّت تعرض الأعمال الفنيّة والكماليات الحديثة. وسائل رائعة للرفاهية، ودعابات مُبتدعة فى كل الأشكال والصور! محال صغيرة فى كل مكان، تعرض التماثيل والبراويز والأنتيكات، كما تظهر في واجهاتها التماثيل النصفيّة الرائجة ذات الإبداع السامى الرفيع لنسوة القرن الخامس عشر. حيث يحدثك صاحب أصغر وأرخص تلك المحلاّت عن دوناتلّو[١]، ومينودا فيزولا[٢]، كأنه حصل على تصريح شخصى من الفنان باستنساخ أعماله.

فى ميدان أوديونس[٣]، حيث الساحة الضخمة المطلّة على مساحة فسيحة من الفسيفساء فى مواجهة قصر الحاكم، يحتشد الناس أمام واجهات العرض المحيطة بمحل التحف العالمية الضخم، أو بالأحرى متجر الجمال العالمى، الذى يمتلكه السيد بلوتنتسفيج. روعة عرض مبهرة! استنساخات أعظم الأعمال من جميع معارض العالم، داخل براويز ثمينة باهرة التركيب

www.ibtesama.com/vb

والزخرفة، تتمتع بمذاق البساطة؛ محاكاة حديثة للوحات تُحيى التراث بخيال واقعى؛ إحياء تماثيل عصر النهضة فى مصبوبات جديدة؛ أجسام عارية من البرونز؛ وأباريق زجاج رقيق مزخرف؛ زهريات فخارية قائمة بما عليها من نقوش خرجت بها من الأفران متألقة الألوان؛ ثم وشاحات فاخرة لانتصارات فن الطباعة الحديث، أعمال شعراء مرموقين، مُجمّعة بفخامة عريقة؛ وبين كل هذا تظهر صور الشخصيات المرموقة من فنانين وموسيقيين وفلاسفة وممثلين، لإشباع حب استطلاع الجمهور عن مثل هذه الشخصيّات.

فى واجهة المحل الأولى، المقابلة للمكتبة، لوحة كبيرة فوق حامل رسم، تجمع أمامها المشاهدين؛ صورة نفيسة ذات لون بنّى يميل إلى الاحمرار داخل برواز عريض ذهبى قاتم، قطعة فنيّة ملفتة، استنساخ أروع ما يقدمه المعرض الدولى هذا العام، الذى تحتل إعلاناته مكانها على الأعمدة بين نظيراتها المؤثرة عن الحفلات الموسيقية وعن وسائل التجميل.

لتلتفت الآن وتنظر إلى واجهات المكتبة! سوف تستجلب العناوين نظرك مثل: "فن الإسكان منذ عصر النهضة"، و"تهذيب الإحساس باللون"، و"عصر نهضة الفنون التطبيقية الحديثة"، و"الكتاب بوصفه عملاً فنيًا"، و"الفن الزخرفى"، و"ظمأ إلى الفن"؛

www.ibtesama.com/vb

كما يجب أن تعلم أن هذه الأعمال المُوقظة تُباع منها أعداد ضخمة، ويدور عليها الحديث فى صالات ملأها الجمهور.

إن حالفك الحظ فسوف تقابل بنفسك إحدى أعلام النساء، التى ألفتها أعين المشاهدين في الوسط الفنى، هذه الثريّة بحلتها من الماس، الجميلة ذات الشقرة الحمراء الذهبية، التى أجاد تيتزيانو[٤] عرضها، نالت ملامحها الفنيّة خلودًا بيد فنان ظهرت عبقريته فى رسم صورة أشخاص، تتحدث كل المدينة عن حياتهم الجنسية، ها هن أولاء ملكات حفلات الفنانين يتمتعن بقدر يسير من الزينة والحلى، والبسمات النبيلة، مولعات بالإطراء، يستحقنّ العبادة. انظر! رسّام كبير وعشيقته يمرّان الآن بعربتهما فى شارع لودفيج، ووقف الناس ليشاهدوهما. كثيرون يحيونهما، وأوشك حرّاسهما أن يتقدموا لحمايتهما.

لقد ازدهر الفن وصارت له السيادة، فابتسم ووضع صولجانه ذا الاحمرار الوردى على المدينة، واستحضر اهتمامًا عامًا بها ذا إجلال، ودعا لها بنشاط دائب متعدد الأطراف، تمثّل فى تأليه ما ينتمى إليها من عقل وفكر وزينة وجمال. إنها ميونيخ وقد تلألأت.

www.ibtesama.com/vb

(٢)

سار شاب فى شارع شيلنج؛ توالت خطاه فى منتصف الطريق المؤدى إلى الواجهة العريضة لكنيسة لودفيج، وقد واجهه السائقون بدقات أجراس عرباتهم. بدا كأنه ظل سحابة عابرة أو ذكرى حزينة تجول بالخاطر. هل لا يحب الشمس، التى غمرت المدينة الجميلة بنورها؟ لماذا أدبر عنها مستغرقًا فى التفكير، ومشى موجهًا ناظريه إلى الأرض.

لم يلبس قبعة، ليس لأن ذلك لن يُحدث صدمة نتيجة حريّة الأزياء فى تلك المدينة ذات الصدر الرحب، بل لأنه بدلاً من ذلك قد رفع كبّوت معطفه(٥)الواسع الأسود فوق رأسه، حتى ظللّ جبهته ذات البروز المربّع وغطّى أذنيه وأحاط بوجنتيه الهزيلتين. أى كرب، أى تأنيب ضمير، أى تعذيب نفس، استطاع أن يجوّف تلك الوجنات؟ أليس فظيعًا أن يظهر الهم فوق وجنتى إنسان فى مثل هذا اليوم المشمس؟ حاجباه قاتما اللون تكثّفا بشدة فوق جذر نحيل لأنفه الكبيرة المعتلّة البارزة من وجهه فوق شفتين كبيرتين غليظتين. عند رفعه عينيه البُنيتين اللتين كادا يلتصقان، تتكون ثنايا على جبهته ذات حواف حادة. تُعبّر نظرته عن معرفة وتناه ومعاناة.

www.ibtesama.com/vb

يرى الناظر إلى صورته الجانبية، وجهًا كأنه تمثال عتيق لأحد الرهبان، احتفظ به أحد أهل الدير فى غرفته الضيقة اليابسة، رفعًا لنداء قد مضى، إلى معارضة رهيبة مفزعة للحياة وسعادتها.

ما زال هيرونيموس[٦] يسير فى شارع شيلنج، يمشى متمهلاً ثابت الخطى، ماسكًا معطفه الواسع من الداخل بكلتا يديه. بجواره سارت صبيتان جميلتان ممتلئتا العود مترفتان ذاوتا شرائط شعر جميلة، بلا كلفة ذراعًا بذراع متئدتا الخطى بمجازفة فكاهية، حتى تهامستا وضحكتا، ثم تقدمتا وواصلتا ضحكهما على كبّوت معطفه ووجهه. لكنه لم يعبأ بهما، وعبر شارع لودفيج مطأطئ الرأس دون أن ينظر يمينًا أو يسارًا، وصعد أدراج الكنيسة.

الباب الأوسط الكبير مفتوح على مصراعيه. شعاع أحمر ضعيف ينفذ من ضوء بعيد كأنه غسق مقدّس، بارد رطب، يملأ الكنيسة بعبق فداء يسوع على الصليب. قامت امرأة عجوز ذات عيون زرقاء من دكّة الصلاة وسارت بين الأعمدة متحاملة على عكّاز. لا أحد سواها فى الكنيسة.

بلّ هيرونيموس جبهته وصدره من جرن المعموديّة[٧]، وجثا أمام الهيكل الكبير[٨]، ثم وقف فى صحن الكنيسة. لكن، ألا

www.ibtesama.com/vb

يبدو أنه قد صارت له الآن هيئة بعد دخوله هنا؟ أصبح معتدلاً، ساكنًا، رافعًا رأسه، صارت أنفه الكبيرة المعتلّة تُعبّر عن قوته، ولم تعد نظرة عينيه مُوجهه إلى الأرض، بل تجرأ بصره وانطلق سريعًا إلى المدى البعيد، إلى الصليب فوق الهيكل الكبير. لم يستمسك بجموده هذا إلاّ فترة وجيزة، جثا بعدها ثم خرج من الكنيسة.

سار متمهلاً ثابت الخطى مطأطئ الرأس فى وسط شارع لودفيج العريض، أمام الشرفة الضخمة بأعمدتها. لكنه رفع نظره فى ميدان أوديون، مما أدى إلى ظهور قُطب عرضيّة جافة الحواف على جبهته، وأبطأ خطاه؛ حيث التفت نظره إلى جمع حاشد أمام واجهات محل بيع تحف، بالأحرى معرض التحف العالمية الضخم لصاحبه م. بلوتتسفيج.

انتقل الناس من واجهة إلى أخرى ليشاهدوا الكنوز المعروضة ويتبادلوا الآراء، إلاّ أن كثيرا ما نظر أحدهم للآخر بعين الازدراء. دخل هيرونيموس بينهم وبدأ يشاهد المعروضات بتأمل، واحدة تلو الأخرى.

رأى محاكاة كبار الأعمال من كل أنحاء العالم؛ براويز رفيعة القيمة غريبة البساطة، تماثيل عصر التنوير، أجسام عارية من البرونز والزجاج المزخرف، زهريات متعددة

www.ibtesama.com/vb

الأنواع، زخارف الكتب ولوحات صور مشاهير مبدعى الفنون الجميلة والموسيقى والفلسفة والمسرح والشعر. وقف برهة أمام كل قطعة فنيّة، وقد أمسك معطفه من الداخل بكلتا يديه، وأدار رأسه المغطاة بكبّوت المعطف، ملقيًا نظرات قصيرة وسريعة على المعروضات. انطلقت عيناه من تحت حواجبه السوداء المكثفة فوق جذر أنفه، التى رفعها لأعلى، بتعبير وجه يدل أمام كل قطعة فنيّة على الاندهاش والتعجب الباردين، حتى وصل إلى واجهة العرض الأولى، حيث اللوحة الملفتة للأنظار، ومكث بعض الوقت ناظرًا إلى سابقيه الملحّين بعين الازدراء حتى تقدّم أخيرًا وأصبح أمام اللوحة المعروضة.

لوحة بنيَّة ضاربة للحمرة ذات إطار ذهبى غامق فوق حامل رسم فى منتصف واجهة العرض. فى هذه اللوحة المبتكرة تبدو مريم العذراء خارجة عن كل تقليد. الأم العذراء المقدسة تظهر بأنوثة فاتنة، جميلة عارية. عينان نجلاوان كحلاوان، وشفتان شبه مفتوحتان بابتسام شهى عجيب. أحاطت بأصابعها الرشيقة، التى ضمّتها بإثارة ظاهرة ولو بقدر، خاصرة طفلها العارى ذى القوام الفطرى الممشوق، أثناء عبثه بنهدها، وتوجيهه نظرة فطينة بطرف العين إلى المشاهدين.

تجاذب أطراف الحديث عن اللوحة شابان آخران بجوار هيرونيموس. كل منهما يحمل تحت إبطه كتابًا، كان قد استعاره

www.ibtesama.com/vb

من المكتبة العامة أو سوف يردّه إليها. كلاهما يؤيدان الحركة الإنسانية[٩]، وواسعى الاطلاع على الفنون والعلوم.

قال أحدهما للآخر: "فعلها الصغير وأجاد، فلأذهب أنا إلى الجحيم!".

فأجابه: "بنظرته يدفع كل مَنْ يراه إلى أن يرمقه بعين الحسد ... امرأة يُرتاب فيها!".

"امرأة تُخرج المرء من وعيه! ويصل به إلى قدر من الشك فى الإيمان بالحمل الطاهر".

"نعم، نعم. ذات تأثير غريب ... هل رأيت أصل هذه اللوحة؟"

"بالطبع! كم أضنتنى! ألوانها مثيرة ... بوجه خاص فى عينيها."

"وصل التشابه إلى أعلى درجة".

"كيف"؟

"ألا تعرف مَنْ كانت الموديل؟ اتخذ شابة صانعة برانيط موديلاً. تكاد اللوحة تكون مجرد صورة لها، لكن رشوة كبيرة أدت لإنجازها هكذا ... والشابة سليمة النيّة".

www.ibtesama.com/vb

" هذا ما أتمناه. لأن الحياة ستقهرها الفتنة، إن انتشر فيها مثل هذه *الأم الخالدة*".

"لقد اشتراها متحف الصور الزيتية".

"حقًا؟ انظر! إن المتحف يدرك ما يفعله. إن عرض جسم، بعد أن تدفق الثوب عنه فى منحنيات، أمر له حقًا مكانته العالية".

"بعم، إنه فتى ذو موهبة تفوق كل وصف".

"أتعرفه؟".

"إلى حد ما. إنه سوف يحقق بالتأكيد نجاحًا رائعًا، بعد أن حضر مرتين لدى رجل العرش ليرسم له صورة."

ثم كان آخر ما قاله الشابان استعدادًا للوداع، حين سأل أحدهما الآخر:

"هل أراك مساء اليوم فى المسرح؟ إن الفرقة أجادت عرض *اليربوح* لماكيافيلى[١١]".

"آه، برافو! ممتع بلا شك. نويت أن أزور مسرح المنوّعات، لكن على ما يبدو أننى سأشاهد أحد أعمال نيكولا[١١]الشجاع".

www.ibtesama.com/vb

افترق المتحدثان ورجعا للخلف ليتجه أحدهما يمينًا والآخر يسارًا. سرعان ما احتل مكانهما أناس جُدُد ليتأملوا اللوحة الناجحة. إلاَّ أن هيرونيموس بقى مكانه دون حركة؛ رأسه ممتدّة للأمام، وبدت يداه منقبضتين بشدّة على معطفه من الداخل.

لم يبق حاجباه على برودهما، بل تحولا بقدرٍ ما إلى التعبير عن الدهشة بانخفاض وتقطب، وازداد تجوّف وجنتيه نصف المحجوبتين بالكبّوت الأسود، وبدت شفتاه الغليظتان باهتتين. ببطء ازداد ميل رأسه، وأخيرًا ثبتت عيناه متجهة من أسفل إلى اللوحة، وتزلزل مصراعا أنفه الكبيرة.

مكث نصف ساعة على هذا الوضع. الناس حوله يحل بعضهم محل الآخر، وهو لا يغادر مكانه. أخيرًا دار على كعبيه ببطء ثم انصرف.

(٣)

انصرف، لكن صورة مريم ظلّت فى ذهنه. دائمًا أبدًا، ما يكون فى حجرته أو يجثو فى إحدى الكنائس الرطبة، حتى تظهر أمام نفسه الغاضبة، تلك العارية الفاتنة، بعيونها الكحلاء المثيرة، وشفتيها ذواتى الابتسام العجيب. مشهد لا تبدده أى صلاة.

www.ibtesama.com/vb

فى الليلة التالية تلقّى هيرونيموس توجيهًا وأمرًا من السماء بالتدخّل لمعارضة الدناءة الهوجاء، وخيلاء الجمال بلا حياء. رأى، مثل موسى[١٢]، أن لسانه لن يسعفه مع هؤلاء؛ لكن إرادة الله ثابتة، ودفعته لقهر تردده، والتضحية بمواجهة هؤلاء الساخرين.

خرج فى الضحى وسلك طريقه، كما أراد الله، إلى محل تجارة التحف، إلى معرض التحف العالمية الضخم لصاحبه م. بلوتنتسفيج. جال متمهلاً، رافعًا كبّوت معطفه فوق رأسه، ماسكًا معطفه من الداخل بكلتا يديه.

(٤)

الجو حار خانق، والسماء غائمة، والبرق والرعد على الأبواب، لكن الجمهور الكبير احتشد من جديد أمام واجهات التحف الفنيّة، وخاصة تلك التى تعرض صورة مريم العذراء. ألقى هيرونيموس عليهم نظرة قصيرة، أمسك بعدها مقبض الباب المزدحم بإعلانات وأغلفة المجلاّت الفنيّة، ثم فتحه ودخل قائلاً: "لتكن مشيئة الرب!"[١٣].

الشابة الجميلة السمراء الواقفة، بشريط شعرها وأقدامها الضخمة، عند المكتب لتدوّن فى سجل حسابات كبير، اتجهت إليه فور ما رأته، وسألته بلطف أن تكون فى خدمته. صوّب

www.ibtesama.com/vb

هيرونيموس بصره، قاطبًا حاجبيه على جبهته الحادة، إلى عينيها قائلاً بصوت خافت: "أشكركِ! لا أريد الحديث معكِ، بل مع صاحب المحل، السيد بلوتنتسفيج." تخلّت عنه ببعض من المماطلة وعادت لعملها، وبقى واقفًا فى وسط المحل.

إن كل ما تحتويه واجهة العرض فى الخارج مجرد أمثلة منتقاة من كم ضخم هائل يفوق حجمها عشرين مرّة هنا فى الداخل؛ ثروة من اللون والشكل والصورة والطراز والدعابة والذوق والجمال. تطلّع هيرونيموس يمينًا ويسارًا ثم ضم ثنايا معطفه الأسود.

كثيرون فى المحل. أمام إحدى مناضد العرض، ذات الامتداد الأفقى، جلس رجل ذو بدلة صفراء ولحية سوداء مدببة، يتأمل مجموعة رسومات فرنسية، ويضحك عليها أحيانًا بصوت ملحوظ. تقدم شاب لخدمته، بوجه مُعَبّر عن قِلّة الدخل والغذاء النباتى، حاملاً مجموعة أخرى للعرض. مقابل هذا الرجل المتذمّر وقفت سيدة عجوز من النبلاء تشاهد الزخارف الحديثة؛ مجموعة زهور كبيرة رائعة ذات درجات من اللون الأصفر، قائمة على عيدان قويّة. اجتهد فى خدمتها أيضا أحد العاملين. على منضدة أخرى جلس رجل إنجليزى غير راض، واضعًا كاب رحلات فوق رأسه وغليونًا خشبًا فى فمه. مهندم، أنيق، حليق الذقن، فى سن رزين لا يمكن الجزم به، جاءه السيد

www.ibtesama.com/vb

بلوتنتسفيج ذاته بأحد التماثيل البرونزية. فتاة جميلة، عارية، غضّة، رقيقة، شبكت يديها فوق نهديها، أمسكها العارض من رأسها وبدأ يديرها ببطء لتلتف حول نفسها من أجل التحقيق الشامل الدقيق.

دار حوله السيد بلوتنتسفيج ذو اللحية البنيّة القصيرة، والعيون البرّاقة، مادحًا الفتاة بكل ما يحضره من كلام.

قال بالإنجليزيّة: "مائة وخمسون ماركًا يا سيدى! فن ميونيخ يا سيدى! الحق أنها فاتنة. أترى، منتهى الإغراء. الرشاقة ذاتها. احتلت قمة الجمال والجاذبية وصارت جديرة بالإعجاب." ثم أضاف ما ورد على ذهنه قائلاً: "قمّة الفتنة والإغراء!".

أنفه منبسطة بقدرٍ ضئيل على شفته العليا، بدرجة تجعله يتشمم دائما عبر شاربه بصوت يشبه النفخ الضعيف. يكاد أن يقترب أحيانًا من المشترى بمشية منحنية كأنه يتشممه. وهذا ما فعله حين ألقى نظرة عابرة على هيرونيموس فور دخوله، لكنه سرعان ما عاد إلى الإنجليزى.

حصلت السيدة عريقة الأصل على ما تبغيه وغادرت المحل. دخل رجل جديد، تشممه السيد بلوتنتسفيج بسرعة، كأنه أراد أن يحدد قدرته الشرائية، ثم تركه للشابة كاتبة الحسابات

www.ibtesama.com/vb

لتقوم بخدمته. لم يشتر الرجل سوى تمثال نصفى قيشانى للفنان بيارو[١٤]، ذى الأصل الأوروبى الرفيع مديتشى[١٥]، ثم انصرف. اتجه الإنجليزى للخروج أيضا، بعد أن اشترى تمثال الفتاة، وانحنى السيد بلوتنتسفيج لتحيّته. بعد ذلك اتجه صاحب المحل نحو هيرونيموس حتى وقف أمامه. قال له بقليل من التواضع: "أمرك ..." ضم هيرونيموس معطفه من الداخل بكلتا يديه، ناظرًا دون أن يرمش له جفن إلى وجه السيد بلوتنتسفيج، ثم فصل بين شفتيه الغليظتين ببطء قائلاً: "جئتك من أجل اللوحة المعروضة في هذه الواجهة، الصورة الكبيرة للعذراء مريم". كان صوته ضعيفًا دون أى تغيير فى طبقته.

بدأ السيد بلوتنتسفيج يفرك راحتيه بحيويّة قائلاً: "آه، أصبت يا سيدى ... بالبرواز سبعون ماركًا. سعر غيرَ قابل للتغيير ... استنساخ من الطراز الأول. قمة الفتنة والإثارة".

أثناء حديث تاجر التحف، ظل هيرونيموس صامتًا، مائلاً برأسه المغطاة بكبّوت المعطف، بعد أن تراخى جسده، ثم عاد وانتصب قائلاً: "فى البداية أُلفت نظرك أننى لا أستطيع أو حتى أريد شراء أى شيء. يؤسفنى أن يخيب ما كنت تنتظره. وأتأثر إن كان هذا يؤلمك. أولاً أنا فقير، وثانيًا لا تروق لى هذه الأشياء التى تعرضها. لا، لا أستطيع شراء أى شيء".

www.ibtesama.com/vb

قال السيد بلوتنتسفيج: "ليكن ... ليكن إذًا! "ثم تشمم بشدة قائلاً: "الآن، هل لى أن أسأل ..." لكن هيرونيموس استطرد قائلاً: "نظرًا لما أعتقد أننى أعرفه عنك، فإنك سوف تحتقرنى لأننى لست قادرًا على شراء شىء منكم ...".

همهم السيد بلوتنتسفيج قائلاً: "لا أبدًا ... فقط ...".

"مع ذلك أرجوك تنصت إلىّ ويقدّر ما سوف أقوله".

"أقدّر! آه! هل يجوز لى أن أسال ...".

قال هيرونيموس: "يمكنك أن تسأل وسوف أجيبك. جئتك برجاء أن ترفع هذه الصورة، هذه اللوحة الكبيرة للعذراء مريم، من واجهة العرض فورًا، و لا تعيدها هناك مطلقًا".

حملق السيد بلوتنتسفيج صامتًا فى وجه هيرونيموس لحظة، معطيًا الانطباع كأنه أدىّ به إلى أن يقع فى حرج مما سبق وغامر بقوله عن اللوحة. لكن بما أن هذا قد وقع بالفعل، سرعان ما تشمم وقال:

"هل تتفضّل وتخبرنى إذا ما كنت تقوم الآن بمهمة رسميّة، كلّفوك بها، وهى إعطائى التعليمات! أو تقول لى ماذا جاء بك هنا ...".

www.ibtesama.com/vb

أجابه هيرونيموس: "لا، ما لى مكتب أو منصب لدى الحكومة. ما من قوة تدعمنى يا سيدى. ما جاء بى سوى ضميرى".

حرّك السيد بلوتنتسفيج رأسه باحثًا عمّا يقول، وأنفه تدفع أنفاسه بشدة فى ذقنه، وأخذ يُغَالب لسانه حتى نطق أخيراً، وقال:

"ضميرك ... ضعِ فى حسابك الآن ... أن ضميرك هنا... لا وزن له مطلقًا!" قالها مستديرًا ليتجه إلى مكتب فى أقصى المحل وبدأ يكتب. سرعان ما غرق العاملان فى الضحك، وكركرت الآنسة الجميلة أمام دفتر الحسابات. أما الرجل ذو البدلة الصفراء، واللحية السوداء المدببة، فقد بدا أجنبيًا، لأنه لم يفهم شيئًا على ما يبدو من هذا الحوار، بل واصل انشغاله باللوحات الفرنسية، وضحكه ما بين الحين والحين بصوت ملحوظ.

قال السيد بلوتنتسفيج لأحد مساعديه مزدريًا: "يا ليتك تطرده!"، ثم عاد للكتابة. اتجه مساعده الشاب، ذو الوجه المعبّر عن قلّة الدخل والغذاء النباتى، محاولاً أن يكف عن الضحك، إلى هيرونيموس، كما اقترب منهما البائع الثانى.

سأل قليل الدخل فى هوادة: "هل من خدمة نؤديها إليك؟".

www.ibtesama.com/vb

لكن هيرونيموس ظلّ ملقيًا عليه نظرة ذات أسى وبرود، وأيضا حادة وثابتة.

قال: "لا، كما أنك لا تستطيع أن تؤديها. جئت لأرفع صورة العذراء مريم من واجهة العرض فورًا، وإلى الأبد!".

"آه ... لماذا؟".

أجابه هيرونيموس بهدوء : " إنها المقدّسة، أم الرب يسوع المسيح ...".

"بلا شك ... لكنك تعلم أن السيد بلوتنتسفيج لم يقبل النزول على رغبتك".

قال هيرونيموس، ورأسه ترتجف: "يجب مراعاة أنها الأم المقدّسة، أم الرب يسوع المسيح".

"صدقت. ثم ماذا؟ ألا يجوز عرض العذراء مريم؟ ألا يجوز رسمها؟".

استشب هيرونيموس على ساقيه وحرّك رأسه بشدة عدة مرات بعد ظهور القطوب الطويلة الغليظة على جبهته ذات الحواف الحادة تحت كبّوت المعطف، وعلى الرغم من ذلك همس قائلاً: "ليس هكذا! ليس هكذا! أنت تعلم جيدًا أن رذيلة هذا الرسّام ... هى الإثارة! إننى سمعت ما قاله اثنان ساذجان بلا

www.ibtesama.com/vb

بلا وعى أثناء تأملهما لوحة العذراء مريم، هذه اللوحة التى جعلتهما ينحرفان عن عقيدة طهارة حمل العذراء ...".

"آه، اسمح لى، هذا الأمر خارج موضوعنا تماما".

قالها مفكرًا ومبتسمًا البائع الشاب، الذى أنجز فى ساعات بطالته كُتيّبًا عن تيار الفن الحديث، وأصبح قادرًا على إجراء حوار ثقافى، ثم واصل حديثه قائلاً: "اللوحة عمل فنّى، ويجب الحكم عليه بالمعيار الذى أدّى إلى خلقه. لقد لقى نجاحًا هائلاً من كل جانب، وابتاعته الدولة ...".

قال هيرونيموس: "أعرف أن الدولة ابتاعتها، وأعرف أيضا أن الرسّام نال جوائز من الحكّام، وأصبح موضوع الحديث لدى الناس، والله يعلم ما تعنيه حقيقة حصول مبدع مثل هذا العمل على التقدير العالمى. علامَ تشهد هذه الحقيقة؟ على عَمَى العالم، عَمَى مفجع، لأنه لا يعرف الحياء. عمل فنّى أتت به الشهوة، والآن يأتى هو بها ... أليس كذلك؟ أجبنى! أجبنى أنت أيضا يا سيدى بلوتنتسفيج!".

أطبق الصمت، وبدا هيرونيموس متشوقًا بجديّة إلى سماع الرد ثم اتجهت نظراته الحادة ذات الأسى إلى العاملين اللذين رمقا بصرهما إليه بفضول ودهشة. خيّم السكون، فيما عدا ضحك ملحوظ الصوت من الرجل الأصفر ذى اللحية السوداء

www.ibtesama.com/vb

المدببة، المنحنى على ما أمامه من اللوحات الفرنسية، إلى أن ظهر السيد بلوتنتسفيج الممتلئ. واصل هيرونيموس حديثه مرتجفًا، وعبّر صوته الضعيف عن الاستياء الشديد: "إنكم لا تجرؤون أن تنكروا هذا! لكن كيف يمكن الإشادة بمن جاء بهذا العمل وكأنه تفضّل على الإنسانية تفضلاً مثاليًا إبداعيًا؟ كيف يمكن الوقوف أمام ذلك العمل والانغماس فى رذيلة ما يأتى به من متعة مزرية، وإسكات الضمير بما يسمونه الجمال. نعم، كيف يوهمون أنفسهم بأن مشاهدة هذا العمل حالة سامية نادرة لائقة بالإنسانية؟ هل هذا جهل خسيس أم رياء منحط؟ إن عقلى يقف ساكنًا ... لا يُبدى حِراكًا أمام حقيقة غير معقولة تتمثل فى إمكانية وصول الإنسان لأعلى شهرة على وجه الأرض عن طريق إظهار مطمئن لغريزته الحيوانية! الجمال ... ما الجمال؟ ما السبيل لكشف الجمال وتأثيره؟ لا يمكن ألاّ تكون مدركًا لهذا يا سيد بلوتنتسفيج! كيف يمكن مشاهدة شىء كهذا بكثرة دون الإصابة باشمئزاز وغم؟ من الإثم إثبات ودعم جهالة الأطفال الذين لم يعرفوا بعد ما الحياء، وما لا حرج فيه دون حياء، لأنهم ما زالوا بعيدين عن العذاب والخلاص، عن طريق تمجيد وعبادة الجمال! ... لعلك تقول: أيجول بخاطره مجرد النظر خلسة! أقول لك إن المعرفة أكبر شقاء فى العالم؛ لكنها مطهّرة، دون عذابها المطهّر من الشوائب، لن تصل النفس إلى الخلاص.

www.ibtesama.com/vb

لا جدوى من عقل الطفل الذى لم يعرف الحياء بعد، ولا من السذاجة الخسيسة، يا سيد بلوتنتسفيج، بل من المعرفة التى تنطفئ فيها وتذوب آلام أجسامنا المنفّرة."

ساد صمت، لم يقطعه سوى تذمّر قصير من الرجل الأصفر ذى اللحية السوداء المدببة.

قال قليل الدخل فى هوادة: "عليك أن تنصرف الآن".

لكن هيرونيموس لم يتهيأ مطلقًا للرحيل، بل وقف فى وسط المحل رافعًا رأسه المغطاة بكبّوت معطفه، وقد تأججت عيناه، وتلفظت شفتاه الغليظتان بلعنات ذات رنّة لاذعة لا يمنعها مانع.

ينادون بالفن والمتعة والجمال! يكسون العالم برداء الجمال، و يضفون على كل شىء سمو الشكل! ... اذهبوا عنّى أيها الملاعين! أترون أن الألوان المولعة بالأبهة سوف تطلى بؤس العالم؟

أتعتقدون أن صخب الاحتفال باللذة الفاخرة سوف يعلو على تأوه الحياة المعذبة؟ إنكم ضالون، يا مَنْ لا تعرفون الحياء! لم يهملكم الله، بل يمهلكم، ويل لكم حين يمثّل أمام عينيه تعبّدكم المفضوح لأصنام ذات وجوه باهرة! ... لعلك ترد علىّ وتقول: إنك تطعن فى الفن. حينئذ أقول لك: إنك تكذب، أنا لا أطعن فى

www.ibtesama.com/vb

الفن! الفن ليس خداعًا بلا ضمير يدعو، بالإغراء عن طريق عرض الجسد، إلى إثبات وتصديق الحياة! الفن شعلة مقدّسة تحنو بضيائها على كل الأعماق الموحشة، وعلى هُوى الوجود المخجلة والمحزنة؛ الفن نار أضرمها الله فى العالم حتى تتأجج فيه وتدفع عنه، برثاء المُخلّص، كل ما فيه من مهانة وعار! ... يا سيد بلوتنتسفيج، أخرج عمل الفنان الشهير من واجهة العرض لديك! ... نِعْمَ ما تفعل أن تلقى به فى نار حامية، ثم تنثر رماده مع الريح فى الاتجاهات الأربع!".

انكسر صوته غير الجميل، وخطا خطوة بحدّة إلى الخلف، ثم انتزع أحد ذراعيه من لفّة معطفه الأسود، ومدّة بحركة سريعة، وأشار بيد مرتجفة ذات تقلّص وتشنّج غريبين إلى الواجهة، إلى شباك العرض، حيث الصورة المثيرة للعذراء مريم. ظلّ على هذا الوضع الآمر؛ حيث عبّرت أنفه الكبيرة الحدباء عن حب السيطرة، وارتفع حاجباه الكثيفان الملتقيان فوق جذر أنفه لأعلى بدرجة جعلت جبهته ذات الحواف الحادة تحت ظل كبّوت المعطف، تظهر ممتلئة بثناياها العريضة، وفوق تجويف خدوده اشتعلت حماسة ذات حمية.

حينئذ استدار السيد بلوتنتسقيج، كأن المساس بهذه القطعة الفنيّة المستنسخة، الذى سيؤدى إلى فقدانها، قد أغاظه، أو أن أقوال هيرونيموس أفقدته صبره؛ على أية حال لقد بدا عليه

www.ibtesama.com/vb

السخط الشديد؛ حيث أشار بريشة الرسم إلى باب المحل، ونفخ بأنفه عدة مرات فى شاربه بسرعة فائقة، وصارع لسانه حتى تفجّر بأقصى الاستنكار قائلاً:

"أيها القديس الشفيع![١٦] إذا لم تغرب عن وجهى وتترك المحل فورًا، سوف آتيك بحازم المبيعات ليسر لك الخروج، أتفهمنى؟".

بقبضته ضم هيرونيموس كبّوت معطفه من فوق صدره، وهزّ رأسه دون خوف، صائحًا:

إنك لن تخيفنى، أو تطيرنى أو تُسكت لسانى! أعرف أنه لا حول لى ولا قوة، لكنى لن أصمت حتى تسمعنى يا سيد بلوتنتسفيج! أَخْرِج اللوحة من واجهة العرض واحرقها اليوم! آه، لا تحرقها وحدها! بل احرق أيضا هذه التماثيل الصغيرة والنصفيّة، التى تُوقع فى الإثم، وأحرق هذه الزهريات والزخارف بما عليها من إحياء فاجر للوثنيّة، وتصوير فاضح لنشوى العشق! احرق كل ما يحتويه متجرك يا سيد بلوتنتسفيج، لأن الله حرّمه! أحرقه، أحرقه، أحرقه!" هكذا استشاط غضبًا حتى أتى بحركة هائجة بين مَنْ حوله، هاتفًا: "زرعٌ خبيث حان جَتُّه ... وقاحة فاقت كل الحدود ... إننى أقول لكم ..." حينئذ

www.ibtesama.com/vb

اتجه السيد بلوتنتسفيج إلى أحد أبواب خلفية المحل مناديًا بكل ما لديه من طاقة: "ادخل فورًا يا كراوتهوبر!".

تلبية لهذا النداء، ظهر شيء ضخم ساحق، على شاكلة إنسان جبّار هائل، ذى بدانة مرعبة، تتدافع أطرافه غير المتجانسة فى كل إتجاه بتكتّل وتدفّق وتكدّس ... فحل عملاق، من العوام ذى العافية، تقرع أقدامه الأرض ببطء، عنيف يتأفف غضبًا! على وجهه شارب ذو أهداب مثل كلب البحر، وتغطى بنيته مريلة سميكة ملطّخة بالغراء، أما أكمامه، فقد صعدت لأعلى وكشفت عن ذراعيه الأسطوريتين.

قال السيد بلوتنتسفيج: "يا كراوتهوبر، افتح الباب لهذا السيد، وإن لم يخرج، عليك أن تصل به إلى الشارع!".

"هه!" قالها الرجل، وعيناه الصغيرتان كعيون الفيل تلقيان نظرته بالتناوب بين هيرونيموس وصاحب المحل المغتاظ... قالها بصوت عميق ذى قوة يصعب كبح جماحها، ثم مشى خطوات هزّت كل ما حوله، حتى وصل إلى الباب وفتحه.

ازداد شحوب وجه هيرونيموس، وأراد أن يتكلّم، لكنه ما كاد يقول "احرقه ..." حتى غلبته اليد الطولى ودفعته إلى الوراء. قهرته قوة جسم لا يمكن الصمود أمامها، ودفعته عبر الباب ببطء وإكراه.

www.ibtesama.com/vb

ما زال ينطق بما يستطيع: "إننى ضعيف ... القوة فوق طاقة جسدى ... لا يستطيع الاحتمال، لا ... ماذا يعنى هذا؟ احرقه ...".

سكت بعد أن أخرجته من المحل لكمة خفيفة ودفعة من العبد الضخم الذى أطاع سيده بلوتنتسفيج. اتكأ على يده جانبًا فوق السلّم الحجرى الذى هوى إليه، بعد أن انغلق وراءه الباب الزجاجى محدثًا صلصلة.

اعتدل ثم قام متنفسًا بصعوبة. ضم بإحدى يديه كبّوت معطفه إلى صدره، وأدخل الأخرى تحت المعطف. خيّم شحوب رمادى على أجواف وجنتيه؛ بينما تتابع انتفاخ وانغلاق أرانب أنفه الكبيرة النحيلة؛ وتقلّصت شفتاه الدميمتان معبرتين عن مُقت يائس؛ ثم طافت عيناه بما فيها من جمرات حيرة واستنكار بالميدان الجميل.

لم ير الأعين التى تطلّعت إليه فى شغف وسرور، بل اتجه بصره إلى زخارف الحياة فى ساحة الفسيفساء أمام الشرفة الضخمة، حيث الصور التذكّرية لحفلات الفنانين، وزخارف الزهريات، والحلى، والتماثيل العارية كأنها إحياء فنّى للوثنيّة، وصور شخصيّات شهيرة الجمال، رسمتها أيدى برعت فى تصوير فاضح لنشوى العشق، وإعلانات تولع الناس بفن ألفاظها

www.ibtesama.com/vb

الرهيبة ... نظر إلى سحب صفراء تجمّعت فوق شارع تيأتينر، حيث رعدت السماء بصوت خافت وأتت ببريقها فوق المدينة السعيدة.

ارتجفت قبضة يده بشدة داخل معطفه ذى الكبّوت، حتى طفرت جوانحه، وهمست شفتاه الغليظتان رافعًا النداء: سيف الله على الأرض ... حاد وبتّار![١٧]

www.ibtesama.com/vb

الهوامش:

(١) دوناتلّو (١٣٨٦ -١٤٦٦) : نحّات إيطالى من فنّانى عصر النهضة. له تمثال يوحنّا المعمدان، وداود. قلّد الأقدمين، لكنه لم يهمل عصره.

(٢) مينودا فيزولا: هو فرا أنجليكو (١٣٨٧-١٤٥٥)، راهب دومينيكى إيطالى من كبار رسّامى القرن الخامس عشر. امتاز بروعة تأثير اللون وسمو الروح، وأبدع فى رسم وجوه الملائكة المشرقة. أشهر آثاره جداريات دير القديس مرقص فى فلورانسا.

(٣) ميدان أوديونس: تعنى باليونانية ميدان دار الموسيقى.

(٤) تيتزيانو (١٤٨٨-١٥٧٦)، أشهر رسّامى مدرسة البندقيّة. عمل عند ملوك أوروبا، وترك لهم لوحات شخصيّة. له أيضا لوحات: فينوس، الوضع فى القبر، آدم وحواء.

(٥) كبّوت المعطف، أو الزعبوط؛ غطاء رأس ملحق بالمعطف.

(٦) انتقى توماس مان لبطل القصة اسم "هيرونيموس"، الذى حمله فى التاريخ الراهب الإيطالى الدومينيكى (١٤٥٢-١٤٩٨)؛ رئيس دير القديس مرقص فى فلورنسا. جدير بالذكر

www.ibtesama.com/vb

أن وصف توماس مان الدقيق لهذا البطل ينطبق تماما مع اللوحة الإيطالية لذلك الراهب GIROLAMO SAVONAROLA جيرولامو سافونارولا.

(٧) جرن المعمودية: حجر منقور لماء المعموديّة فى الكنيسة. المعموديّة أول أسرار الدين المسيحى وباب النصرانية. وهى غسل الصبى وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس. واللفظة سريانيّة الأصل أو مولّدة مأخوذة من العَمَد أى البَلل.

(٨) الهيكل: موضع فى صدر الكنيسة، يُقرّب فيه القربان.

(٩) الحركة الإنسانية: هى حركة إحياء الآداب الكلاسيكية والروح الفردية والنقدية والتأكيد على الهموم الدنيوية. كم تجلّى ذلك فى النهضة الأوروبية، حيث تؤكد "الفلسفة الإنسانية" على قيمة الإنسان وقدرته على تحقيق الذات عن طريق العقل. وكثيرًا ما ترفض الإيمان بأية قوة خارقة للطبيعة.

(١٠)ماكيافلّى(١٤٦٩-١٥٢٧): سياسى وأديب وفيلسوف إيطالى. اشتغل بالسياسة، لكنه اشتهر بكتابه "الأمير"، الذى عرض فيه مذهبه السياسى وآراءه فى الحكم، ودعا إلى نظام

www.ibtesama.com/vb

جديد حر دينيًا وأخلاقيًا. تنسب إليه الماكيافليّة التى أصبحت مرادفة للدهاء السياسى والمكر والخداع، وللمبدأ القائل "إن الغاية تبرر الوسيلة". من أعماله "اليربوح"، تعنى نباتًا عشبيًا من الفصيلة الباذنجانية.

(١١)نيكولو (١٧٣٣-١٨١١): من ممثلى حركة التنوير فى ألمانيا برواياته ذات الاتجاه الإنسانى الهزلى.

(١٢)قارن العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح السادس ١١، ١٢: "فتكلّم موسى أمام الرب قائلاً ... فكيف يسمعنى فرعون وأنا أغلق الشفتين."

(١٣) "لتكن مشيئة الرب" = !DEUS LO VULT، هذا هو النداء، الذى رفعه البابا أوربان الثانى عام ١٠٩٥ لأول حملات الحروب الصليبية.

(١٤)بيارو دلا فرانشكا (نحو ١٤٢٠-١٤٩٢)، رسّام إيطالى اشتهر بسيطرته على اللون واختيار المناظر الطبيعية وإجادة رسم وجه الإنسان.

(١٥) مديتشى: أسرة إيطالية حكمت فى فلورنسا ١٤٣٤-١٤٣٧. من أمرائها قوزما الأول ١٥١٩-١٥٧٤، وفرديناندو الأول ١٥٨٧-١٦٠٩، وفرديناندو الثانى ١٦٢١-١٦٧٠. اتصل بهما الأمير فخر الدين المعنى الثانى فقدما له

www.ibtesama.com/vb

المساعدات الفنيّة وعقدا معه حِلفًا عسكريًا. من هذه العائلة ملكتان على فرنسا؛ كاترين ومارى.

(١٦) القدّيس الشفيع: القدّيس الحامى لشخص أو كنيسة.

(١٧) يستحضر هذا النداء ورود فساد الأرض فى العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح السادس، ويوم الحساب فى العهد الجديد، سفر رؤيا يوحنّا، الإصحاح العشرون.

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

حادثة القطار

هل أروى شيئًا؟ لكنى أعلم أنى لا أعلم شيئًا [1] ، حسنًا، سوف أروى شيئًا.

فى يوم من الأيام منذ عامين شهدت حادث قطار، كل التفاصيل مازالت واضحة أمام عينىّ.

لم تكن حادثة فظيعة، أو واقعة "تجاوزت الحدود" وما إلى ذلك، لكنها حادثة قطار بمعنى الكلمة، من حيث وقوعها وما نتج عنها. لم يشهدها كل الناس، لذلك أريد أن أعرضها على أتم وجه.

كنت فى طريقى إلى درزدن، تلبية لدعوة جماعة مُشجّعى الأدب. تنتمى تلك الرحلة إلى مثيلاتها فى مجالات الفن والموسيقى، التى أقوم بها عن طيب خاطر من وقت لآخر، وبها يُمثّل المرء موطنه، ويتقدم للظهور أمام الجميع؛ و ليس عبثًا أن يظهر المرء تابعًا للقيصر فيلهلم الثانى[2].

كما أن درزدن تتمتع بجمالها (على وجه الخصوص الفناء الخارجى)، وأردت أن أقضى بعد ذلك عشرة أيام أو أربعة عشر يومًا فى "قيسن هيرش" حتى أخلد إلى الراحة، وإن جاءنى الوحى، أعود إلى الانكباب على العمل. تحقيقًا لهذه الغاية،

www.ibtesama.com/vb

وضعت المخطوط فى حقيبتى، مع مفكّرة داخل دوسيه ضخم، ملفوف بورق سميك ذى لون بنىّ، ومربوط بدوبارة بافارية قويّة.

دائما ما أنتقى أكثر وسائل السفر رفاهية، إذا كنت مدعوًا إلى هذه الرحلة. لذلك اخترت عربة النوم، وحجزت قبل الرحلة بيوم ديوانا فى الدرجة الأولى، ثم أكدّت الحجز. على الرغم من ذلك جاءنى القلق المعتاد دائمًا فى مثل هذه الظروف، لأن قيام الرحلة يظل مغامرة، ولم أصل إلى الهدوء الحقيقى مطلقًا فى المركبات. إننى على يقين أن قطار الليل إلى درزدن يقوم من المحطة الرئيسة فى ميونيخ كل ليلة، ويصل إلى درزدن كل صباح. لكن إذا سافرت به، وارتبط مصيرى ذو الأهميّة بمصيره، يصبح الأمر ذا شأن. عندئذ لا أستطيع دفع تصورى أنه لا يقوم إلاّ اليوم فقط، ومن أجلى وحدى. بالطبع تؤدى مثل هذه اللاّعقلانية إلى الانفعال الشديد، الذى لا يفارقنى إلاّ بعد أن أنتهى من كل لوازم قيام الرحلة؛ إعداد حقائب، والانتقال بالحنطور حتى محطة القطار، ثم الوصول إليها وتسليم الحقائب، بعدها أصل إلى مكانى واستقر فيه. الحق أن بعد ذلك يأتى جهد ممتع، حيث تتجه النفس إلى ما هو جديد، وتتفتح الغربة خلف زجاج النافذة، ويشغل الفؤاد تطلّعه إلى السعادة.

www.ibtesama.com/vb

هذا ما كان أيضا تلك المرة. أجزلت شيّال أمتعتي العطاء، حتى رفع لى طاقيته وتمنّى لى رحلة سعيدة. وقفت أدخّن سيجار المساء أمام شباك ممر عربة النوم، مراقبًا الحركة فوق الرصيف؛ حيث الهسهسة والدوى والإسراع واستقبال القادمين، والنداء النغمى من بائعى الجرائد والمرطّبات، وبريق أضواء مصابيح النيون الكبيرة عبر ضباب مساء شهر أكتوبر. رجلان قويّا البنيان يدفعا عربة يد مُحمّلة بالحقائب الكبيرة، فى طريقها لعربة الأمتعة. عرفتُ حقائبى من خلال سمات موثوق بها. ها هى ذى اللّفة الثمينة ترتكز على أساسها تحت أشياء أخرى كثيرة. أرى الآن أنه لا داعى للقلق، إنها فى يد أمينة. انظر الآن إلى هذا الكمسارى المتميز بحقيبة معلّقة بحزام على كتفه، وشارب الجاويش الضخم، والنظرة الفظّة! انظر كيف صرخ فى وجه السيدة العجوز ذات العباءة المهلهلة، لأنها كادت أن تركب فى الدرجة الثانية! هكذا تكون الإدارة والتوجيه والسُلْطَة والأمن. لا يروق لأحد أن يتعامل معه لصرامته. إنه غليظ القلب، لكن محل ثقة، حيث يجعلهم يحملون حقائبك ويدلّلونها.

سار أحد السادة متنزهًا على رصيف المحطة، مرتديًا رداء قَدم من الركبة حتى الحذاء[٣]، ومعطف قصير للخريف، ساحبًا كلبه بالقيد. لم أر من قبل كُليبًا بهذا الجمال. البُلْدُجْ[٤] قصير الشعر اللاّمع، مفتول العضلات، ذو بقع سوداء، لطيف

www.ibtesama.com/vb

مثل الكُليبات التى تظهر أحيانًا فى السيرك، وتُسعد الجمهور بعدوها بينهم بكل قوى جسمها الصغير. يحمل الكلب طوقًا من الفضّة حول رقبته، متصلاً بحزام القيادة ذى الجلد المجدول متعدد الألوان. لكن كل هذا لا يثير العجب بالنظر إلى سيده ذى الرداء على القدم من الركبة حتى الحذاء، ذى الحسب والنسب بكل تأكيد. نظّارته أعطت ملامحه الجديّة دون تحريف، وشاربه حاد الهيئة. جانبا شفتيه وذقنه تثير الاحترام، وتعبر عن قوة الإرادة. طرح سؤالاً على الكمسارى ذى المنظر الحربى. عندئذ أدرك الساذج مع مَنْ يتحدث، وأجابه رافعًا قبعته احترامًا له. ثم واصل السيد سيره راضيًا عن تأثير شخصيته، بالتأكيد واصل سيره مرتديًا رداء قدمه من الركبة حتى الحذاء، ووجهه معبرًا عن البرود، مستهدفًا الإشراف على كل ما حوله، شيئًا كان أو بشرًا. لا يعانى مطلقًا من حمّى السفر، قيام الرحلة أمر معتاد لديه، وليس مغامرة. حياته مطمئنّة دون خوف على ممتلكاته وقدراته، هو ذاته إحدى هذه القدرات، إنه السيد المحترم. لا أستطيع أن أشبع من رؤياه.

ركب القطار، فور ما بدا له أن الوقت قد حان. (كان الكمسارى قد استدار نحو القطار).

سار خلفى فى الممر، وعلى الرغم من اصطدامه بى لم يقل "آسف!" أيصح هذا من سيد محترم! لكن ما خفى كان

www.ibtesama.com/vb

أعظم! السيد المحترم دخل كابينة النوم ومعه كلبه، دون أن يرمش له جفن! هذا ممنوع بلا أدنى شك. كيف أتّجاسر على اصطحاب كلب فى كابينة النوم! أما هو فقد فعلها متمتعًا بحق السادة فى الحياة، ثم أغلق وراءه الباب.

انطلق الصفير، وأجابت القاطرة، وسار القطار فى هوادة. وقفت أمام الشباك لأرى الباقين الملوّحين بأيديهم، والكوبرى الحديدى، والأضواء تجول متأرجحة ... تم رجعت داخل العربة.

لم تكن عربة النوم مشغولة عن آخرها؛ الكابينة المجاورة لى خالية، وغير مُجهزّة للمبيت، لذلك قررت أن أتخذها مكانًا هادئًا لساعات قراءتى. أحضرت كتابى ودخلتها. الأريكة ذات غطاء من حرير ذى لون قرنفلى ضارب للصفرة، والمطفأة فوق المنضدة القابلة للطى. أوقدت الولاّعة، وبدأتُ القراءة مُدخنًا.

دخل كمسارى عربات النوم ممارسًا عمله، مادًا يده الضاربة إلى السواد، ملتمسًا الاطلاع على تذكرة السفر، فأعطيته إيّاها. تحدّث بأدب، لكن برسميّة محضة، وادّخر قول "تصبح على خير!" مجرد تحيّة سريعة بدأ بعدها دق باب الكابينة المجاورة، لكن يبدو أنه كان عليه ألاّ يفعل ذلك، لأن

www.ibtesama.com/vb

فيها السيد صاحب رداء القدم من الركبة حتى الحذاء، وربما يود السيد الآن ألاّ يدع أحدًا يرى كلبه، أو أنه قد نام بالفعل. باختصار، لقد فقد أعصابه بطريقة مرعبة، لأن أحدًا أقدم على إزعاجه. على الرغم من صوت عجلات القطار سمعت من خلال الحائط الرقيق الفاصل بيننا، انفجار سخطه، الذى لا توصف شدّته. صاح قائلاً: "ماذا؟ دعنى و شأنى! أيها الأحمق!".

قال عبارة "أحمق"، بلكنة السادة والفرسان والقادة. إلاّ أن كمسارى عربات النوم تمالك نفسه من أجل المفاوضة، لأن واجبه أن يرى تذكرة السيد. خرجت إلى الممر لأتابع ما يحدث، رأيت كيف انفتح باب السيد بدفعة قصيرة، تبعها إلقاء التذكرة بشدة فى وجه الكمسارى، الذى استطاع أن يمسكها بكلتا يديه، وعلى الرغم من ذلك أصاب طرفها عينه حتى دمعت، لكنه ضم قدميه وشكره وأدى له التحيّة. بعد ذلك عدت متأثرًا إلى القراءة.

نظرت بعين الاعتبار فى إمكانية أن أعارض تدخينى سيجارًا آخر، ووجدت أن المعارضة مثل عدمها. أى أنى سوف أدخن سيجارًا آخر مع طوى الصفحات والقراءة، وأشعر بالسعادة وغزارة الفكر. مر الوقت، وصارت الساعة العاشرة، أو العاشرة والنصف، أو ربما أكثر من ذلك، واتجه كل الركّاب إلى النوم، وسمحت لنفسى أخيرًا أن أفعل المثل.

www.ibtesama.com/vb

قمت وذهبت إلى كابينة نومى، لأجدها بحق حجرة نوم فاخرة، ذات بطانة جلد مكبوسة على حوائطها، وشمّاعة، وحوض غسل من النيكل. فرش السرير أبيض ناصع، ونصف الغطاء مُطبّق تشجيعًا للضيف.

آه، أرى أننا فى عصر حديث رائع! ينام المرء هنا وكأنه فى منزله، ربما بعض الاهتزاز طوال الليل، لكن النتيجة أن مع الصباح يجد المرء نفسه فى درزدن. مددت يدى إلى الرف الشبكى وأخذت منشفتى من حقيبتى الصغيرة حتى أدخل المرحاض، لكنى سرعان ما وضعتها بكلتى يدى فوق رأسى.

فى هذه اللحظة وقعت حادثة القطار، وما زال كل شىء فى ذاكرتى، كأنه حدث اليوم.

وقع تصادم، لكن كلمة "تصادم" أقل من أن تُعبّر عما حدث. تصادم سرعان ما دلّ على سوئه، وأتى بفرقعة فظيعة، وصلت قوّتها إلى دفع حقيبتى لتطير من يدى، لا أعرف إلى أين، وإلى تصادم مؤلم لكتفى بالحائط. ثم تبع ذلك انهيار مفزع للعربة، لم يستطع المرء فى أثنائه سوى الهلع. خرجت عربة القطار عن القضبان عند التحويلات، فى منحنى شديد. عندئذ لم يستطع المرء الوقوف فى العربة، التى ظلّت تقذف بمن فيها بين حوائطها. لم يحضر فى ذهنى وقتها سوى فكرة بسيطة جدًا،

www.ibtesama.com/vb

لكن بتركيز وانفراد. قلت لنفسى بالحرف الواحد: "الحال سيئة لا محالة. "كما دار بذهنى أننى آمر القطار: "توقّف! توقّف! توقّف!" لأنى أعلم أن توقفه سوف يكون نصرًا كبيرًا. انظر، لقد وقف القطار طاعةً لأمرى الهادئ الحاد.

ظل صمت رهيب مسيطرًا على عربة النوم، حتى انفجر الرعب. اختلط صراخ النساء النافذ بصياح الرجال المقبض. سمعت بجوارى صياح "النجدة!"، إنه بلا شك ذلك الصوت، الذى ردد منذ قليل عبارة "أحمق"، صوت السيد المرتدى رداء قدم من الركبة حتى الحذاء، صوته بعد أن شوهه الرعب. صاح "النجدة !"، وعند دخولى الممر الذى تجمّع فيه الركّاب، خرج من كابينته برداء النوم، زائغ البصر مردداً "يا ساتر يا رب! يا حفيظ!" ثم قال متضرعًا، وربما دافعًا خطر الهلاك عن نفسه، بنغمة الدعاء "يا لطيف يا رب ..." ، لكنه غيّر هذا الاتجاه وتحوّل إلى إنقاذ نفسه. اندفع إلى دولاب الحائط الصغير، الذى يحوى بلطة ومنشار طوارئ، وحطّم الزجاج بيده، لكنه لم يستطع نزع تلك العِدّة، فاندفع نحو الباب موزعًا لكمات شديدة بين المسافرين، مما أطلق صراخ النساء نصف العاريات، ثم قفز إلى الخلاء.

وقع كل هذا فى لمح البصر. لم أشعر بالخوف إلاّ الآن؛ إعياء مؤكد فى ظهرى، وضعف متزايد للقدرة على بلع الريق.

www.ibtesama.com/vb

أحاط الجميع بكمسارى عربات النوم، ذى الأيدى السوداء، الذى جاء للتو وقد احمرّت عيناه، وأخذت النسوة ذوات الأذرع والأكتاف العارية يفركن اليدين يائسات. ربما كان هذا خروجًا عن القضبان، حيث أعلن الرجل احتمال خروجنا عن القضبان.

ولم يُصب، كما ثَبُتَ فيما بعد. لكن أترون؟ الرجل صار فى هذه الظروف متحدثًا، وترك صمته الإدارى جانبًا، الأحداث الضخمة فكّت لسانه، وأصبح يتحدث، على الضيّق، عن زوجته قائلاً:

قلت لزوجتى: يا حبيبتى، يملكنى الشعور بأن شيئا يجب أن يحدث اليوم! وحتى لو لم يكن شىء قد حدث الآن، لأقر أيضا الجميع قوله. ازداد الدخان فى العربة؛ دخّان كثيف، لا نعلم من أين أتى؛ آثرنا جميعًا الخروج منها إلى ظلمة الليل.

ليس فى الإمكان سوى أن يكون الأمر بسبب تصدّع سلّم العربة ثم سقوطه واصطدامه بالخط الحديدى، لأن ليس هناك أى رصيف، كما أن عربتنا مائلة بوضوح، ومنحدرة، إلاّ أن النسوة، اللاّتى أسرعن وسترن عوراتهن، أصابهن اليأس وقفزن، وسرعان ما صرنا جميعا واقفين فيما بين القضبان.

كنّا فى ظلام تقريبًا، لكننا استطعنا أن نرى مؤخرة العربة، التى لم تفقد أى شىء، على الرغم من ميلها جانبًا.

www.ibtesama.com/vb

أما حال مقدمتها، بعد خمس عشرة أو عشرين خطوة، فقد أوضح أن الصدمة لم تأت بتلك الفرقعة الشديدة عبثًا. إنه تل من الحطام، كلما اقتربنا رأينا أطرافه، والكمسارية يدورون حولها ببطارياتهم الصغيرة حائرين.

جاءت الأخبار من هناك؛ أناس مضطربون جاءونا بالتفاصيل. نحن الآن بجوار محطة ليست صغيرة، وليست بعيدة عن ريجنسبورج[٥]، وقد دخل قطارنا بكامل سرعته على غير قضبانه، واصطدم بمؤخرة قطار بضائع واقفٍ، ألقى به خارج المحطّة، بعد أن هرس كل جزئه الخلفي، وأضرّ بنفسه ضررًا بالغًا. جرّار القطار السريع، ماركة "مافى" الضخمة من ميونيخ وتبلغ قيمته سبعين ألف مارك، اصطدم وانقسم. العربات الأمامية، الراقدة على الأرض تقريبًا، تداخلت مقاعدها بقدر كبير. لا، الحمد لله، الخسائر البشريّة لم تكن مؤسفة. يقولون إن سيدة عجوز "أخرجوها" من العربة، لكن لم يرها أحد. على أية حال ساد الفزع مع تصادم الركاب وسقوط الأطفال بين الحقائب، أما عربة الأمتعة فقد تحطّمت.

ماذا حدث لعربة الأمتعة؟ تحطّمت؟

وقفت الآن.

www.ibtesama.com/vb

سار أحد الموظفين بدون الطاقيّة على امتداد القطار. إنه رئيس المحطّة، الذى اتسم بالشدّة المتباكية وأراد أن يكبح جماح المسافرين بإعطائهم الأمر أن يتركوا القضبان وينتقلوا إلى العربات. لكن لم ينتبه إليه أحد لأنه فقد طاقيته وزمام نفسه. رجل منكود! تحمّل مسئولية ما حدث. ربما فقد وظيفته، وتحطمت حياته. ولعلّ من الرقّة ألاّ أسأله عن الحقيبة الكبيرة.

جاء موظّف آخر، منحنيًا فى سيره، عرفته بشارب الجاويش الضخم. إنه الكمسارى ذو النظرة اليقظة الفظّة، الذى تمثّل أمامنا مساء اليوم كأنه الدولة والبلديّة. عرج منحنيًا، معتمدًا بيده على ركبته، التى لم ينل شيئًا آخر اهتمامه أكثر منها. قال؛ آه، آه، آه! الآن، الآن! ما هذا؟ آه، يا سيدى، انحشرت بينهم، وانطبق صدرى، ثم فررت فوق السطح، آه، آه!"

انظر! عبارة "فوق السطح"، كأنها عنوان مُلفت للنظر فى الجرائد، لكن الرجل لم يكن فى حاجة لقول لفظ "فررت"، لأنه لم يشهد الحادث أو يحضر لقاءً صحفيًا عنه، لكن ما فائدة كل هذا؟ إنه غير قادر على إفادتى شىء عن مخطوطاتى. سألت شابًا، جاء من تل الحطام سالمًا مهتمًا متيقظًا، عن أمتعتى الكبيرة.

www.ibtesama.com/vb

أجابنى: "يا سيدى، ما من أحد لا يعلم كيف تبدو الحال هناك!" نطقت نبراته بأننى يجب أن أسعد بخروجى مما كان سليم الجسم، ثم أضاف بحركة ثائرة تدل على الخراب، ملتوى الشفتين استنكارًا: "تبعثر كل شىء؛ أحذية النساء و.... عمليات جمع الأمتعة يجب أن تُظهر كل شىء؛ أحذية النساء و ..."

وقفت وحدى تمامًا فى ظلمة الليل بين خطوط السكك الحديدية، أراجع نفسى. لعل عمليات جمع الأمتعة مرّت أيضا بمخطوطاتى. أى أن الضرر أصابها، وتمزقت هى الأخرى وتهرّست. إنها أفضل ما لدى؛ خليّة إنتاجى وفطنتى وكبريائى وعنائى. ماذا أفعل لو حدث هذا؟ ليس لدى نسخة مما صار له كيان، ثم تجمّع و تحلّى حتى دبّت فيه الحياة وأصبح له رنين، فضلاً عن ذلك ملاحظاتى ودراساتى؛ مادة كنز جمعه اليربوع[٧] فى سنوات بعد أن استرق السمع، واكتشف واستدل على الطريق. ماذا أفعل؟ راجعت نفسى بإمعان وأدركت أنى سوف أبدأ من جديد بصبر هذا الكائن وتشبثه. بعد دمار عمله الرائع، الدقيق، الذى أنتجه بإصرار واجتهاد، سوف تمر عليه لحظات اضطراب وارتباك، يبدأ بعدها من جديد، ولسوف تكون هذه المرّة أيسر من سابقتها، ولو بقدر ضئيل.

لكن أثناء ذلك وصل رجال المطافئ، وبدأت كشّافاتهم تلقى ضوءًا أحمر على تل الحطام. تقدمت لألقى نظرة على

www.ibtesama.com/vb

عربة الأمتعة، وظهر أنها سليمة تقريبًا، والحقائب كلها موجودة. كل الأشياء المتناثرة هناك تخص عربة البضائع، مقدار لا يُعد من الكُبب المبعثرة؛ بحر من الكُبب، غطّت أمواجه مرمى النظر.

طابت نفسى، ثم اختلطت بالواقفين؛ الذين جمعتهم الدردشة، وجعلهم سوء الحظ يتصادقون حتى وصلوا بين الحين والحين إلى الفشر وادعاء العظمة. كما بدا مؤكدًا أن سائق القطار قد تصرّف بمهارة وتفادى حادثة كبرى بلجوئه إلى فرامل الطوارئ فى اللحظة الأخيرة، وإلاّ صارت لا محالة، كما يقولون، واقعة كبرى، وانهار القطار فى المنحدر الشديد إلى حد ما على اليسار. سائق يستحق التقدير! فى الحقيقة أنه لم يظهر، ولم يره أحد، لكن صيتِه ذاع فى القطار، ومدحناه جميعًا فى غيابه. قال أحد السادة مشيرًا بيده إلى ظلام الليل: "هذا الرجل أنقذنا جميعًا."، وتبعه كل الحاضرين بهز رءوسهم فى رضا.

لكن قطارنا كان واقفًا على خط آخر لا يخصّه، لهذا وجبت حمايته من الخلف، حتى لا يأتى قطار آخر ويصطدم به. لذلك وقف رجال الإطفاء حاملين شُعَلْ زفت عند آخر عربة، وأيضا الشاب المتيقّظ، الذى أقلقنى من قبل بذكره نصف البوت الحريمى، أمسك كَشّافًا ولوّح به معطيًا الإشارة، على الرغم من عدم ظهور أى قطار فى الأفق.

www.ibtesama.com/vb

من حسن إلى أحسن تقدّمت الحال، وعادت إلى صاحبنا المُتّسم بالإدارة والتوجيه، هيبته ومظهره.

تم إرسال البرقيات واتخاذ كل الخطوات، ودخل قطار طوارئ قادم من ريجنسبورج إلى المحطة بهوادة متصاعدًا منه البخار، كما تم تسليط أجهزة إضاءة بالغاز على أماكن الحطام. نحن الركّاب أخرجونا وجعلونا ننتظر حاجياتنا فى كشك المحطة. ثم انتقلنا بحقائبنا وبعض أمتعتنا، مارين بصفٍ من أهالى المنطقة الفضوليين، إلى مكان انتظار صغير، حيث تبادلنا أطراف الحديث كلما أتتنا الفرصة. بعد ساعة عدنا إلى حشر كل شىء اعتباطًا فى قطار إضافى.

كانت تذكرة سفرى فى الدرجة الأولى (لأنها مدفوعة ضمن الدّعوة)، لكن هذا لم يَعُدْ ينفعنى مطلقًا، لأن كل الحاضرين فضّلوا الآن الدرجة الأولى، حتى صارت مقصوراتها أكثر اِمتلاءً. على آية حال وجدتُ مكانًا آخر ضيقًا، لكننى رأيته أماميى منحنيًا، قد ضاق عليه أحد الأركان! إنه السيد برداء القدم من الركبة حتى الحذاء، والمعطف الخريفى القصير، فى صورة الفرسان، إنه البطل القديم. لم يعد معه كلبه الصغير، أخذوه منه، وافقدوه كل حقوق السادة، التى منحه إياها صاحبه، حيث يجلس الآن عاويًا فى غياهب سجن معتم خلف الجرّار. تذمّر السيد لأن تذكرته الصفراء لم تعد تنفعه الآن،

www.ibtesama.com/vb

وحاول أن يُعارض الشيوعيّة، والمساواة الزائدة أمام جلالة الحادث. لكن أحد الرجال رد عليه بصوت ذى ثقة: "افرح بأنك قد جلست!" فما كان من السيد إلاّ ابتسام بمرارة فى وضعه الرائع.

مَنْ تلك السيدة التى يسندها رجلان؟ إنها المرأة العجوز الضئيلة ذات العباءة البالية، التى كادت أن تركب فى الدرجة الثانية. عادت وسألت من جديد: "أهذه الدرجة الأولى؟" وبعد أن أكدوا لها ذلك، ووجدوا لها مكانًا، ارتمت على الوسادة القطيفة، ثم قالت، كأنهم لم ينقذوها إلاّ الآن فقط: "الحمد لله!".

الساعة الخامسة فى مطلع النهار، جاءنا الإفطار، ثم وصل قطار سريع، ونقلنى بأمتعتى إلى درزدن متأخرًا ثلاث ساعات.

نعم، هذا مكان حادث القطار، الذى شَهِدْته. يجب أن يكون هذا مرة واحدة. أعرف أن المنطقيّون يعترضون على هذا، لكنى أعتقد أن لدىّ الآن على الأقل فرصة طيبة ألاّ أعود فورًا إلى مواجهة حادث مثله.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش:

(١) قول سقراط: أعلم أنى لا أعلم شيئًا.

(٢) القيصر فيلهلم الثانى ١٨٥٩-١٩٤١.

(٣) الغَيْتَر: رداء قدم يلبسونه وقاءً من الركبة حتى الحذاء.

(٤) البُلْدُجْ: كلب قوى، جرىء، ضخم الرأس، قصير الأقدام والشعر.

(٥) ريجنسبورج: مدينة بقارية على نهر الدانوب.

(٦) اليربوع أو الهمسترا: حيوان من القوارض.

www.ibtesama.com/vb

مجـون
(مسـوّدة)

صمتًا! نود الآن أن نلقى نظرة على إحدى النفوس البشريّة. نظرة عابرة فى مسحة وجيزة، بعض الصفحات فقط، لأن انشغالنا شديد. بمدينة فلورنسا[1] فى وقت قد مضى، بعد أن شهد أمورًا عسيرة. هل أمكن التغلّب عليها – أين؟ ربما فى الفناء، فناء قصر ملكى؟ مَنْ يعلم؟ أشياء عجيبة، أوشك بريقها أن يتحوّل إلى شحوب ... أنّا! أيتها البارونة، ضئيلة الحجم، المسكينة، ليس لدينا وقت طويل لكِ!

ها هو ذا تكتيك المحاربين، وقرع الكئوس، وأيضًا الصخب والتسافه، ودندنة الموسيقى، وخطوات الرقص؛ هكذا أصبحنا معروفين بنقاط ضعفنا الصغيرة. ربما أوضح ألم أعمق العيون وأكثرها مراقبة، إننا، دون أن نعلن عن رغبتنا فى ذلك، أينما تُقيم الحياة حفلاتها الساذجة.

البارون هارى، مُعلّم الفرسان، أوقف الرقص فى الصالة الكبرى، مطوقًا عنق سيدته بيمناه ومسندًا يسراه فى خصره صائحًا: "يا إفنتاجوير! هذا ليس فالس، بل تشييع جنازة. يا هذا"!

www.ibtesama.com/vb

أليس عندك أى إيقاع فى جسمك! إن ما لديك سباحة أو تأرجح، ليس إلاّ! يجب على الملازم جلبزاتل أن يواصل العزف من أجل الوصول إلى الإيقاع. اعتزل، يا إفنتاجوير، عليك بالرقص، إن كان أفضل لديك! "قام افنتاجوير واستعد للتنحّى، ثم أخلى المنصّة للملازم جلبزاتل، الذى بدأ فورًا بيديه الضخمتين البيضاوين المنبستطين العزف على البيانو ذى الصلصلة والطنين".

أى أن جسم البارون هارى له إيقاع، إيقاع فالس عسكرى ذو غبطة وفخر ومرح وشعور بالظفر. بمهارة تُلقى جاكتة الفرسان ذات الأربطة الذهبية الضوء على وجهه الشاب المثير، الذى لا يبدى أى علامة على الفكر والقلق. وجهه ذو اللفحة ذات الاحمرار، كما هى الحال لدى الشُقر، على الرغم من أن شعر رأسه وذقنه بُنّى اللّون، أعطاه صورة مثيرة لدى النسوة. كما أكسبت نُدبة، علّى خده الأيمن، تعبير وجهه الظاهر جسارة جامحة. لا نعرف السبب، إن كان ضربة سلاح، أو أن جواده ألقى به إلى الأرض، على أيّة حال إنه شىء من عظمته التى جعلته يرقص وكأنه إله.

لكن إفنتاجوير، إن كان لنا أن نستخدم العبارة المنقولة عن البارون هارى، يبدو فى حركته كأنه يسبح أو يتأرجح. كانت جفونه طويلة لدرجة أنه لا يستطيع أن يفتح عينيه كما ينبغى؛

www.ibtesama.com/vb

ويبدو كأنه يعوم فى ملابسه العسكريّة، التى لا تُظهر جسمه، الله يعلَم مَنْ الذى أشار عليه بالمهنة العسكرية. لم يكن يشارك عن طيب خاطر فى لهو كازينو الضباط مع "الراقصات السنونو"[٢].

لكنه أتى تجنبًا لإثارة استنكار الآخرين؛ لأنه أولاً من طبقة شريفة ذات حال موفور، وثانيًا أن له كتابًا، عبارة عن سلسلة من القصص، التى كتبها بنفسه أو ألّفها، كم يقولون، ويستطيع الجميع شراءها من المكتبات. ولابد أن يكون هذا قد أثار شكًا مؤكدًا فى هويّة إفنتاجوير.

صالة كازينو الضباط طويلة وعريضة، اتسعت بيسر لثلاثين زوجًا من السيدات والسادة، جاءوها هذا المساء للّهو. الحوائط ومنصّة العازفين منقوشة بجبس ذى دهان أحمر ردىء، ومعلّق فى السقف غير المدهون نجفتان شمعدان ذواتا شموع مشتعلة قد ذابت حتى صار لونها داكنًا. أما الأرضيّة المكسوّة بألواح الخشب فقد تم تنظيفها صباح اليوم على يد سبعة فرسان تنفيذًا لأمر قد تلقّوه؛ والخلاصة أن السادة الضباط أنفسهم لا يستطيعون التطلّع إلى أفضل من ذلك طوال مدة خدمتهم فى مثل هذا الوكر وعش الغراب "هوهندام".[٣]إن ما يضفى على هذا الحفل تلألؤًا، وينقله إلى جو البسمات الشيطانية، التى تعطى الليل طابعه عبر شعور فاجر ماجن يدفع بصاحبه إلى "الراقصات السنونو". حتى عساكر المراسلة الأغبياء يبتسمون

www.ibtesama.com/vb

بطريقة ماكرة كلّما وضعوا زجاجات شمبانيا جديدة فى دلو الثلج على جانب المناضد التى تشغل ثلاثة أضلاع الصالة ومكسوّة بمفارش بيضاء، حيث ينظرن فيما حولهن ويرخين جفونهن، مثل الخدم، الذين يعاونون، بصمت واستهتار، على أعمال عنف مكشوفة، تتعلّق جميعها "بالراقصات السنونو".

الراقصات السنونو، الراقصات السنونو؟ الآن نقول باختصار، إنهن "راقصات السنونو من فيينا"! يجُلن فى البلاد كأنهن سرب طيور جوّالة، عددهن ثلاثون، يطرن من مدينة لأخرى، ويدخلن صالات الأوبريتات ومسارح منوّعات الدرجة الخامسة، حيث يؤدين بأصوات مهلّلة مزقزقة بغير كلفة أغنية استعراضيّة راقصة تقول:

إذا عادت الراقصات السنونو

سوف ترى! سوف ترى!

أغنية جميلة، ذات دعابة بسيطة، يلقى أداؤهن لها استحساناً من الجمهور المتعاطف.

هكذا جاءت "الراقصات السنونو" إلى هوهندام وغنّين فى ردهة "جوجلفينج" للبيرة. فى هوهندام مقر وحدة عسكريّة؛ كتيبة فرسان بأكملها، أى أنه أصبح مصرحًا لأفرادها القيام فى النطاق المحيط بما يُفترض أن يكون لهم إقبال شديد عليه. كل ليلة يبدأ

www.ibtesama.com/vb

الجنود غير المتزوجين بتقديم ولائهم "لراقصات السنونو" ويسمعون أغنيتهن ويشربون معهن بيرة جوجلفينج الصفراء؛ ثم سرعان ما يخلفهم السادة المتزوجون. فى إحدى الليالى جاء الكولونيل روملر بنفسه وشارك فى البروجرام بحماس، حتى أعلن فى النهاية استحسانه الصريح متعدد النواحى "للراقصات السنونو".

أعدّ الملازمون ومعلمو الفرسان خطّة للتودد إلى "الراقصات السنونو"، حتى يقبل المنتقى منهن؛ تقريبًا أجمل عشرة فيهن، دعوة إلى قضاء ليلة مليحة بالشمبانيا والعربدة فى الكازينو. كان على السادة الأفاضل ألاّ يعلنوا اشتراكهم فى القيام بهذه الفعلة، بل يُظهروا أسفهم عليها؛ لكن فى الحقيقة أن المشتركين ليسوا فقط ملازمين عزاب، بل ملازمون أوائل ومعلمو فرسان متزوجون أيضا، جاءوا جميعهم مع زوجاتهم (وهذه هى المُلحة، أو النادرة الحقيقية).

هل يأتى هذا بالعراقيل والشكوك؟ الملازم أول ليفستان وجد الحكمة الجوهريّة فى قهر عراقيل وشكوك هؤلاء العسكر وتبديدها! إذا ما تراءى لأهل هوهندام الطيبين، أو حتى جال بخاطرهم، أن يفزعوا من أن يخلط الضباط بين "الراقصات السنونو" وزوجاتهم، لما سمحوا لأنفسهم بذلك، لأن فى الحياة طبقة دنيا وأخرى عليا، لكليهما فى قرارة نفسها الحرية فى فعل

www.ibtesama.com/vb

ما يجلب العار ويخل بالشرف. من غير المعتاد لدى ذى الأصل الشريف أن يتوقعوا ما غير معتاد من فرسانهم. إن الضباط يهُبّون للقتال فى وضح النهار إذا ما ورد بذهنهم وقوع مثل هذا الحدث بالفعل. ذات مرة أُطْلقت النار من المسدسات مع قدوم المساء فى ميدان السوق، ولا يمكن أن يفعلها أحد سوى الضباط، لكن هل يدعو هذا أحدًا للتذمّر؟ الآن أروى لكم نادرة محققة.

سار مُعلّم الفرسان البارون هارى بين الخامسة والسابعة صباحًا، فى طريق العودة، معتل المزاج، بعد قضاء ليلة لهو مع زملائه؛ مُعلّم الفرسان البارون هُونمان، والملازمين، والملازمين الأوائل نزوخزس وتراوتنا وليشترلو. عند عبورهم الكوبرى القديم، قابلهم صبىّ خبّاز حاملاً سلّة كبيرة ممتلئة بأرغفة صغيرة على كتفه، مُصَفّراً لحن أغنيته دون أن يحمل الهم، سائرًا فى طريقه فى الصباح الباكر المنعش. لكن سرعان ما ناداه البارون هارى قائلاً: "هاتها!" وأمسك السلّة من يدها ودار بها فى الهواء ثلاث مرات بمهارة دون أن يسقط منها رغيف واحد، ثم ألقى بها بعيدًا بين أمواج النهر المتعكّرة ليثبت قوة ذراعه. بدا الصبى الخبّاز مذهولاً فى البداية، ثم بدأ عويله رافعًا يديه يائسًا، كأن خبزه الصغير يسبح ويغرق أمام عينيه. لكن بعد ما استمتع السادة بخوف هذا الصبى فترة وجيزة، ألقى

www.ibtesama.com/vb

إليه البارون هارى قطعة نقود تزيد قيمتها على ثمن الخبز ثلاث مرات، مما أضحك الضبّاط أثناء مواصلتهم مسيرتهم. عندئذ أدرك الصبى أنه كان بين أيدى الأشراف، فانعقد لسانه عن الكلام.

سرعان ما سارت تلك الحكاية حديث الناس، لكن ما جاز لأحد أن يجرؤ ويفتح فاه ناقدًا!

بابتسام أو ضغط على الضروس، استقبل الجميع الحكاية من البارون هارى وزملائه. إنهم السادة! سادة "هوهندام" على هذا النحو التقى نسوة هؤلاء السادة الضباط "بالراقصات السنونو".

يبدو أن إفنتاجوير لم يرقص الفالس بحنكة أكثر من عزفه إيّاها، لأنه نزل من المنصّة دون أن يدعو أحدًا إلى الرقص، ومكث منحنيًا على منضدة صغيرة بجوار البارون أنّا، ضئيلة الحجم وزوجة البارون هارى، التى لم يَقُل لها سوى بعض الكلمات على استحياء. أما هؤلاء "الراقصات السنونو"، فلم يجد هذا الشاب فى نفسه مقدرة على محادثتهن. كان يخشاهن بالفعل، لأنه تصوّر، بل أراد أن يُعلن أن تلك النوعيّة من الفتيات اتخذت منه موقفًا غريبًا، وهذا ما آلمه.

www.ibtesama.com/vb

طبائعه العديدة الفاترة ذات القصور، استقبلت أسوأ موسيقى بمزاج صمت وتراخٍ وإمعان فكر، شأنه شأن البارونة أنّا، الجالسة بجواره دون أن يلتفت أحدهما للآخر إلاّ عبر سؤال وجواب بذهن شارد، ثم سرعان ما جمع بينهما بشكل ملحوظ الصمت وتقلّص الوجه والابتسام المتحجّر أثناء النظر إلى هزّات الرقص وحركاته الدورانية.

أومضت شموع النجف وانسابت حتى شوّهتها بزوزات كادت تتماسك حولها. تحتها دارت وتمايلت ثنائيّات الراقصين بحركات نشيطة طابت للملازم جلبزاتل. أسرعوا خطاهم على أطراف أصابع أقدامهم، وتلوّوا بمرونة حتى أنهكوا أنفسهم. بلين تقوّست قليلاً سيقان الرجال الطويلة، ثم أسرعوا وواصلوا تأرجحهم. طارت جونلاّت الراقصات، وتموّجت جاكتات الفرسان ذات الألوان المتعددة، إلى أذرعهم ارتكنت خصورهن بميلة رأس متهالكة على اللّذة.

كاد البارون هارى يضم إلى صدره ذى الحزام "راقصة سنونو" رائعة الجمال، اقترب الوجهان ولم تتحوّل عيناه عن عينيها. هذا التّنائى الراقص تابعته البارونة أنّا بابتسامتها. هناك تلّوى أيضا الملازم المفرط فى الطول ليشترلو مع "راقصة سنونو" قصيرة وبدينة ومتكوّرة. بإخلاص رقصت تحت إحدى النجف زوجة مُعلّم الفرسان هُونمان، عاشقة الشمبانيا، التى

www.ibtesama.com/vb

نسيت نفسها فى الدوران مع "راقصة سنونو" ثالثة ظريفة نمشاء، بزغ وجهها معبرًا عن درجة الشرف السامية التى وصلت إليها بالرقص مع السيدة هونمان، التى قالت فيما بعد للسيدة تروخزس زوجة الملازم: "عزيزتى البارونة، هؤلاء الفتيات لسن جاهلات، بل يستطعن أن يَعْدُدْن لكِ كل وحدات الفرسان على أصابع أيديهن." رقصا معًا لأن عدد السيدات قد ازداد، ولم يلحظا أن الجميع انسحبوا شيئا فشيئا من دائرة الرقص، وجعلوهما يظهران وحدهما. أخيرًا أدركا الأمر وتوقفا فى وسط الصالة ليمطرهما الحاضرون بالقهقة والتهليل والهتاف "برافو!".

شربوا كل الشمبانيا، ودار الخدم بقفازاتهم البيضاء بين المناضد للصب من جديد. لكن فى الروتين اليومى، يجب على "الراقصات السنونو" أن يعدن للغناء مرة أخرى، كُنّ الآن مرهقات أو لم يَكُنّ!

وقفن صفًا فوق المنصّة، التى تشغل جانبًا ضيقًا من الصالة، وجذبن الأنظار إليهن. أكتافهن وأذرعهن عارية، ويرتدين صَدْريات رمادية فاتحة، وفوقها بدلة السهرة التقليدية للسنونوات، ذات اللون الرمادى الغامق. جواربهن بحمّالات وأحذيتهن مفتوحة، ذات كعوب عالية جدًا. بعضهن شقراوات والبعض الآخر سمراوات، والبعض ذوات بدانة خفيفة، وأُخر

www.ibtesama.com/vb

ذوات نحافة جذّابة، ومنهن ذوات وجنات قرمزيّة منفرجة بشكل مُميز، وأُخر ذوات وجه ناصع البياض مثل مُهرّج السيرك. لكن أجملهن كانت ضئيلة الجسم ذات سمرة، بأذرع طفل وعيون واضحة المعالم على شكل اللوز، التى رقصت للتو مع البارون هارى. هى أجمل الموجودات، كما أعربت البارونة أنّا، وهى ما زالت محتفظة بابتسامتها.

الآن تغنى "الراقصات السنونو" ويصاحبهن بالعزف الملازم جلبزائل، مائلاً للخلف بنصف جسمه الأعلى، موجهًا رأسه إليهن، وفاتحًا ذراعيه، غامزًا أصابع البيانو بأنامله. يغنين بصوت واحد كأنهن طيور نشيطة تزور كل أنحاء العالم، ثم تعود ومعها كل القلوب. يرددن أغنية ذات لحن رائع، تبدأ وتنتهى بالكلمات:

آه، آه الجيش

حبه فى قلوبنا يعيش!

لكنهن سرعان ما يلبين طلب الجمهور الأهوج ويرددن أغنيتهن الاستعراضية الراقصة، التى حفظها السادة مثلهن عن ظهر قلب، ويشاركوهن فى غنائها وهم مولعون:

إذا عادت الراقصات السنونو

سوف ترى! سوف ترى!

www.ibtesama.com/vb

دوّت الأغنية فى الصالة وانفجر الضحك، وسار صوت ضربات الأقدام للأرض مع الإيقاع.

ضحكت البارونة أنّا على كل ما كان من عبث ومجون؛ ضحكت كثيرًا طوال الليل، حتى غزت الآلام رأسها وقلبها، ولولا شغف هارى الشديد بمثل هذه الأمور هنا، لأغلقت عينيها وفرّت بسرور إلى الهدوء والظلام ... فى لحظة منذ قليل، قالت للجالسة بجوارها: "إننى سعيدة اليوم".

بعد أن اعْتَقَدَتْ ذلك؛ لكنها سرعان ما أعلنت، بصمتها ونظرتها الساخرة، إدراكها أنها قالت قولاً غير معتاد بين الناس. إن سعادة المرء تنعكس على سلوكه، لكن أن يحددها ويعلن عنها، فهذه جرأة عجيبة، أما أن يقول: "إننى حزين"، فهذا ليس فى الإمكان مطلقًا.

فى مثل هذه العزلة التامة والسكون نشأت البارونة أنّا، وسط أملاك أبيها على البحر، مما جعلها تميل دائمًا بشدّة إلى التغافل عن هذه الحقيقة، لأنها تخشى أن تقع من أنفس الناس موقعًا غريبًا، وصار أملها المنشود أن تحاكى الآخرين تمامًا حتى يميلون إليها ... يداها شاحبتان، وشعرها رمادى أشقر، ويبدو ثقيلاً للغاية، إذا ما قارناه بوجهها النحيل الليّن. انقباض حاجبيها الشقراوين كان يُحرج بسمتها ويضعفها.

www.ibtesama.com/vb

حالتها تدل على أنها أحبت زوجها ... لا يجوز لأحد منكم أن يضحك! إنها أحبته بسبب قصته مع الأرغفة الصغيرة، أحبته بشيء من الجبن والذل، مع أنه يخونها ويسيء معاملتها كأنها أحد المأمورين بأمره، عانت من حُبه كأنها امرأة أساءت إلى رقتها وضعفها، حين رأت أن القوة والمجون الفاجر يسودان. ألقت بنفسها إلى هذا الحب وعذابه، عندما استسلمت إليه حين جاء يخطبها بعد أن أصابته نوبة خفيفة من الحنان؛ استسلام مخلوق منعزل حالم، قهره الظمأ إلى الحياة والغرام وعواصف العاطفة.

تكتيك المحاربين وقرع الكئوس، وأيضا الصخب والتسافه، ودندنة الموسيقى وخطوات الرقص؛ هكذا مملكة هارى وعالمه؛ مملكته لأن المجون فيها معتاد، وأيضا فى حبه وحياته.

أُنس، أُنس جماعى ساذج، سُم مُحطّم للأعصاب، ومُهيمن، ومُضلل، مليئ بإثارة مُجدبة وعداوة للفكر والسلام، شيء رهيب! هنا تبقى طوال الليل يُعذّبها التضاد الحاد بين الفراغ الكامل وحقارة التهييج المحموم المُطْبِقْ عبر الخمر والقهوة وموسيقى الرقص الشهوانية. هنا تجلس لترى كيف يُسحر هارى النسوة الجميلات المرحات، ليس بسعادته بهن، ولكن لأن اغتراره بنفسه يتطلب منه أن يجعل كل من حوله يرونه سعيدًا،

www.ibtesama.com/vb

تهيّأت له الأسباب دون أى استثناء، ولا يعرف المستحيل ... يؤلمها، ولكن يسعدها أيضا، اغتراره بنفسه! يحلو لها أن تراه جميلاً، شابًا، رائعًا، ساخرًا، لكن حب الأخريات له، يجعل مثيله لديها يتحول أيضا إلى تأجج مُوجع! ... عند انتهاء الأُنس، الذى قضته فى عناء من أجله، يسترسل هو فى ثناء جاهل أنانى على تلك الساعات، حتى تأتى لحظات تبلغ فيها كراهيتها واحتقارها مبلغ حبها له. ثم تراه فى قلبها "دنيئًا، مُحتقرًا"، وتحاول معاقبته بصمت، بصمت ذى ابتسام ويأس.

ألسنا على حق يا سيادة البارونة أنّا؟ ألا يصح لنا أن نتحدث عمّا ينزوى وراء ابتسامتكِ أثناء غناء "الراقصات السنونو"؟ حال يدعو للشفقة، ومهين؛ ترقدين فى فراشكِ آخر الليل بعد مجلس أُنس ساذج، أنهكتِ عقلكِ بالفكر فى فكاهاتهم ونكتهم، والبحث عما تقولينه لهم حتى تصبحى ظريفة لديهم، لكنكِ لم تجديه. مع شروق النهار، بعد أن أضعفتكِ الآلام تبكين فى الأحلام بين ذراعيه، ويحاول أن يواسيكِ بقول طريف معتاد بلا معنى، ثم يملؤكِ فجأةً الخجل الشديد من البكاء على دنياكِ بين ذراعيه ... ماذا لو صار مريضًا؟ نفترض أن تصرفه غير المكترث تجاهكِ نقله إلى عالم خيالكِ مريضًا يحتاج رعايتكِ، راقدًا أمامكِ لا حيلة له، بعد أن تكسّرت عظامه، وأصبح أخيرًا، أخيرًا لكِ وحدكِ؟ لا تخجلى! لا تستفظعى الأمر! الهم يدفع

www.ibtesama.com/vb

أحياناً إلى قدر من السوء، نعلم هذا ورأيناه، آه، أيتها المسكينة، ذات الحجم الضئيل! كم رأينا فى رحلاتنا ما يخالف ذلك تماما! لكنكِ تستطيعين مراعاة الشاب إفنتاجوير ذى الجفون الطويلة، الذى يجلس بجواركِ، ويجمعكما انعزالكما، لماذا تعرضين عنه؟ لماذا تحتقرينه؟ لأنه من عالمكِ وليس من عالم الآخرين، حيث الابتهاج والزهو والمجون والإيقاع الراقص وشعور المنتصر؟ الحق يُقال، إنه من الصعب على المرء ألاّ يندمج فى هذا العالم أو ذاك، هذا ما نعلم! ليس هناك تصالح بينهما.

تعصّف الاستحسان بعزف الختام من الملازم جلبزاتل، وانتهى عرض "الراقصات السنونو"، اللاتى قفزن من المنصّة دون اللّجوء لدرجات السلّم، ليطرن فى الهواء ويحدثن الأصوات، ويتزاحم السادة لمساعدتهن. البارون هارى ساعد "الراقصة السنونو" ضئيلة الجسم ذات السمرة وأذرع الطفل، بتمهّل وحنكة. ضم فخدها بأحد ساعديه، وخصرها بالآخر، حملها وتلكّأ فى إنزالها حتى وصل تقريبا إلى منضدة صغيرة لاحتساء الشمبانيا، حيث ملأ كأسا حتى فاضت ثم قرعها الكأس ببطء ذى معنى مُعبّر، ناظرًا فى عينيها بابتسامة مجردة غير ذات موضوع. شرب كثيرًا حتى توهجت نُدْبته باحمرار على خده الأبيض، وظهرت فى وجهه الملتهب؛ على الرغم من كل ذلك بدا خالى البال، منشرح الصدر دون هم أو ولع. تلك

www.ibtesama.com/vb

المنضدة واجهت على الجانب الطولى الآخر للصالة مثيلتها، التى تخص البارونة أنّا، التى كانت تتبادل الحديث دون اكتراث مع أحد ما بالقرب منها، وهى منصتة بفضول للضحك، ومختلسة النظر لتترقب ما يحدث هناك، وضع غريب ذى توتر مؤلم، أدّى بصاحبتنا إلى الحفاظ بلا تدبّر على كل سمات الحوار اللطيف مع شخص، فى الوقت نفسه الالتفات الكامل إلى شخص آخر.

لاحظت مرة أو مرتين أن نظراتها قابلت مثيلاتها لدى "الراقصة السنونو" ضئيلة الحجم ... أتعرفها؟ هل تعرف مَنْ هى؟ جميلة! جريئة وشاردة العقل وحيوية وفاتنة! إن كان هارى قد أحبها، واحترق ولعًا بها وعانى من الشوق إليها، لسامحته وأدركت ما هو فيه، وشاركته الشعور. ثم أحسّت فجأة أن شعورها تجاه "الراقصة السنونو" ضئيلة الحجم أكثر حرارة وعمقًا من مثيله لدى هارى.

"الراقصة السنونو" ضئيلة الحجم! اسمها "إيمى"، وعاديّة جدًا. لكنها رائعة بخصلات شعرها الأسود، المحيط بوجهها العريض الجذّاب، وبعينين على شكل اللوز ذى الحد الغامق، وبفم مُتّسع ذى أسنان بيضاء برّاقة، وبذراعيها المائلين للسمرة، الغضّين الجذّابين؛ لكن أجمل ما فيها كتفان يدوران فى مفصليهما بمرونة منقطعة النظير ... هذان الكتفان استأثرا

www.ibtesama.com/vb

باهتمام البارون هارى؛ لم يحتمل أن تحجبهما، بل شنّ حربًا مُعَرْبَدة على الشال الذى وضعته فوق رأسها، ولم يلحظ أحد هنا أو هناك، لا البارون هارى، أو حتى زوجته، أو غيرهما أن هذه المخلوقة الضئيلة التى جعلت الخمر شجيًّا عاطفيًا، تذوب شوقًا طوال الليل إلى الشاب، الذى لم يلتفت إليها، الذى ضَعُفَ إيقاعه وأدّى إلى تنحيته من العزف على البيانو. عيناه الناعستان وإيقاع عزفه أولعوها به، وبدا لها من أشراف عالم آخر وشعرائه، بينما ألفت البارون هارى وملّته قلبًا وقالبًا، كما أتعسها وآلمها أن إفنتاجوير لم يعطها أدنى علامة تدل على حبه لها.

شموع ذائبة بكثافة، صارت شعلتها ناعسة الضوء بين طبقات زرقاء من دخّان السجائر المُحلّق فوق الرءوس. فاحت رائحة القهوة فى الصالة، وتداخلت أدخنة مجلس الأنس وأبخرته.

وتشابكت مع عطور "الراقصات السنونو"، لتأتى بجو كثيف أحاط بكل شىء؛ مناضد ذات غطاء أبيض ودلو ثلج للشمبانيا، وأناس شاحبون من السهر ومهرّجون، يأتون بالدندنة والقهقهة والكركرة والمغازلة.

توقفت البارونة أنّا عن الكلام. الشك، والتداخل بين الشوق والحسد، والحب واحتقار النفس، الذى اسموه الغيرة ولا يصلح

www.ibtesama.com/vb

أن يكون حتى يظل العالم سليمًا، استذلّوا قلبها بشدة حتى فقدت قدرتها على التظاهر. لعلّه أراد أن يعرف كيف تسوء بها الأمور، لعلّه أراد الخجل، حتى يعبّر عمّا فى صدره نحوها.

نظرت إلى الجانب الآخر ... مازال العبث قائما، والجميع يتتبعونه بشغف ضاحكين. ابتدع هارى مباراة رقيقة يلعبها بالدبلة مع "الراقصة السنونو" ضئيلة الحجم. لقد أبى إلاّ أن يتبادل الدبلة معها، فأسند ركبتيها بركبتيه، وثبّتها فوق الكرسى، ثم أمسك يدها باصطياد رائع وحاول مهرجًا فتح قبضة يدها المطبقة حتى انتصر أخيرًا، ومع التهليل الصاخب من الحاضرين نزع بعد حين أسورتها الضيقة على شكل حيّة ثم حقق الفوز ودفع دبلة زواجه فى إصبعها بإجبار.

عندئذ قامت البارونة أنّا. غلبها الضيق والأسى، والرغبة فى أن تتوارى بحزنها على تفاهته المحببة إلى قلبه، أملها الميئوس منه كان فى عقابه بفضيحة، ولفت نظره إلى نفسه. سحبت كرسيها إلى الوراء وسارت ممتقعة وسط الصالة إلى الباب.

ظهر وَقْع ما كان على الحاضرين؛ جاءهم بالجد وأفاقهم من سُكْرِهم. هتف نفر من السادة منادين هارى باسمه، ثم خرست الضوضاء.

www.ibtesama.com/vb

جرى بعد ذلك أمر غريب. بقرار حازم انحازت "الراقصة السنونو"، بالأحرى "إيمى"، إلى البارونة أنّا. ربما دفعتها لذلك الفطرة الأنثويّة نحو الألم والهوى المفنى، وربما رأت حسرتها على إفنتاجوير، ذى الجفون المرهقة، كأنها رابطة بينها وبين البارونة أنّا، مما أدى إلى اندهاش عام.

صاحت وسط الصمت قائلة: "أنت حقير!"، ودفعت عنها البارون هارى المذهول، يا له من قول: "أنت حقير!" ذهبت بعد ذلك مباشرة إلى البارونة أنّا أثناء فتحها أكرة الباب.

قالت لها بصوت مهموس، وكأن ليس فى المحيطين بها مَنْ يستحق أن يسمعها: "اعذرينى! ها هى ذى الدبلة." ثم أدخلت دبلة هارى فى يد البارونة أنّا، التى أحسّت فجأة بوجه الفتاة الدافئ يلمس يدها بقبلة ناعمة حارة. مرّة أخرى همست "الراقصة السنونو" ضئيلة الجسم قائلة:

"اعذرينى!"، ثم ولّت هاربة.

وقفت البارونة خارج الصالة فى الظلام مذهولة، تنتظر تأثير تلك الحادثة المفاجئة قلبًا وقالبًا، لحظة مجون حلو، دافئ، خفى، أغلق عينيها لحظة واحدة.

www.ibtesama.com/vb

لنتوقف الآن! يكفى هذا، لا مزيد! لكن انظروا فقط إلى هذا التفصيل المهم البسيط! لقد وقفت مبتهجة ومفتونة للغاية بمجون هذه الغجريّة التى قبّلت يدها!

نتركِكِ الآن أيتها البارونة أنّا، ونُقبّل جبينكِ، ثم نفر، وداعًا! عليكِ بالنوم الآن! سوف تأتيكِ "الرقصة السنونو" طوال الليل ببعض السعادة فى الأحلام.

مجون، رعدة صغيرة وسكرة مجون، تخترق أفئدة مَنْ أضلّهم الشوق من آن لآن، فى لقاء سرابى قصير.

www.ibtesama.com/vb

الهوامش:

(١) فلورنسا أو فيرنتسة: مدينة فى وسط إيطاليا على نهر أدنو، عاصمة توسكانا. من أهم المركز السياحية فى العالم.

(٢) السنونو: واحدته سنونة (أعجمية). نوع من الخطاطيف، من فصيلة السنونيّات؛ عريض المناقير، طويل الذنب، سريع الطيران، يلتهم الحشرات فى الهواء. وهو طائر رحّال، مهاجر، يمكننا مقارنته بالغجر من البشر.

(٣) عش الغراب: اسم شاع أن يطلقه الألمان على كل مدينة صغيرة وضئيلة فى العديد من مناطق بلادهم، وهذا نتيجة تأثير المسرحيّة الفكاهية "أهل المدن الألمانية الصغيرة" (١٨٠٣) للأديب أوجوست كوتسبو (١٧٦١-١٨١٩)، الذى قتله عضو المنظمة الطلاّبية الشاب ك. ل. زاند، بعد اكتشاف جاسوسيته لصالح الروس.

www.ibtesama.com/vb

المؤلف فى سطور:

توماس مان

- أديب ألمانى ولد عام ١٨٧٥ فى مدينة لوبيك الألمانية وتوفى عام ١٩٥٥ فى سويسرا.
- حصل على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٩.

له العديد من الروايات الشهيرة منها:

- موت فى البندقية.
- آل بودنبروك.
- المخدوعة.

www.ibtesama.com/vb

المترجم فى سطور:

أ.د. محسن محمد الدمرداش

أستاذ اللغة الألمانية وآدابها فى كلية الألسن، جامعة عين شمس.

موضوع الماجستير: عالم ألف ليلة وليلة فى عمل الأديب الألمانى فريدريش هيبل "الياقوتة".

موضوع الدكتوراه: عالم الإسلام فى أعمال الأديب الألمانى جورج فريدريش داومر.

من أعماله.

- أبو حنيفة وعنان بن داود، فريدريش دورينمات، ترجمة وتقديم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧.

- سجل الحِكَم، ليشتنبرج، ترجمة وتقديم، جريدة أخبار الأدب، القاهرة ٢٠٠٠.

- الطبّاخون الأشرار، جونتر جراس، ترجمة وتقديم، المجلس الوطنى للفنون والآداب، إبداعات عالمية، العدد ٣٣٢، الكويت ٢٠٠١.

www.ibtesama.com/vb

- تدابير ضد السلطة، مختارات قصصية من الأدب الألمانى فى القرن العشرين، ترجمة وتقديم، آفاق عالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، رقم ٢٧، القاهرة ٢٠٠٣.

- الفلسفة الألمانية فى القرن العشرين، فرنر شنيدرس، ترجمة وتعليق، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، رقم ٨٣٣، القاهرة ٢٠٠٥.

www.ibtesama.com/vb

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق

الإشراف الفنى: حسن كامل

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

www.ibtesama.com/vb

منتدى مجلة الإبتسامة
www.ibtesama.com/vb
مايا شوقي

يعد توماس مان (1875 – 1893) أعظم الروائيين الألمان وأكثرهم شهرة، بدأ حياته الأدبية بكتابة الشعر والمسرح، وفى العشرين من عمره وجد فى النثر الصيغة المثلى للتعبير عن موهبته، حاز جائزة نوبل فى الأدب 1929 عن روايته الأشهر "عائلة بودنبروك" وترجمت أعماله لأكثر من 40 لغة عالمية.

الحب والموت موضوعان مهمان فى قصص توماس مان، من البداية حتى النهاية. وقد ظهر هذان الموضوعان فى عناوين رواياته الأخرى، كما يظهران فى بعض قصصه القصيرة التى تتضمنها هذه المجموعة، مثل "الموت" و " طريق المقابر" و " تريستان وايزولدا".

تصميم الغلاف : وائل أحمد

www.ibtesama.com/vb

GREAT IS OUR GOD

حصريات مجلة الابتسامة

WWW.IBTESAMA.COM

www.ibtesama.com/vb